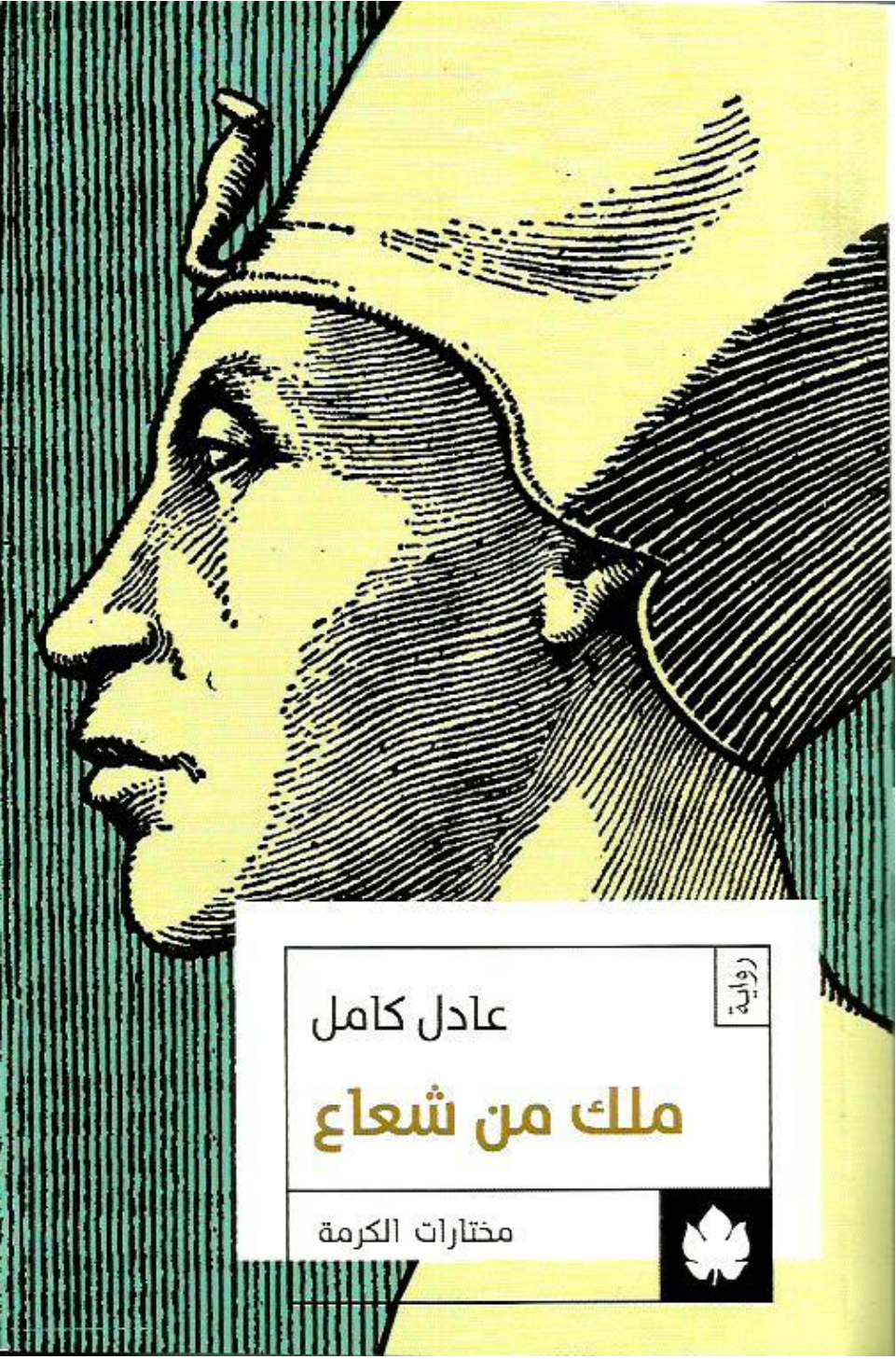

رواية

عادل كامل

ملك من شعاع

مختارات الكرمة

ملك من شعاع

عادل كامل

ملك من شعاع

لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر والتوزيع: www.facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © عادل كامل ١٩٤١
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب
بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

كامل، عادل.
ملك من شعاع: رواية / عادل كامل – القاهرة: الكرمة للنشر والتوزيع،
٢٨٠ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789776467118
القصص العربية.
أ – العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:

أصل صورة أخناتون على الغلاف للفنان جيمس فرانسس هورابن، من كتاب هـ. ج. ويلز
«موجز تاريخ العالم»، طبعة ١٩٢١.

مقدمة

لعل «أخناتون» أعظم عاهل أعقبه التاريخ منذ الأزل. فقد تقلب على الأرض ملوك كثيرون نبغوا في فنون الحرب، فعرف التاريخ «تحتمس» و«رمسيس»، وعرف «الإسكندر» و«قيصر»، ولا يزال عهدنا بـ«نابليون» قريبًا. ولكن أحدًا من ملوك العالم لم يتأت له أن ينبغ فيما نبغ فيه «أخناتون». وليس من بينهم من يستطيع أن يثير إعجابنا ـ بل دهشتنا ـ بمثل ما يثيره هذا الملك الشاب.

فـ«أخناتون» هو التاج الذي تألق به جبين الإمبراطورية المصرية الأولى، التي أقام صروحها «تحتمس الثالث» أول فاتح عرفه التاريخ. وإن المرء مهما يؤت من خيال منسرح، لا يستطيع أن يبالغ في وصف عبقرية هذا الملك. فغزو الممالك أمر سهل لقربه من الغرائز البشرية في أبسط صورها. ومثله حب الفخامة وإظهار العظمة. ولكن المعجز حقًّا هو أن يستطيع فرد وحيد أن يقول لشعوب العالم أجمع: «أنتم جميعًا مخطئون لأن الحقيقة على هذه الصورة»، ولم تكن الحقيقة التي وصل إليها «أخناتون» حقيقة عادية، ولم تكن كشفًا عن بعض

مظاهر الطبيعة، ولم تكن مجرد استنباط مجهول من معلوم، بل كانت حقيقة فذة غير مسبوقة، ثم هي بعد ذلك أعظم حقيقة في الوجود لأنها الحقيقة الواحدة. فلقد أدرك «أخناتون» معنى النور على حين يتخبط العالم في ظلام دامس. استطاع أن يكشف عن جوهر الكون، فطالع العالم بسر الله الأحد، خالق الكون. وتمكنت روحه من أن تستلهم معاني الذات الإلهية فأظهر للناس ـ أول مرة في التاريخ ـ أن الله غفور، رحيم، محب للبشر.

ولقد كان أمر «أخناتون» ـ وهو الملك الشاب الذي مات دون أن يتعدى الخامسة والثلاثين من العمر ـ مصدر دهشة عميقة لكل من كتب عن حياته من المؤرخين. فالعلامة «بتري» يقول عنه: «لم يعرف العالم ديانة سامية كديانة «أخناتون» من قبل. وهي التي مهدت لكل ديانات التوحيد التي أتت بعدها».

أما وشخصية «أخناتون» قد أصبحت حقًّا للتاريخ، فمن العدل، أن نترك أمر تقديمها للمؤرخين أنفسهم، ويبقى لنا بعد ذلك مهمة الصقل الفني لحياته. وصياغتها في العصر الذي ولد فيه بحيث ينعكس عليها وتنعكس عليه.

وليس من واقعة ذات شأن في هذه القصة إلا تستند إلى أساس تاريخي محقق.

وليس من بين شخصياتها واحدة خيالية المنشأ.. أما التفصيلات المكملة التي اقتضتها الصياغة الفنية، وكذلك الحبكة الروائية اللازمة لدعم القصة، فما نظن أن فيها ما يصدم الحقيقة، أو ما يمكن أن يعترض عليه مؤرخ. إلا أن تصوير شخصية «أخناتون» نفسه قد

استدعى بطبيعته إعمالًا خاصًّا للخيال، غير أن هذا كان محكومًا بمدلول تعاليم هذا الملك من جهة، وبالملاحظة العامة للنفس البشرية من جهة أخرى.

يقول العلامة «برستيد» أكبر عمداء التاريخ المصري القديم:

> إن لهذا الملك مركزًا ظاهرًا وشخصية بارزة بين ملوك العالم على توالي العصور، فهو أعظم الفراعنة فلسفة وأكبر الملوك شخصية على مدى التاريخ البشري. لم يكن «أخناتون» فردًا عاديًّا. فهو إلى أنه سليل بيت المجد والشرف كان صعب المراس، قوي الشكيمة، لا يتردد أبدًا في إنجاز مشروعاته وإجبار أكابر مملكته على الانقياد لأوامره. أما شجاعته المعنوية فلا مثيل لها، إذ استطاع في غير وجل أن يناهض بمفرده صرح التقاليد المتناهية في القدم، لكي ينادي بأفكار غاية في السمو كانت فوق مستوى فهم العصر الذي عاش فيه. ولقد توصل هذا الملك العظيم بثاقب فكره إلى معرفة إله العالم خالق الكون، وإلى الإيمان برحمته ورأفته بمخلوقاته. وصل به إيمانه إلى حد أن أصبح «منتشيًا» بمعنى الإله، فكان فكره يهتز في حساسية ودقة تميز عجيبتين لكل مظاهر الله الحسية المحيطة به، أبصر في رفرفة أجنحة الطيور بين سيقان اللعلع نوعًا من الصلاة لخالقها، كما تصور قفز السمك في الغدير تسبيحًا لبارئها. هذه العقلية الممتازة هي التي جعلت المؤرخين يصفون «أخناتون» بأنه أقدم رسول معروف في التاريخ الآدمي. كما تعتبر ديانته التي تتمثل في قوله: «ما أكثر مخلوقاتك المنوعة! إنها سر مكنون أيها الإله الأحد

الذي لا شريك له» أقدم ما عرف عن علم التوحيد. وبموت «أخناتون» اختفت أطهر شخصية في تاريخ الشرق القديم، وتزايلت تلك الروح التي لم تعرف الأرض صنوًا من قبل. والحق أن المرء لا يستطيع أن يحبس إعجابه الدافق لهذا الملك الشاب الذي انبعثت من صدره مثل هذه المعاني الرفيعة في ذلك العصر السحيق. وجدير بعصرنا أن يقدر قيمة «أخناتون»، حق قدرها، وأن يمجد فيه عبقريته في استنباط آرائه الفلسفية الباهرة، وجرأته في نشرها، كل هذا في أحوال سيئة لقي من أجلها الخسارتين: خسارة جسمه وخسارة ملكه.

* * *

أما «آرثر ويجل» المفتش العام للآثار بالحكومة المصرية سابقًا، والذي اشترك في الكشف عن قبر «أخناتون»، فلم يكن أقل إعجابًا به وحماسة له. فقد أفرد لهذا الملك الشاب سفرًا جليلًا نسب إليه فيه أروع الصفات التي يمكن أن يتحلى بها بشر. فهو يقول:

إن حكم «أخناتون» الذي دام سبعة عشر عامًا، يبرز كأعظم حقبة لافتة للنظر على مدى التاريخ المصري الطويل الأمد. إننا نرقب القافلة اللانهائية للفراعنة الغامضين، يتألق نجم كل منهم لحظة سريعة في الشعاع الخافق لمعرفتنا بهم، دون أن يترك معظمهم سوى أثر هين في الخاطر. إنهم مُحجَبون بالضباب، بعيدون في الأحقاب، حتى ليوشكوا أن يفقدوا شخصياتهم. ونحن قد نذكر اسمًا ملكيًّا ما، فتبدو لناظرنا هيئة غامضة تتحرك في ثقل ومهابة. ثم لا تلبث أن تغيب في

الظلمات. فقد يبعث اسم بعضهم ذكريات المواقع الفذة وصلصلة الأسلحة المرهفة، ومن اسم الآخر تصدح موسيقى الحبور وترن ضحكات المرح. في حين يقرن اسم فرعون ثالث بأصوات العويل وصراخ البائسين. غير أن اسم «أخناتون» وحده هو الذي يضيء دياجي الزمن، فيبعث لنا صورة جليلة واضحة، لا يدانيه فيها فرعون آخر. صورة تشع منها ترانيم الأطيار، وضحك الصغار، وعبير الأزهار.

ولأول مرة في التاريخ نستطيع أن ننعم النظر في عقلية ملك مصري، وأن نلحظ تفعلها ونموها، بما يثير في روعنا الدهشة والإعجاب. ولقد وصف العلامة «برستيد» هذا الملك الشاب بأنه أول فرد ظهرت فيه روح الاستقلال الذاتي في التاريخ البشري. وأما إذا أدخلنا في حسابنا بُعد الزمن الذي عاش فيه «أخناتون» وأدركنا كثافة الحجب التي مزقها حتى يكشف عن النور، لوجب علينا أن نعتبره كذلك أول عبقري وأول مثالي عرفه العالم.

لقد تمكن «أخناتون» في عصر نابض بالخرافات، وفي مملكة بلغ فيها الإيمان بتعدد الآلهة حد التقديس المستند إلى شاهق من التقاليد، أن يستوحي ديانة توحيد تكاد تضارع المسيحية نقاء وجمالًا كان أول بشر عرف معنى الألوهية على وجهها الصحيح. وبينما الأرض تجلجل بصيحات الحرب، كان هو يبشر بأول نظريات السلام المعروفة في التاريخ. ثم كان إلى هذا أول رجل نادى باتباع البساطة والأمانة والصراحة والإخلاص قواعد للأخلاق، وكان في هذا يرسل صيحته من فوق

أعظم عرش على الأرض، فبدا أول فرعون أحب الإنسانية، وأول بشر في التاريخ خلا قلبه من كل أثر للوحشية.

لقد استطاع «أخناتون» منذ ثلاثة آلاف عام أن يقيم لنا مثالًا عاليًا لا يزال هو الواجب الاتباع إلى يومنا هذا. مثالًا لما يجب أن يكون عليه الوالد. وما يعمل بمقتضاه الرجل الأمين. وما يحس به الشاعر. ويكدح من أجله الفنان. مثالًا لما يجب أن يعتقده العالم ويفكر فيه الفيلسوف. وقد بذل «أخناتون» ـ ككل المعلمين العظام ـ كل شيء في سبيل مبادئه. وخسر كل شيء. ومع ذلك فلا مجال للشك في أن المبادئ التي وضعها، والتعاليم التي بشر بها، ستظل نبيلة سامية «إلى ذلك اليوم الذي تستحيل البجعة فيه سوداء فاحمة، ويصبح الغراب ناصع البياض، إلى اليوم الذي تنهض فيه الجبال لترتحل، وتلقي الهضاب بنفسها في الأنهار. إلى غاية الأبد».

الفصل الأول

كان القمر يهبط متثاقلًا إلى مضجعه الغربي، حيث يستريح من طول ما عاناه في سفرته الليلية. هناك يسلم قياد الكون إلى زميلته الشمس، لينعم بالنعاس إلى مساء اليوم التالي. ولعله يستطيع أن يستثير شفقة زميلته، فترضى بأن تقوم بدورته إلى جانب دورتها ولو لليلة واحدة.

إنه إن نجح اطمأن إلى نومة طويلة هانئة لا يهدده فيها شبح يدها الثقيلة حين تهزه من رقاده، وتهيب به أن يضطلع بنوبته. ماذا أدركه! لقد بات شاحب الوجه، مبهور النفس، يسري دبيب الضعف في أوصاله، وتتجمع غضون الهِرم على جبينه. لقد أوشكت نهايته. وما هي إلا نوبات معدودة، حتى يهوي به الإعياء في ظلمات الكون، فينتهي به المطاف إلى مراقد أسلافه المنحوتة في تلاع الزمن، حينئذ ينصب الموكلون بالليل والنهار ابنه الوليد على عرشه، فيشيع في الكون أن قد ولد هلال جديد.

ولكن طيبة المزهوة على إمبراطورية فرعون العظيم، لم تكن

تشارك القمر تأملاته الحزينة. كانت كبطل سعيد هاجع في أعطاف زوجه، تطوف به الأحلام البهيجة، فتشيع البسمة على محياه، وتجعل من نومه قصة غرام جميل. فإذا ما لاح الفجر، هيأته هذه الأحلام ليقظة جبارة ترتعد لهولها فرائص المعمورة. أليست عاصمة الملك المجيد «أمنحتب الثالث» الذي تنحني لعظمته هام الملوك، وتدين لسلطانه رقاب الأمم؟

كان السكون مخيمًا على قصر فرعون، فلا تتميز الأذن سوى وقع أقدام حراس القصر الأشداء يذرعون جنبات الحديقة الملكية. وكانت الظلمة تلف أعمدته الباسقة المنطلقة في عروش السماء، فلا ترى العين سوى أشعة القمر الهفَّافة كنفح الزهر، تنضح مدخل القصر بضوء هزيل لا يخفي ولا يبين. إنه جو كالسحر. وهل القمر إلا ساحر عظيم يشيع في السامر نشوة كنشوة الخمر ليسلبه من الرشاد ما يبغي؟

وإذ طاف بوجه القمر كسف من سحاب عابر، رفع حارس مدخل القصر عينيه إلى ساحره يستوضحه الأمر. وفي تلك البرهة برز من شرفة القصر شبح متسربل بالسواد، ما لبث أن توارى في ظل أحد الأعمدة، وهو يرقب الحارس المستغرق في نجواه. وتراجع الشبح قليلًا ثم طوح بشيء في يمناه إلى طرف الحديقة القصي، فسقط بصوت مكتوم أفزع الحارس من غشيته فصاح:

ـ من هناك؟

ثم اندفع في سرعة لا تعرف الوجل إلى مصدر الصوت. ولم يكن الشبح ليطمع في فرصة أوفق من تلك، فما ابتعد الحارس حتى هبط

إلى الحديقة في خفة الهرِّ، ثم هرول يغادر القصر متخفيًا بين الظلال والظلمات.

درج الشبح إلى منعطف في الشارع القائم وراء القصر ثم وقف يترقب. لم يكن يطرق الأسماع في ذلك الحين سوى أصوات الليل. ضفادع تنق على شاطئ البحيرة المواجهة للقصر، وصرصور فرد يرسل أزيزه الممتد ثم يصمت لحظة ليعاوده من جديد. على أن الشبح كان على يقين من أن عيون كهنة «آمون» المنبثين حول القصر لا بد أن يكونوا على مقربة منه. فاستكان في مخبئه معولًا على فطنة تابعه.

وفجأة علا صفير في نهاية الطريق، ثم إذا بصوت يرتفع مرتلًا أغنية طيبة الشهيرة:

ملء شدقيك نبيذ طيب
بينه خبز ولحم يعجب
هذه الثيران للذبح تمد
والنبيذ الحلو للشرب يعد
والأغاني على دق الطبول
أيها المحزون دع عنك العويل

وما إن فرغ المنشد من إنشاده حتى صاح في غضب:

ـ أين ذهبت اللعينة؟ وحق «آمون» لأجزينها على مكرها بي.

وفي هذا الحين برز من جوف الظلمات رجل طويل نحيل يعقد ذراعيه فوق صدره، وجعل يتقدم من صاحب الأغنية في بطء، فلما أن دنا منه خاطبه بصوت جاف قاطع.

ـ أما تترك «آمون» أيها المخمور؟ علام الضجة الآن؟!

خر صاحب الأغنية ساجدًا، وتعلق بأطراف ثوب الكاهن قائلًا:

ـ سيدي كاهن المعبود الأعظم «آمون».. ألف مغفرة. لقد كنت في بيتي أشرب الجعة، ومعي فتاة من أسرى «قادش» اشتريتها بمالي، ولكنها غافلتني وانسلت إلى حيث لا أعلم.

فلما سمع الشبح هذه الكلمات، تحرك من مكمنه وهم بالهرب. وإذ وصل إلى عرض الطريق بان في ضوء القمر فلمحه صاحب الأغنية وصاح به:

ـ رويدك أيتها الماكرة. لقد رأيتك. أستميحكَ العذر والمغفرة يا سيدي الكاهن. ائذن لي باللحاق بهذه الخبيثة قبل أن تفلت.

فأجابه الكاهن في اقتضاب:

ـ ابتعد عن القصر، واعلم أن الحق لا يضيع في طيبة موطن الإله الأعظم.

فانحنى الرجل للكاهن وقال:

ـ شكرًا يا سيدي. لعمري إنك محق أيها الكاهن المبجل.

وانطلق يعدو في إثر الشبح وهو يردد:

ـ سأعلمك كيف تحترمين قانون فرعون المقدس ابن الإله. أتحسبين الحال هنا كالفوضى الضاربة أطنابها في بلادك الهمجية؟

ولحق بالشبح، فأمسكه من يده، ثم أخذ يجره وراءه في عنف غير عابئ بنحيبه وتوسلاته. غير أنه لم يكد يتوارى به عن عيني الكاهن حتى خر أمامه راكعًا وهو يقول:

ـ معذرة مولاتي المقدسة. اصفحي عن عبدك الذليل.

فأجابه صوت نسوي رقيق:

ـ لا بأس يا «تايا». انهض وإلا انكشف أمرنا.

نهض «تايا» خاشعًا أمام مولاته التي أخذت تنعم النظر في الطريق الممتد أمامها بين قصور نبلاء الملك وحدائقهم، وأخيرًا التفتت إلى تابعها قائلة:

ـ أتظنه قد شك في حقيقة حالنا؟

ـ كلا يا مولاتي. أتجدينني أخفقت في تمثيل الدور الذي أمرتني بأدائه؟

ابتسمت السيدة الجليلة ثم لفت لثامها حول وجهها قائلة:

ـ كلا يا «تايا»، فقد كدت أصدق أنا الأخرى أنك مخمور حقًّا. هيا بنا.

انحدرت السيدة وخلفها تابعها في طريق متسع تحف به الرياض ويقوم النخيل على جانبيه. وكان نسيم الصيف الرطب يعبث بلثامها فيبين عن وجهها الوضاء. وبعد مسيرة دقائق عشر بدأت الأرض الحمراء، الصحراء، تظهر للعيان ساجية الرمال.

انحرف الشبحان إلى طريق ضيق، سارا فيه بعض الوقت إلى أن وصلا إلى حافة الصحراء، فتقدم «تايا» وجال ببصره في الفضاء المنبسط أمامه إلى غير نهاية فلم يستطع أن يميز شيئًا. ولكنه إذ بعث من فمه صفيرًا خاصًّا لم يلبث أن سمع الإجابة عنه من مكان غير بعيد، فسار صوب الصوت تاركًا مولاته متكئة إلى جذع نخلة عتيق.

وبعد برهة قصيرة تردد في جنبات الصحراء صدى حوافر خيل

مقبلة، وما لبث أن ظهر «تايا» وهو يقود عربة مشدودة إلى فرسين فارهين لا تهدأ لهما حركة. وقفت العربة أمام السيدة التي خفت إليها مسرعة، فما اعتلتها إلى جانب تابعها حتى انطلقت بهما في جوف الصحراء.

وبعد مسير نصف ساعة بدأ معبد الإله «رع» يظهر جاثمًا بين الرمال الهامسة. لقد شاء تعصب كهنة «آمون» ألا يكون لهذا المعبود الأول الذي انحدر من صلبه سائر فراعنة مصر معبد داخل حدود طيبة، فألقوا به بين الفيافي، بعيدًا، منبوذًا، حيث الذئاب وبنات آوى. «رع» إله الشمس والحياة... إلا أن عناصر الشر لا تستطيع أن تتربع طويلًا على عرش الأرض، فلا بد أن تقيض الأقدار يومًا من يعيد إلى إله الآلهة وسيد الكون سابق سطوته وسالف عزه.

كان الليل مسهدًا وسنان، والصحراء تغشاها رهبة تمسك بالأنفاس. وبين حين وحين يتعالى من وراء الآكام صياح الثعالب وعواء الذئاب، فيجيبها الفرسان بصهيل يدوي كالرعد في سكون الليل، وتتجاوب أصداؤه من بعيد كأنما تصدر من عالم سحيق.

تملك السيدة ذعر لعب بقلبها فحدثتها نفسها بالعودة. وخيل إليها أنها كلما أمعنت في بطن هذه الصحراء العاتية تكاثرت من حولها الأخطار. إنها تعلم أن الأرواح المؤذية تتكاثف في هذي الفيافي الموحشة على هيئة وحوش ضارية، يطلقها بعض الآلهة الشريرة لخدمة أغراضهم. غير أن طموح السيدة وشدة شغفها ببلوغ مأربها، ما لبثا أن شددا من عزيمتها ونفثا في فؤادها من الشجاعة ما راحت تؤيده بالصلاة للأرباب، والابتهال إلى الإلهة «هاتور»

الذهبية شفيعة النساء. ولكي تخفف من حدة هذه الرهبة طفقت تحدث تابعها قائلة:

ـ أترى تطول الرحلة كثيرًا؟

فأجابها التابع وهو يشير بأصبعه:

ـ انظري يا مولاتي إلى ناحية المغرب. تلك مسلة معبد «رع» بدأت تتوضح للعيان.

ـ ولكني لا أرى العربات الأخرى. أتكون قد ضلت الطريق؟

ـ إنها في أعقابنا يا مولاتي. لقد أمرت قائديها بالتخلف مرحلة حتى لا نلفت الأنظار بموكبنا.

صمتت السيدة هنيهة، ثم قالت:

ـ «تايا»... أتظن الطريق مأمونًا؟

فأجابها التابع في صوت خاشع:

ـ مولاتي... المؤمن بإله الشمس لا يخشى ضرًّا.

وكأنما أحس «تايا» بما استولى على مولاته من الرهبة، فانطلق يتبسط معها في الحديث ليخفف من جزعها.

ـ إن «رع» شفيق بالإنسان أعظم الشفقة يا مولاتي. لقد تآمر عليه بنو البشر مرة حين خيل إليهم أنه قد هرِم وضعفت سطوته. وكان «رع» في ذلك الحين يحكم الآلهة والناس على سطح الأرض. فما كان منه إلا أن صوب إليهم إحدى عينيه المقدستين، وإذا بهم قد هربوا أشتاتًا في الصحراء. وحينئذ نصح له بقية الآلهة بأن يرسل عيونه إلى الأرض لتقتفي أثر المتآمرين، وتعصف بهم عصفًا شديدًا. فأنزلها متجسمة في هيئة الإلهة «هاتور»،

وانتظر يرقب عودتها. وأخيرًا مثلت بين يديه فخاطبها قائلًا: «أهلًا بقدومك يا هاتور». فأجابته مزهوة مختالة: «طب قلبًا أيها الإله الأعظم، لقد كنت لعمرك شديدة البأس بين الناس. ولقد جلست في سرة الدنيا آكلها خضمًا وقضمًا، ثم عصفتَ ببني البشر ودهيتهم بموت أحمر، حتى صارت الأرض مناحة طامية. لقد سر ذلك قلبي كثيرًا أيها الإله، وإني لمعاودة مهمتي على الفور».

ارتجفت السيدة وانكمشت في زاوية من العربة وقالت:

ـ أهذه «هاتور» إلهة الحب المرحة الطروب بين النساء؟

فأجابها «تايا» قائلًا:

ـ مولاتي، لا تحكمي على الآلهة فنحن لا نعرف حكمتهم. إن أنباء تاريخهم المقدس لا يعرفها غير كاهننا الأعظم بمنف.

ـ وماذا فعلت «هاتور» بعد ذلك؟

ـ لقد جزع «رع» الرحيم حين تجلى له شغفها بالدماء، حتى خشي على شعبه من الفناء، ففتقت له الحيلة أن يولم وليمة لـ«هاتور». فلما حضر الشراب دس لها في الجعة مادة خفية، جعلتها تغيب عن صوابها حقبة طويلة. وبذلك كفت عن التنكيل بالبشر.

وصمتت السيدة لحظة ثم قالت:

ـ ولكن كيف ساغ لـ«رع» بعد ذلك أن ينزل عن عرشه لأبنائه الفراعنة، فلا يستمر في حكم مصر بعدله وقدسه؟

ـ مولاتي، إن «رع» لم يتخل عن مصر. إنه يشرق عليها كلما انبلج الصباح فيحمي نبتها، ويطعم بهمها. ولكنه بعد أن خلص البشر

من الفناء، عافت نفسه الاستمرار في حكم هذه المخلوقات التي لا وفاء لها. وقال: «بحياتي إن قلبي قد مل البقاء معهم». فنادى البقرة المقدسة «نوت» وتسنم ظهرها، ثم ارتفع إلى السماوات العلى، حيث يشرف على شؤون البشر كل صباح. هذا يا سيدتي هو إله الآلهة الذي يريد كهنة «آمون» القضاء عليه، وما «آمون» سوى بعض أتباعه.

ما إن أتم «تايا» قصته حتى كانت العربة تصعد التلعة التي يقوم فوقها معبد «رع». وفي هذا الحين برز رئيس الكهنة بباب المعبد وظل منتظرًا حتى وقفت العربة قبالته، فساعد السيدة على الترجل، وطأطأ برأسه بين ذراعيه الممتدتين، ثم خر ساجدًا.

تقدمت السيدة من رئيس الكهنة فمست رأسه بأصابع يمناها وقالت:

ـ انهض يا أبتاه.

فمثل الكاهن خاشعًا أمام السيدة العظيمة ثم قال:

ـ سلام «رع» وبركته تحلان في صاحبة الجلالة المقدسة الملكة «تي» زوجة فرعون العظيم. الخير والسعادة والعزة لجلالة «أمنحتب الثالث» ابن الشمس.

دنت الملكة من الكاهن وأسرت في أذنه قولها:

ـ يجب ألا يعلم زوجي المقدس بشيء مما سيتم الليلة.

ـ إن شاءت مولاتي قتلت نفسي في الصباح بعد أن أتم خدمتها.

ـ لا بأس عليك يا أبتاه. إننا نحتاج إليكم لمناهضة كهنة «آمون» الذين يزداد قحتهم على مر الأيام. هل أعددت العدة؟

ـ كل شيء ينتظر أمر مولاتي صاحبة الجلالة.

ـ حسنًا. هيا بنا.

إلا أن الكاهن لم يبرح مكانه بل تململ قليلًا وظهرت عليه علائم الحيرة والتساؤل. فرفعت الملكة إليه عينيها الجميلتين في وجل قائلة:

ـ ماذا يا أبتاه.. هل حدث ما أفسد تدبيرنا؟

بادر الكاهن مجيبًا فقال:

ـ كلا يا صاحبة الجلالة. لقد أتاني اليوم رسول من الرائي الأعظم بمنف، فأخبرني أن كاهننا الأكبر قد ابتهل إلى الإله «رع» الرحيم خمسة أيام كاملة، لم يطعم في خلالها سوى قبضة من التمر، ولم يشرب إلا كوبًا من الماء. وفي نهاية هذه المدة تمكن أن يسحر عين الإله بالتعاويذ المقدسة التي لا يعرف سرها مخلوق غيره، فحبسها في صندوق صغير بعث به مع الرسول.

ذهب الروع عن الملكة ولاحت على شفتيها ابتسامة فتية. وفي تلك الأثناء وقفت ثلاث عربات ملكية أمام باب المعبد، فوثب منها ستة من العبيد العمالقة، وخروا ساجدين في انتظار أمر مولاتهم. التفتت الملكة إلى الكاهن وقالت:

ـ ما سبب خشيتك إذن يا أبتاه؟

حنى الكاهن هامته ثم قال:

ـ سامحيني يا صاحبة الجلالة. لقد خشيت أن تكون مولاتي قد فاتها إحضار القرابين للإله.

ضحكت الملكة ضحكة كرنين الكؤوس الذهبية وقالت:

ـ لا تخف يا كاهن «رع». لقد أحضرت للإله كل طاهر من الطيبات التي تستحق أن توضع على مائدة القربان.

وما أتمت الملكة حديثها حتى تعالى من أعماق المعبد صوت أجوف كهديل الحمام. فاستقام الكاهن عجلًا وقال:

ـ مولاتي. لقد أزف الموعد. هلمي.

تقدم الكاهن في طريق منحدر وتبعته الملكة ومن خلفها «تايا» ومعه العبيد يحملون مختلف القرابين من لحم وخبز ونبيذ ولبن، فضلًا عن الحلي والملابس وأدوات الزينة. فكان الطريق مسقوفًا شديد الحلكة، لا يتردد في جنباته سوى خفق الأقدام. وهبت من الطرف الآخر للطريق ريح باردة كثيفة تلسع الوجوه كأنها أكف الموتى.

وضعت الملكة يدها على كتف الكاهن، لا لتستوثق من الطريق فحسب، بل لتستأنس بالإحساس بقربه منها. لقد كان قلبها يدق كطبول الحرب لشدة ما تملكها من الذعر. وأخيرًا قالت بصوت خفيض:

ـ إلى أين نحن سائرون يا أبتاه؟

ـ لعل صاحبة الجلالة لم تدخل قبل الآن معبدًا لإله الشمس، إن معابد «رع» يا مولاتي تتميز عن سائر المعابد.

ـ أليس من نور نستضيء به؟

ـ «رع» هو إله النور.

وبعد أن سار الجمع قرابة مائتي خطوة، دلفوا إلى ردهة متسعة ذات أعمدة شاهقة، يتخللها ضوء القمر فيظهرها للرائي كأشباح جبارة ترقص حول النيران.

كانت رهبة المكان تفوق كل وصف. وانعطف الكاهن إلى الملكة وقال لها:

ـ سندخل الآن إلى «قدس الأقداس» فهل أنت طاهرة؟

فأجابته الملكة في شيء من الوجل قائلة:

ـ أجل يا أبتاه.

وعاد الكاهن يسألها مستوثقًا:

ـ هل مس أحشاءك المقدسة طعام غير الأطعمة التي أباحتها الشريعة؟

ـ كلا يا أبتاه.

تقدم الكاهن وفي إثره الملكة إلى نهاية قاعة الأعمدة، حيث كان جمع من الكهنة قد خشعوا ساجدين احتفاء بجلالتها. فلما مرت من بينهم قاموا فحملوا القرابين التي أحضرها العبيد، ودخلوا بها إلى ساحة المعبد، حيث وضعوها على مذبح كبير من المرمر.

وبعد أن أتم الكهنة مهمتهم بادروا إلى الخروج من ساحة «قدس الأقداس» فلم يبق فيها غير الملكة والكاهن، الذي خر على وجهه ساجدًا، وراح يتلو صلوات لم تستطع لها الملكة فهمًا. وبعد برهة رفع الكاهن رأسه وأومأ للملكة بأن تحذو حذوه، فسجدت إلى جواره وشاركته الصلاة.

انطلقت سحب البخور في أرجاء المعبد، فنهض الكاهن وأخذ بيد الملكة متجهًا بها صوب مسلة إله الشمس، فراحت ترمقها صعدًا، ثم التفتت إليه تسأله في حيرة:

ـ أين تمثال الإله «رع» يا أبتاه؟ أريد أن أبتهل إليه كي يستجيب دعائي.

ـ ليس لـ«رع» تمثال يا صاحبة الجلالة. إنه الشمس، إنه الضوء، إنه الحياة.

وقف كلاهما خاشعين تجاه المسلة التي كانت قمتها قد التقطت أول أضواء الفجر الخافتة. إلا أن شعور الوجل لم يفارق الملكة فعادت تسأل الكاهن:

ـ أبتاه. إنني أخشى الإخفاق. لقد أخبرني كهنة «آمون» ألا فائدة مما أطمح إليه.

أجابها الكاهن في سخرية قائلًا:

ـ ومتى صدق «آمون» وكهنته يا صاحبة الجلالة... لقد قال كهنته إن النيل سيكون غائضًا هذا العام، فإذا بالفيضان يأتي عميمًا على صورة لم تعهدها كمي المقدسة مصر منذ عشرات السنين.

ـ وهل أكد الرائي الأعظم أن الإله سيتكلم الليلة؟

ـ إن الإله مضطر إلى ذلك يا صاحبة الجلالة. فعينه حبيسة الصندوق المخبوء في دثاري، ولا بد له أن يفك أسرها قبل الصباح، لكي يتمكن من أن يشرق على الأرض كعادته.

صوب الكاهن بصره ناحية المشرق، وانفك يحدق فيه وهو صامت. واستغرق به الحال عدة دقائق حسبتها الملكة أحقابًا طويلة. وأخيرًا التفت إليها قائلًا:

ـ ها قد لاحت تباشير الفجر يا صاحبة الجلالة. إن «رع» قد بدأ يطل بهامته على الأرض. وهذا هو الموعد المضروب بينه وبين الرائي الأعظم.

تقدم الكاهن من المسلة واستدار نحو وجهتها الشرقية والملكة في إثره. وبعد أن تمتم بصلاة خاطفة، أخرج من صدره لفيفة من كتان، ثم نزع غطاءها فبدا صندوق من خشب الأرز المحلى بالذهب والعقيق.

التفت الكاهن إلى الملكة قائلًا:

ـ سأفتح الصندوق الآن يا صاحبة الجلالة. فحاذري أن يقع بصر جلالتك على العين الإلهية التي بداخله، فإن من يرى عين «رع» يعاجله الفناء.

سرت في فرائص الملكة رعدة حادة فانكمشت في دثارها، وعاودتها الرغبة في الفرار لتنجو بنفسها من كل هذا الهول. إلا أن الأمور الآن قد اطردت بحيث لم يعد التراجع مجديًا.

والتفتت الملكة إلى الكاهن تسأله:

ـ ماذا أفعل يا أبتاه؟

ـ اركعي يا صاحبة الجلالة، وأغمضي عينيك إلى أن أنبهك.

وبينما الملكة راكعة، وضع الكاهن الصندوق على حافة قاعدة المسلة، وفتحه برفق، فشع منه وهج شديد البريق. ارتعدت يدا الكاهن فخر على وجهه ساجدًا. إنه هو الآخر يشعر بأنه يمارس لعبة محرمة ويعرض نفسه لأخطار الأسرار الإلهية.

ظل كلاهما راكعًا تحت أقدام المسلة الشامخة فبدوا كحشرتين تافهتين. وشمل المكان رهبة الفجر وهو يطلق أضواءه الأولى كالحراب تمزق أوصال الظلمة.

وبعد لحظات استقام الكاهن بجوار الملكة وراح يتمتم في أذنها قائلًا:

ـ هل ترين النجم الملتمع فوق رؤوسنا يا صاحبة الجلالة؟

جالت الملكة بنظرها في السماء المشربة ببياض اللبن ثم قالت:

ـ أجل يا أبتاه.

ـ هذا هو نجم الأبرق بشير النبت الجديد وابن الإله «إيزيس».

وسوف يتكلم الإله «رع» حين يسامت هذا النجم سنان المسلة المقدسة. صلي وابتهلي يا مولاتي إلى أن تحين هذه اللحظة، فالإله «رع» يحوم الآن فوقنا وفي وسعنا أن نستعطف قلبه الشفيق ليجيب طلبتنا. لا تنحرفي بناظريك عن نجم الأبرق يا صاحبة الجلالة.

لم يكن يخفق في الصحراء من صوت على الإطلاق، وكأنما المكان قبر كبير لا يؤمه غير الموتى. وعاد قلب الملكة يدق دقًّا عاليًا، وازداد اضطراب أعصابها، فلو مر برقبتها الناعمة ظفر، لكان كافيًا لصدمها صدمة قد تودي بحياتها.

ظل الكاهن والملكة يحدقان في النجم اللامع في استغراق يبلبل العقل، أحسا كأنما فقدا خواصهما البشرية، وانمحيا في أسرار الكون المحيطة بهما. وأخيرًا سامت النجم سنان المسلة، وانطلق في الأفق طير الصباح يردد أغاريده بنغم متتابع نفاذ. وفي هذا الحين حدثت ظاهرة شديدة العجب.

برزت أمام الملكة والكاهن أفعى رقطاء فاغرة الفم، وظلت تزحف متلفتة حتى بلغت حافة المسلة، فأخذت تصعد ببطء إلى أن علت سطح القاعدة التي وضع عليها صندوق عين الإله، وظلت الأفعى تطوف حوله وتدفعه إلى أن بلغت به حافة القاعدة. وبعد أن كان الصندوق مغمورًا في ظل المسلة أصبح يواجه نجم الأبرق، بحيث لو سقط النجم من السماء لاحتواه الصندوق.

وعندئذ توهج ما بداخل الصندوق توهجًا يؤذي الأبصار، فبدا كشمس صغيرة تشع ضوءًا يكاد يتجسد. إلا أن هذا الضوء ظل يتضاعف بسرعة هائلة حتى صار في هيئة لسان من نار.

قبضت الملكة على يد الكاهن وقالت وهي تلهث:

ـ أبتاه.

فضغط يدها في رفق وقال:

ـ تشجعي يا صاحبة الجلالة.

ولكن الملكة عادت تقول:

ـ هذا الشعاع...

ـ ترين أنه أضاء الدنيا.

وبعد برهة عاد الكاهن يقول:

ـ أنصتي يا صاحبة الجلالة، فإن «رع» يتكلم.

ولكن الملكة لم تستطع أن تتميز غير صوت فحيح الأفعى التي كانت قد همت برأسها وبجزء من جسدها المستنير بالشعاع، وكانت الملكة ترتجف ارتجافة المحموم.

ـ إنني خائفة يا أبتاه.

ـ انظري يا مولاتي. الأفعى...

ـ إنها تطل برأسها علينا.

ـ كأنما تومئ إلى شيء...

أخذت الملكة تحدق في الأفعى وأخيرًا صاحت بصوت جذل:

ـ أبتاه.. هل ترى؟

وأشارت بإصبعها إلى الركن الغربي من قاعة «قدس الأقداس».. هناك تجلى الظل الذي يعكسه الشعاع المنبعث من الصندوق على جدار القاعة. وكان يحكي في هيئته صورة فرعون جالسًا على عرشه وبيده صولجان الملك. ولقد بلغ من دقة هيئته ووضوحها أن يحسبه

الرائي أحد تماثيل «أمنحتب بن حابو» أمهر مثالي الملك. وثمة شيء آخر زاد دهشة الملكة. ذلك أن خيال الحية القائمة بجوار الصندوق كان ينعكس في الظل على هيئة الصل الملكي، فيتوج رأس رسم فرعون المتجلي على جدار المعبد. لبثت الرؤيا لحظات قصيرة، وفجأة انمحى الشعاع المنبعث من الصندوق، وانحدرت الأفعى إلى الرمال فتوارت فيها. أما الظل فلم يعد له على جدار المعبد من أثر.

استرخت أعصاب الملكة فانكفأت بوجهها على الأرض. أما الكاهن فقد انطلق يجمجم مسبحًا. وامتلأ الجو بسحب فضية من دخان أرج يطلقه خدام المعبد. فقد بزغت سفينة «رع» المقدسة من الشاطئ الشرقي، وحان موعد صلاة الفجر التي تعين الإله على أن يتم رحلته سابحًا في بطن إلهة السماء «نوت».

وبعد قليل صدحت موسيقى خفية وعلا صوت الكهنة وهم يرتلون تحية الإله:

انتبه في سلام أيها الإله الطاهر
وتجلَّ على الأنام أيها الروح المنبثق من المشرق
أنت في سفينة الغروب تنام
وفي سفينة الصباح تستيقظ
لأنك على الآلهة تشرق
ولا إله يشرق عليك
انتبه في سلام أيها الإله الطاهر
وتجلَّ على الأنام أيها الروح المنبثق من المشرق

استفاقت الملكة على صوت النغم فرفعت رأسها ثم التفتت إلى الكاهن قائلة:

ـ أبتاه.. ما معنى هذا؟

ظل الكاهن مطرقًا إلى أن أتم صلاته ثم رفع رأسه قائلًا:

ـ أبشري يا صاحبة الجلالة.

فأقبلت الملكة تسأله بلهفة:

ـ هل أنجز الإله وعده يا أبتاه؟

ـ إن «رع» لا يخلف وعده. فهل تنجزين أنت وعدك يا صاحبة الجلالة؟

ـ إن ملكة مصر وزوجة «أمنحتب» المقدس لا تحنث في قسم نطقت به.

ـ أعيدي القسم إذن على مذبح الإله الجبار «رع» حور الأفق.

ـ إنني على استعداد يا أبتاه.

ونهض الكاهن من سجدته الطويلة وتبعته الملكة فتوجها معًا إلى المذبح وكانت التسابيح تتصاعد من أفواه الكهنة على صوت الدفوف والأوتار فتملأ جوانب المعبد أنغامًا إلهية رائعة. مدت الملكة يدها صوب المذبح وفتحت فاها قائلة:

ـ أقسم بالمعبود «رع» سيد الآلهة وبزوجي الملك العظيم ابن الشمس، وبالتاسوع الإلهي المقدس، أنه إذا أنجز «رع» ما وعدني به فسأهب ابني لعبادته وحده، وأحمله على القضاء على عبادة «آمون» العاتية المستبدة، حتى يخلص العالم من الشرور والمظالم، وينشر فيه الحب والأمن والعدل.

وانحنى الكاهن على قدمي الملكة وقبل طرف ثوبها ثم قال:
ـ افرحي إذن يا صاحبة الجلالة، واملئي الأرض بأعياد الحبور، فسوف ينزل من أحشائك المقدسة في هذه المرة غلام كريم. سيكون «ملكًا من شعاع» يضيء الأرض بجماله كما أضاء شعاع «رع» أمامنا منذ حين. وسوف تكون أعماله بهية كنفح الزهر. بهذا تكلم «رع».

الفصل الثاني

رتل الفجر نشيده الفضي على إيقاع قيثارة من خيوط الشمس، تداعبها أنامل النسيم الحالم. وسرت الأهازيج العلوية في عناصر الكون، فكأنما عرت الأرض رعدة كنبضة الشريان، يكاد يحسها السامر والمتعبد. وجرى اللحن في رفق رقيق أشبه بتمتمة عذراء تجاوبها أنفاس وردة ناعمة، فتململ أعلام البسيطة ثم عادت إلى النعاس. وابتسمت الشمس في خبث، ثم همت برأسها على الأفق، وأطلقت في الفضاء كتائب من أشعتها فأصابت الأهداف جميعًا. وتعالت أنغام الفجر شيئًا فشيئًا، حتى انتهت إلى زئير جارف اشترك في إيقاعه كل عازف في السماء. حينئذ لم يبق في طوق الجبال أن تهجع، ولا الوديان أن تستنيم. وتثاءبت الدوح وأسرع ماء النهر المقدس في جريانه. أما الورود فقد حسرت لثامها لتغسل محياها بماء الطل، على حين نزعت الصحراء رداء الليل الأدكن وتدثرت بضياء الذهب.

أوى البوم إلى كهوفه وتوارت الذئاب.

وانطلقت أسراب الطير تشقشق بتهورها المألوف.

وهفت الفراشات تترجح كأنما ترقص على دق الدفوف.

ونبض قلب الحياة معلنًا أن يومًا جديدًا قد ولد.

فبدأ دبيب الحركة يسري في شعاب طيبة.

غير أن الفجر كان له نغم آخر في ضاحية قصر فرعون، فقد تسللت رسله العسجدية من خلال أعمدة معابد «أمنحتب» الرائعة حتى استقرت في قمتي مسلتي «حتشبسوت» الذهبيتين، حيث راحت ترقب القصر وتعد نفسها لإيقاظ سكانه الأمجاد في نعومة ورفق.

ولكن واحدًا من أهل القصر لم يكن في حاجة إلى إيقاظ. فقد رأته ألسنة الشمس خاشعًا على وجهه كما اعتادت أن تراه منذ شهور طويلة، دون أن تفتقده في صباح ما. غير أن طول الخشوع كان قد أسلم هذا الفتى النحيل إلى نعاس خفيف. وهب عليه نسيم الصباح الرطب. فاستراح إلى طمأنينة عذبة، وارتسمت على قسماته ابتسامة ملائكية أنارت وجهه.

وبعد هنيهة سرى في سكون المدينة الهاجعة صوت أجوف، وظلت زمزمته متصلة الأنغام برهة طويلة يختلف فيها بين الرفع والخفض، والاستقامة والالتواء تمثالا «ممنون» يرتلان صلاة الفجر، ويعلنان القوم بأن «رع» قد استقبل سفينة الصباح. فزع الفتى من نومه، واستوى على قدميه، ولكنه ما لبث أن ابتسم في سعادة قلبية، وهو يستمع إلى موسيقى الصباح، ويرقب ألوان السحر. امتلأ قلبه حبورًا وأحس بخفة تغريه أن يطير، فأخذ يبسط ذراعيه في الفضاء ويضمهما إلى صدره، كأنما يحتضن عزيزًا لديه. واسترعى نظره على

سور السطح قافلة من النمل تدب دبيبها الأبدي وهي محملة بشتى الأسلاب. ولكن ثمة نملة كانت متخلفة عن الركب مطروحة إلى جانب الطريق، وكأنما نبذتها زميلاتها فما يقربنها إلا ليوسوسن إليها بذلك السر الخالد الذي لا بد أن تودعه كل نملة صدر من تصادفه من بنات جنسها قبل أن تستأنف السير.

حدب الفتى على النملة المنبوذة وهو يحدثها قائلًا:

ـ ما بالك متخلفة يا أختاه؟

ورآها قد ألقت حملها بجانبها، تدفعه خطوات قليلة ثم تستريح إلى جواره وسرعان ما أدرك أن صديقته النملة مصابة في ساقيها بما يمنعها من ملاحقة قافلتها. وكانت المحاولات التي تأتيها لمواصلة السير بحملها تدمي قلب الفتى النحيل. فراح يبحث حتى عثر بورقة يابسة من أوراق الشجر، وضع عليها النملة الجريح في حرص شديد، والتقط لها حملها الدقيق فأسقطه بقربها، ثم أناخهما بجانب الوكر الذي تتجه إليه القافلة. نزلت النملة عن الورقة في تردد وخشية، فهي لا تعرف طريقها إلا إذا كان متصلًا. ولكنها ما لبثت أن تبادلت كلمات السر هي والجحافل المتراصة التي تدخل وتخرج من أبواب المدينة في هرولة ونشاط، وسرعان ما اطمأنت إلى طريقها فدلفت إلى المدينة.

في هذا الحين نفذ إلى أذنيه صياح ديكته تناديه من الطرف الآخر للسطح فهرول إليها. وأحس في طريقه بالدم الذي كان يكتشفه كل صباح سائلًا من فمه الرقيق، فمسحه بظهر يده في غير مبالاة. كان لا يشفق على ما يحويه برده من جسم نحيل ضعيف، وما حاول

مرة أن يجنبه النصب أو يدفع عنه المشقة، بل يغدو ويروح في غير انقطاع، يلاطف هذا ويداعب ذاك، ويحنو على أصدقائه من الطير والحيوان. لقد كان على الدوام منتشيًا بخمر أمه الطبيعة التي يتعبد بأسرارها كل سحر ويغدق على مخلوقاتها من نفسه طوال النهار. وكانت كل عناصر الكون تحبه وتسعد بقربه.

نثر الفتى البُرَّ لديكته ثم توجه إلى حمامه يطعمه بيديه، فسقط على رأسه وكتفيه، وأخذ يتمسح به في لهفة محب وامق. ولم تكن الابتسامة تفارق شفتي الفتى، وأضواء الغبطة الباطنة تلتمع في عينيه.

جاء هذا الصباح بعد عشر سنين ونيف من زيارة الملكة لمعبد الإله «رع». ولقد أنجز الإله وعده في هذا الفتى النحيل، «أمنحتب الرابع»، وليِّ عهد فرعون الذي جرى البلاط على تلقيبه بـ«أمير الأحلام العذبة».

وبدت في نفس الأمير بادية، فهبط إلى داخل القصر في خفة الهر، واخترق أبهاءه في حذر، ثم وقف يتسمع لحظة فلما استوثق أنه لم يحس به أحد من أهل القصر النيام دلف إلى الحديقة.

جلس الأمير خلال الأشجار المورقة، وظل يسير متخفيًا حتى وصل إلى بحيرة والدته الملكة «تي» التي اصطنعها فرعون خصيصًا لنزهتها، وزرع على شطآنها أشجارًا استوردتها حملة ملكية خاصة من الصومال. وكانت سفينة الملكة التي أطلقت عليها اسم «وهج آتون» ـ تشريفًا للإله «رع» الذي بر لها بوعده ـ نائمة في سكون على صدر الشاطئ.

إنه يذكر كيف ثار كهنة «آمون» حين انتهت إليهم هذه التسمية،

إن جعل مقر الملك طيبة حيث لا يعبد غير «آمون»، واختيار الملكة لسفينتها بعض أسماء معبود منف، لمما ينافي الهيبة الواجبة لمعبود الدولة الرسمي، وجاء «بتاح موس» رئيس كهنة «آمون» ووزير الدولة واختلى بالملك عدة ساعات يكلمه ويقنعه. هل نسي الملك سر مولده؟ لقد كان والد فرعون في ذلك الحين متغيبًا في رحلة صيد بالقرب من الأهرام، وقبل عودته بليلة اتخذ «آمون» هيئة فرعون المسافر، ودخل إلى مخدع الملكة التي حسبت أن زوجها قد آب من رحلته، فرحبت به وهيأت مكانًا لراحته. فكان أن ولد «أمنحتب الثالث» فرعون مصر من صلب الإله نفسه. فكيف يستسيغ ابن «آمون» أن تحتمي زوجه بإله غير أبيه؟!

وعده الملك أن يتدبر في الأمر. وكانت «تي» بالباب فما خرج الوزير حتى دخلت على الملك. وتدبرا في الأمر معًا. وفي عصر هذا اليوم عرف العالم بأسره ما انتهى إليه هذا التدبير، فإذا به يقضي بإقالة «بتاح موس» من الوزارة، وقصر وظيفته على رياسة كهنة «آمون»، وما وقف الأمر عند هذا الحد. فقد اشتمل المرسوم الملكي أيضا على تعيين «رع موس» وزيرًا بدلًا من الوزير المقال... «رع موس» أقوى أنصار الإله «رع»... بهذا أمر الملك. والملك إله لا بد أن يطاع. ولكن كهنة «آمون» يعرفون من هو الآمر الحق. إنه «تي» ملكتهم الأجنبية وعدوتهم اللدود، التي أصبحت على مر الأيام الحاكم الخفي لكل أقطار الإمبراطورية المصرية. وثار كهنة «آمون» على هذه الإهانة المزدوجة، وتوجهت جموعهم إلى «بتاح موس» تطلب منه إجراء سريعًا حاسمًا. ولكنه ابتسم لهم في هدوء وقال إنه ينتظر أمر الإله.

ولكن ما للأمير الآن وهذه الذكريات القديمة! استغرقته من جديد مهمته المحبوبة، فتقدم من السفينة في حذر وترقب. لم يكن بها حركة تومئ بأن أحدًا من بحارتها قد استيقظ. فاقترب من القارب الصغير المشدود إلى السفينة، وحل رباطه ثم هبط إليه وجعل يجدف في رفق متجهًا إلى شاطئ البحيرة الشرقي. ولم تكد سفينة «رع» تقطع مرحلتها الأولى، حتى كان الأمير كامنًا على قمة التل المواجه لقصر النبيل «آي» صديق الملك. وظل قابعًا وراء شجيرات البرتقال لحظة وعيناه مثبتتان في نافذة مغلقة بالطبقة العليا للقصر. تناول بعض الحصى وجعل يرجم بها النافذة. ولكنه لما لم يستطع أن يصيب الهدف، أقلع خشية أن ينبه من لا يريد إيقاظه من أهل القصر.

وحاول الأمير أن يتخذ وسيلة أخرى، فجعل يطلق من فمه صفيرًا متقطعًا يشبه صوت البلبل، ولكن النافذة بقيت على إغلاقها، وكاد يُسقط في يده. ولكنه بعد فترة قصيرة لمح مخلوقين غريبين يخرجان من القصر وكان يراهما من مكمنه على هيئة قردين زنجيين يسعيان على الأرض بخطى تثير الضحك في أقسى القلوب.

ولكن الأمير كان يعرفهما جيدًا، فقهقه مسرورًا وهبط من مخبئه لملاقاتهما. لم يكن هذان المخلوقان سوى «بارا» و«رينو» القزمين اللذين أحضرهما «آي» وهو عائد من رحلته في بلاد النوبة، وأهداهما إلى ابنتيه «نفرتيتي» و«بزمت»، فهما تقضيان النهار في ملاعبتهما والتفكه بهما. وكان لهذين القزمين شهرة واسعة في البلاط الفرعوني. وكثيرًا ما طلبهما الملك من صديقه «آي» ليحييا ولائمه وليضحكا مدعويه. وبلغ من إعجاب الحاشية بهما أنهما كانا يدخلان أية حجرة

في أي قصر بغير استئذان. ولم يكن يستثنى من ذلك حجرة الملك ولا مخدع الملكة. واتسعت سلطة هذين القزمين فصار يطلبهما رئيس كهنة «آمون» ليقوما بالرقصة المقدسة في أعياد الإله.

كمن الأمير في منعرج من التل، فلما أصبحا على مرمى السمع ناداهما فسرعان ما توقفا عن العدو فجأة، ثم عقدا يديهما فوق صدريهما برهة طويلة، التفت بعدها «بارا» إلى «رينو» وقال له في جد مضحك:

ـ هل سمعت نداء أيها الأمير «رينو»؟

تصنع «رينو» أنه لم يع كلمات رفيقه فنظر إليه زامًّا ما بين عينيه ثم قال له:

ـ ماذا تقول أيها الوزير «بارا»؟

استشاط «بارا» غضبًا فصاح قائلًا:

ـ أأنا وزير؟ أنا «بارا» سيدك وملكك ورب نعمتك... إن لم تسجد لي من فورك فسآمر بدق عنقك.

إلا أن «رينو» لم يسجد لزميله، بل هجم عليه هجمة عنيفة، وانهمك كلاهما في عراك شديد، فسقطا على الأرض يتقلبان ويتدحرجان، لا يبين منهما غير أرجلهما القصيرة، تبدو على ستار الأفق كأوتاد الساقية. خرج الأمير من مكمنه وهو لا يحكم قدميه من فرط ما يهتز جسده من الضحك. وهرع إليهما فما رأياه حتى خرَّا ساجدين، تاركين أمر ثأرهما إلى حين.

وضع الأمير يديه على رأسيهما قائلًا:

ـ انهضا أيها العزيزان.

فنهض القزمان وأطلقا من شفتيهما سيلًا من الاعتذارات والاتهامات في صوت واحد، وكل يشير إلى زميله وإلى الأرض وإلى السماء، بيديه ورجليه ورأسه، فكانا كإعصارين أهرجين يرسلان جلبة دفعت الأمير إلى أن يطبق بيديه على شفتيهما قائلًا:

ـ اصمتا بحق الآلهة. هل مسكما خبل؟!

ثم التفت إلى «بارا» وسأله قائلًا:

ـ هل استيقظت سيدتك يا «بارا»؟

فابتسم الخبيث وقال:

ـ إن لي يا صاحب السمو سيدتين، هل يسأل سموك عن سيدتي «بزمت»؟

فضحك الأمير وقرص «بارا» في رقبته بلطف ثم قال:

ـ أنت تعلم من أريد أيها الماكر. أين «نفرتيتي»؟

رفع «بارا» عينيه نحو السماء مستوحيًا ثم انطلق يقول:

ـ «نفرتيتي»... «نفرتيتي»... أين أنت الآن يا «نفرتيتي»؟ تراك في السماء تحلقين؟ أم على الأرض تسعين؟ تراك...

وكان الأمير يعلم أساليب «بارا» حق العلم، فابتسم وأخرج قطعة ذهبية ألقى إليه بها قائلًا:

ـ خذ فلعل هذه تعينك على البحث.

التقط «بارا» قطعة الذهب في لهفة ثم انتصب قائلًا وهو يشير إلى القصر:

ـ فلينظر سموك إلى هذه النافذة، وفي أقصر من أمد صيحة الديك تكون سيدتي «نفرتيتي» مشرفة على سموك منها.

وانطلق يعدو. وشيعه الأمير ببصره ثم رفع عينيه صوب النافذة، وتمتم مستبقًا ظهور غادته قائلًا:

ـ ياما أحيلاها...

الفصل الثالث

كان جناح الملكة «تي» أبهى أجنحة القصر الملكي. افتن في بنائه المهندس العبقري «أمنحتب بن حابو»، وكسا جدرانه وأسقفه بمختلف الصور البارعة «أوتا» رسام الملكة الخاص. من هذا المخدع كانت تحكم مصر. فيه تصرف أقدار الرجال والمستعمرات، وبكلمة من صاحبته تسير الجيوش لتفتح البلاد. وبإيماءة منها تبنى المعابد وتقام الشخوص الملكية، أو يقال الوزراء ويبدل الحكام. فلا عجب أن كانت المقصد والمآل، وكانت حاشيتها من النبلاء والنبيلات هم أصحاب الكلمة وأدوات الحكم في الإمبراطورية المصرية التي شملت العالم بأسره.

وكان فرعون العظيم راضيًا عن كل هذا يقابله بابتسامة هادئة، ولا يدخر وسعًا في الاستجابة إلى أهواء ملكته العزيزة. فهو يعلم أن هذه كلها ليست سوى لعب ودمى تتلهى بها زوجته، وتصرف فيها نشاطها الفياض، دون أن تنال من سلطانه الإلهي الذي يخشع له كل مخلوق على الأرض. لقد ترك لها عبث الحكم ومظاهره، واحتفظ

لنفسه بجوهر السلطة ومظهر الأمر. إنه فرعون ابن الآلهة وإمبراطور مصر. ماذا يهمه بعد ذلك من سفاسف الأمور، وتافه الحكم، الذي يعنى به النساء عادة.. فلتتلهَّ زوجه المحبوبة ما شاء لها التلهي. وإنه بها لجد مسرور.

كان الملك كلما جد أمر يختلي بمهندسه «أمنحتب بن حابو» الذي كان يؤلهه المصريون لفرط ما عرف عنه من الحكمة ونفاذ البصيرة. وبين يديهما كانت تطرح أسرار الدولة الدقيقة، فتوزن وتناقش، ثم ينتهي فيها إلى قرار. وتسري تيارات خفية في أعصاب المملكة، فإذا رغبات الملك قد تحققت في أدق تفاصيلها، دون أن يشعر بالأمر أحد. وفي المحافل والأعياد كان فرعون هو الذي يظهر على الملأ، محاطًا بأفخم أنواع الأبهة الملكية، فتعنو له الجباه وتخشع الهام. فبينما يخيل للملكة أن فرعون لم يعد له غير مظاهر الملك، يعلم هو يقينًا أن الملكة إنما تعبث بما يسمح أن يتركه لها من قشور السلطان.

هكذا كانت حياة الملكين عنوان السعادة في كل الأرض. وعرف المصريون في «أمنحتب الثالث» أبهى ملك حكم النيل. كان مليح الوجه ملاحة نادرة، فنادوه بـ«فرعون الجميل»، ولقبوه بـ«المجيد». وشعر أمراء المستعمرات المصرية بسنان سيطرته تخزهم في ضلوعهم، فدانوا له بالطاعة والتمسوا رضاه بقوافل الجزية التي كان ورودها الدائم إلى البلاط الملكي لا يترك لموظفي الجمارك المصرية لحظة راحة. كان ثراء مصر في هذا العهد مما يفوق الوصف. حتى أصبح الذهب والفضة عدد الحصى والرمال. تستجديه ملوك آسيا، فيبعثره فرعون عليهم بغير حساب.

كان السكون يسود جناح الإمبراطور العظيم في هذا الصباح، على حين خلا جناح الملكة من صاحبته، فما نبض فيه صوت. لم تنم الملكة ولم ينم فرعون هذه الليلة.

وأطلت الشمس على الأرض تصليها بأشعة حمراء لاذعة، فاصطفق نبض الحياة في طيبة بزاخر من الحركة، وارتفع ضجيج القوم في مسارب المدينة. ومع ذلك فقد بقي القصر غارقًا في سكون مهيب. الصوت فيه همس، والحركة على أطراف الأقدام.

وكان هذا الصباح هو اليوم الأول من الشهر السابع من العام، وفيه تفتتح أعياد طيبة التي اعتاد «أمنحتب» أن يحييها طوال عهده، حتى سمي هذا الشهر بـ«شهر أمنحتب». وكان العام هو السادس والثلاثون من حكم الملك المجيد، كما اتفق أن كان الاستعداد لمراتع هذا العام بين كل ما سبقه أبهة وفخامة. فكانت الأعلام الزاهية ترفرف على مئات السفن المتمايلة على صدر النيل، والغناء ينبعث من كل مكان، والرقص يدور في كل ساحة. حتى «بارا» و«رينو» كانا قد جمعا حولهما حلقة من المشاهدين، أخذت تتسع تدريجًا حتى سدت الطريق.

بدأت جموع الأشراف وكبار الكهنة يؤمون القصر ويتجمعون في ردهات طبقته الأولى فيتحدثون ويتندرون، وحجاب الملك وأمناؤه يسعون بينهم مرحبين مكرمين، على حين يقدم لهم الخدم الجعة والحلوى.

ولكن فرعون لم يظهر له أثر. ترى أين يكون؟ لقد خرج من مخدع الملك بالطبقة العليا كهل أشيب هو «تحتمس» الطبيب. وكان الوزير «رع موس» مرتقبًا بالباب فتلقاه في لهفة وتساؤل:

ـ كيف الحال؟

وكأنما تقوم حرفة الأطباء على فن التعمية منذ خلقت الأرض، إذ هز «تحتمس» رأسه الأبيض في تثاقل وقال:

ـ فلندع إلى الإله «آمون» أن يشمل ابنه برعايته.

ولكن الوزير لم يقنع بهذه الإجابة المبتورة. فهو مسؤول عن إتمام مراسم هذا العيد في الأوقات المحتومة، كما أن هذا اليوم قد حدد لكي يقابل «فرعون» فيه مندوبي المستعمرات المصرية. ومع ذلك فإن هذا كله يهون بجانب ما كان لدى «رع موس» من أنباء خطيرة يريد أن يفضي بها إلى الملك. لهذا أصر الوزير على أن ينتزع من الطبيب إجابة واضحة، فاقترب منه وأمسك بذراعه قائلًا:

ـ إنك يا «تحتمس» فخر أطباء مصر. فأخبرني بحق «تحوت» إله الطب هل...

وقبل أن يتم الوزير كلامه فتح باب مخدع فرعون وظهرت الملكة «تي». كانت مرفوعة الرأس بالرغم مما مس وجهها من الشحوب، وما يرين على عينيها من أثر السهاد. والتفتت إلى الوزير وقالت له بلهجة قوية النبرات:

ـ أنت هنا يا «رع موس»؟

خشع الوزير برأسه وعقد يديه فوق صدره ثم استقام قائلًا:

ـ إنني طوع أمرك يا صاحبة الجلالة.

صمتت الملكة وقتًا وهي تتنقل بعينيها بين الطبيب والوزير ثم قالت:

ـ فلتعد العربة الفرعونية أيها الوزير.

وكأنما لم يصدق الوزير ما سمع، فثبت لحظة في وقفته وهو ينظر إلى الملكة مدهوشًا، وأخيرًا قال:

ـ هل يستقل جلالة الملك عربته اليوم؟

تراجعت الملكة برأسها إلى الوراء وأنفذت إلى الوزير نظرة قاطعة، ثم قالت ساخرة:

ـ هل هناك من يستقل العربة الفرعونية غير الملك يا «رع موس»؟

كان الطبيب ملتزمًا الصمت طوال هذه المحاورة. ولكنه ما سمع عبارة الملكة الأخيرة حتى تقدم إليها وقد فارقته تؤدته المستعارة وقال:

ـ أستميحك المغفرة يا صاحبة الجلالة. إن مولاي الملك لا يحسن له...

ولكن الملكة لم تتركه يتم بل صاحت فيه قائلة:

ـ «تحتمس»... أنت طبيب، ولقد قال الطب على شفتيك كلمته. إنما نحن زوج فرعون فنتكلم في سياسة الدولة. فرعون لا يحسن له التحرك محافظة على صحته. ولكن فرعون يجب أن يسير اليوم على رأس موكبه لأن مصر تريد ذلك.

ثم التفتت الملكة إلى الوزير قائلة:

ـ هذه إرادة الملك يا «رع موس».

انحنى الوزير في خشوع وهو يقول:

ـ إرادة فرعون نافذة يا صاحبة الجلالة.

والتفتت الملكة إلى الطبيب قائلة:

ـ لا تبتئس يا «تحتمس». إن فرعون ابن الإله لن يصيبه ضر. ولكن

عليك أن تكتم مرض جلالته عن كل مخلوق، فالدولة تجتاز الآن أزمة خطيرة لا يعلم نهايتها غير الآلهة.

ـ إنك تعلمين مبلغ إخلاصي للعرش يا صاحبة الجلالة. والآن أرجو أن تسمحي لي جلالتك بالانصراف، وسأعود لعيادة الملك بعد أوبته من الموكب.

ولكن الملكة ابتسمت له ثم اقتربت منه قائلة:

ـ أظن الأفضل أيها الطبيب ألا تغادر القصر وحال الملك كما تعلم.

صمت الطبيب هنيهة وهو مطرق ثم رفع بصره إلى الملكة قائلًا:

ـ يلوح أن جلالة الملكة لا تثق بي.

فتحت الملكة عينيها دهشة وصاحت:

ـ لا أثق بـ«تحتمس» طبيبنا العزيز! من قال هذا؟ إنني أريدك بقربنا لأن فرعون قد يحتاج إليك في أية لحظة. فهل تراك تبخل على الملك بوقتك؟

ـ إنني طوع أمر فرعون وأمرك يا صاحبة الجلالة.

حنى الطبيب هامته للملكة ثم انصرف في سكون. وما إن توارى عن الأنظار حتى التفتت الملكة إلى الوزير وقالت له مقطبة:

ـ أليس من سوء الحظ أن يكون أبرع أطباء المملكة من أتباع «آمون»...

ـ إن جلالة الملكة تعلم يقينًا أن «تحتمس» فوق الريب والشكوك، فتعلقه بعبادة «آمون» لم ينل مطلقًا من صدق إخلاصه للعرش.

أمسكت الملكة عن الحديث حينًا وأخيرًا قالت:

ـ إنك لا تعلم كل شيء يا «رع موس».

ـ إن كانت جلالة الملكة تقصد مؤامرة رئيس كهنة «آمون» الأخيرة فأظنني على علم بسائر تطوراتها.

ـ لا يزال يعوزك آخر حلقاتها. أنت تعلم أن رئيس كهنة «آمون» يمثل الملك رسميًّا أثناء مغيبه. ولقد سعى «بتاح موس» لغرض في نفسه إلى منع الملك اليوم من الخروج في موكبه ومن مقابلة السفراء. ولهذا كان حتمًا عليَّ أن أفسد تدبيره، وأصبح لزامًا على فرعون المريض أن يرأس موكبه.

وأطرق الوزير مفكرًا وقد قطب حاجبيه وأطبق فكيه. وأخيرًا رفع رأسه قائلًا:

ـ ولكن من أين لـ«بتاح موس» أن يعلم بمرض صاحب الجلالة اليوم، وقد كتمناه عن كل مخلوق حتى عن ولي العهد؟

ابتسمت الملكة وقالت:

ـ إن مرض فرعون لم يكن طبيعيًّا هذه المرة يا «رع موس».

ـ أتقصدين يا مولاتي...

ولكنه لم يتم. أومأت الملكة برأسها وقالت:

ـ أجل. إنه «كاهن آمون» من جديد. فوفاة فرعون الآن وولي عهده لم يجاوز سن الحداثة، يتيح لهذا الشرير فرصة ذهبية لإحكام دسائسه. أتعلم من يرشحه هذا الشيطان ليخلف فرعون في الحكم إن قدر لمؤامرته النجاح؟

ـ من يا صاحبة الجلالة؟

سكتت الملكة فترة قبل أن تعلن مفاجأتها، ثم قالت:

ـ «تحتمس» الطبيب.

ـ «تحتمس»!

ـ أجل. فهو ينتمي إلى الأسرة المالكة بوالدته. ولعمري لقد أحسن هذا الخبيث الاختيار. فـ«تحتمس» أحب الناس إلى قلب الشعب بعد «أمنحتب بن حابو».

ـ ولكن كيف سمحت مولاتي لـ«تحتمس» بعيادة فرعون، وجلالتك تعلمين عنه كل هذا؟!

ـ إن «تحتمس» نفسه لا علم له بهذه المؤامرة، فهو أداة عمياء في يد هذا الخائن الوضيع. وهو لا يزال بعد أبرع أطباء المملكة.

فكر الوزير حينًا ثم قال:

ـ بودي يا صاحبة الجلالة لو أذنت باتخاذ الخطوة الحاسمة. إن الشعب يفضل فرعون على كاهن «آمون» بغير جدال. فلو كشفنا له عن دسائس هذا اللعين لطلب بنفسه عزله وإبعاده.

ابتسمت الملكة بسمة نصفها إشفاق على الوزير، ونصفها الآخر الإعجاب بنفسها، وبما أوتيت من حنكة وبعد نظر، ثم قالت:

ـ إن إبعاد كاهن «آمون» عن منصبه لن يشل يده عن الدس والخيانة يا «رع موس». بل لعل هذا مما يدفعه إلى مضاعفة الكيد والإمعان في تدبير وسائل الانتقام.

وبعد لحظة صمت عادت تقول:

ـ ثمة حل واحد نأمن به شر «بتاح موس».

ـ ما هو يا صاحبة الجلالة؟

عضت الملكة شفتها وانسرحت عيناها تحدقان في غياهب المستقبل المجهول. ثم قالت كأنما تخاطب أمانيها العذاب:

ـ هو ألا يوجد «بتاح موس» بتاتًا أيها الوزير. ولكن علينا أن نتمسك بالصبر المرير، وأن نتحين الفرص في غير عجلة، فخصمنا واسع الحيلة شديد الكيد.

غير أن من كان ينصت إلى نبرات صوت الملكة، يخيل إليه أنها تعبر عن إعجاب صاحبتها بكاهن «آمون» بما قد يفوق كرهها إياه. فقد كان الكاهن من طينة الملكة نفسها. وكم تكون الحياة مملة تافهة لو لم يوجد في جانبها الآخر هذا الداهية الذي يملأها عقدًا ومفاجآت، ويثير فيها تيارات خفية تدعو إلى مقاومتها، وتستحث النفوس إلى مدافعتها بهجمات من نوعها. وهكذا أصبح للحياة معنى ولظلالها ألوان.

وما أكثر ما استمتعت الملكة بهذه الحرب الخفية بينها وبين كاهن «آمون». ففي غداة عزل هذا الكاهن من الوزارة، طالعت طيبة إشاعة لم تلبث أن انتشرت بين أهلها كومض البرق، وكان من أثرها أن صارت الملكة تلقب بـ«الأجنبية» طورًا، وبـ«جاسوسة بلاد ميتاني» طورًا آخر. وتداولت الألسن قصة محبوكة الأطراف، لم تكن تنقصها الأدلة الملفقة التي رفعتها في أيام إلى مرتبة اليقين بين جموع العامة. فقد كان والد الملكة المدعو «يوهـآه» أمير من بلاد ميتاني، استقدمه «تحتمس الثالث» معه. وبالرغم من أن هذا الأمير كان قد تمصر طبعًا وطابعًا كعادة الأمراء الأجانب في هذا العهد، وبالرغم من أنه تزوج من بنت أحد الأشراف المصريين، ثم تقلد بعض مناصب الدولة العظيمة، واندمج في حاشية فرعون، فقد أشاع عنه كاهن «آمون» أنه إنما يعمل في الخفاء للإيقاع بمصر، رغبة في الانتقام مما لحق بلاده من الذل

على يد الفراعنة الفاتحين. ولم تكن ابنته «الملكة الأجنبية» سوى أداة بارعة في يده لما لها من السلطان العظيم على زوجها الملك.

وكادت الإشاعة تتطور وتتخذ شكلًا خطيرًا لولا أن قابلتها الملكة بأخرى ردت كيدها إلى مدبرها. فإن الملكة أنفذت رسولًا إلى الرائي الأعظم بمعبد «رع» الأكبر بمنف تسأله أن يجتهد في رصد الكواكب والأفلاك، حتى يتكهن لها بوقوع ظاهرة طبيعية قبل حدوثها. فبعث إليها بعد حين يخبرها بأن القمر سيخسف في ليلة عينها لها. وزاد بأن الخسوف سيكون تامًّا مدة نصف ساعة، يحتجب وجه القمر بأكمله على صورة لم تقع منذ أمد طويل.

وكانت الملكة متفقهة في علوم الدين. ولقد جعلها كاهنها الخاص تحيط بسر يحرص سدنة المعابد على المحافظة عليه حرصهم على حياتهم.

ذلك أنه حدث في عهد سحيق أن استطاع بعض الكهنة أن يسحروا الآلهة بالتعاويذ والتمائم، وتمكنوا بذلك من اقتناصها في تماثيل صغيرة من الحجر والفخار، كانت توضع في صناديق ثم تخبأ في مكان خفي من المعبد لا يعرفه غير رئيس كهنته، ومنه يستمد سلطته الخارقة الإلهية.

أمست طيبة وأصبحت، فإذا الشفاه تتمتم بأن صندوق «آمون» السري قد اختفى من المعبد. وقيل إن الإله غضب من كاهنه غضبة ضارية، فسعى إلى انتزاع سلطته من يديه. غير أن شدة تمسك أهل طيبة بمعبودهم واحترامهم لكهنته، حاد بهم عن قبول الرواية قبول المؤمن أول الأمر، فواجهها الناس بين مصدق ومكذب. إلا أن الجدال قد

اشتد على أي حال. فوضعت أقدار الآلهة في أيدي عبادهم، وصار القوم يتناولونهم بالنقد أو التأييد، فيتدافعون ويتخاصمون. ذلك أن البشر يومئذ كانوا شديدي القرب من الآلهة، لا يفصلهم عنهم سوى خطوة واحدة. ألم يكن المعبود بشرًا إله في قديم الزمان؟ فليس ثمة حرج من مناقشة أحوالهم، والإنحاء عليهم باللوم. وليس ما يمنع من وسم أعمالهم بالظلم، أو رمي سلوكهم بالخطأ.

هذه الحالة القلقة هي ما سعت إليه الملكة. إذ سرعان ما أشاع رسلها أن الإله لا يرضى بأن يترك عباده في الظلام، وهو لا بد عن قريب مطلعهم على رأيه، في صورة لا تقبل الشك. فما عليهم سوى ارتقاب مظاهر رضائه، أو بوادر سخطه، ليكون لديهم الخبر اليقين الذي يقطع الريب. وليعلم الناس أن لـ«آمون» زوجة هي «موت» وابنًا اسمه «خنسو» وهو القمر. ولا بد أن يتكلم الإله على فم واحد من هؤلاء..

أما «بتاح موس»، فكان لا يزال منتشيًا بخمرة انتصاره على الملكة. فما إن بلغه هذا التحدي الشعبي، حتى قبله في تهور. وما غاب عنه أن المسألة كلها من تدبير الملكة، ولكنه سخر من محاولتها الهزيلة، ولم يعن حتى باستشارة فلكيي معبده. ما حاجته إلى هذا؟ وما خوفه من تلك المؤامرة البلهاء، وهو يعلم يقينًا أن صندوق الإله السري لا يزال في مكمنه الحريز...

كاد دولاب العمل في طيبة أن يقف. فالقوم صاروا عينًا واحدة وأذنًا واحدة، ترتقب علامة الإله. وفي صباح اليوم السابق لموعد الخسوف، شاع في العاصمة أن فرعون ابن الإله، قد استغرقه في

ليلته حلم مخيف، رأى فيه «آمون» وقد أرسل ابنه القمر منذرًا مهددًا. وفي الليل حينما خسف القمر «خنسو» وساد الظلام وجه الأرض، كادت جموع الشعب تقضي على «بتاح موس»، الذي اختبأ في حصن المعبد، ورعد صياح العامة يدوي في أذنيه:

ـ الموت لمنبوذ آمون... ليسقط المنبوذ... ليمت الخائن...

وفي الغد اختفت أسطورة «الملكة الأجنبية» وكأنما طويت بفعل ساحر. وكان في وسع الملكة آنئذ ـ وقد صار غريمها في بطن كفها ـ أن تضربه بقضاء مبرم. إلا أنها لم تنس شدة حب أهل طيبة لكاهن معبودهم الخاص. وخشيت حين تهدأ الأمور أن يدرك الشعب تهوره في القضاء على زعيمه الديني. وقد ينشط كهنة «آمون» في الكيد لها عند الشعب، يحرضونه بأكاذيب جديدة، ويموهون عليه بمختلف الدعاوى فتندلع الثورة. لهذا لم تنقض أيام قليلة حتى انقطعت صيحة «منبوذ آمون» من شفاه القوم، وتركت الملكة لكهنة «آمون» العنان، فمضوا يسعون لدى الشعب يفسرون، ويبررون، ويهدئون.

* *

طافت هذه الذكريات بخاطر الملكة وهي تذكر وزيرها بما عليه خصمها من مكر سيئ وكيد شديد. كانت ميزتها أنها لم تكن تمل انتظار فرصها، رغم ما يخالجها في تلك الأثناء من رغبة التلذذ بنصر مبادر، ورغم ما قد يلوح لغيرها من أن احتمالات النصر قد صارت بحيث تستحق المخاطرة بإيقاع الضربة الحاسمة. إنها تريدها ضربة أستاذ محنك، تتجمع فيها القوى وتتعانق الدواعي، حتى تستطيع

أن تمحق خصمها بهزة رأس. هذا هو بطش الجبابرة كما كانت تراه ملكة مصر.

أذنت الملكة للوزير بالانصراف، ثم عادت إلى مخدع الملك فألفته جالسًا وسط خدامه الذين راحوا يهيئونه للمحفل الكبير. نظرت الملكة إلى فرعون فرأت على محياه الجميل تلك البسمة الرائعة التي لم تكن تفارق شفتيه. كان يهيأ إلى الرائي أن ينابيع من الجاذبية تتفجر من هذا الوجه الساحر، وجه «أمنحتب الثالث» فرعون مصر.

لقي الملك زوجه «تي» ذات الشعر الذهبي في مقتبل عمره فأحبها وتزوجها. وكان على الرغم من عظم سلطانه على النساء، يخضع لهذه المرأة الآسيوية الأصل خضوعًا يدعو إلى الدهش.. كأن بهذا الجبار ملمس ضعف عرفت هذه الفاتنة طريقها إليه، فإذا الملك مشغوف بها، مطمئن إلى استكانته لها. حقًّا كانت «تي» رائعة الجمال. ولكن «أمنحتب» كان بغير جدال يسمو عليها فتنة وسحرًا. إن جمالها بشري، أما جماله فمن صنيعة الآلهة.

دنت «تي» من زوجها فوضعت يدها على كتفه وابتسمت له قائلة:

ـ كيف حالك الآن يا عزيزي؟

فأحاط الملك خصر زوجته بذراعه وسألها مداعبًا:

ـ كيف ترينه؟

ولعل الملكة وجدت أنها لا تستطيع أن تبدي رأيها في زوجها على مسمع من الخدم فصرفتهم وهي تقول له.

ـ سوف أهيئ للملك ما يلزم له بنفسي اليوم كما كنت أفعل في عهدنا الأول. إنني أراك على أفتن ما تكون يا صاحب الجلالة.

حوت الملكة رأس زوجها بين كفيها وطبعت على جبينه قبلة ثم تمتمت قائلة:

ـ إن الشيخوخة لا تعرف سبيلها إليك يا «أمنحتب». وجهك لا يزال وجه الفتى الذي طالعني يوم عرسي.

ابتسم الملك في ألم ثم قال:

ـ إن الآلهة لا تهرم يا «تي».

وصمت قليلًا تعلوه مسحة من الكآبة ثم عاد يقول:

ـ ولكنها قد تترك هذا العالم إلى عوالم أخرى.

جذب الملك ذراعه المحيطة بخصر زوجته، ونهض إلى النافذة فتطلع إلى جموع الشعب الصاخبة السعيدة. ولكنه ـ لأول مرة في حياته ـ شعر بأن مظاهر الفرح هذه التي عمل دائمًا على إحيائها والتفنن في تنويعها، صارت الآن تقبض نفسه وتملأ قلبه بفزع غريب، فأطبق عينيه وأدار ظهره للنافذة. إنه لا يطيق رؤية هذا الضجيج المرح فكيف بالاشتراك فيه وافتتاح أول مراتعه... وتحرك ألم المرض في أحشائه فأطبق فكيه، وأرسل أنة مكتومة. فهرولت إليه زوجته تسأله:

ـ ما لك يا «أمنحتب»؟

دفع الملك قدميه بتثاقل، ثم ألقى بنفسه على أقرب مقعد وهو ممسك ببطنه كأنما يريد أن يقبض على الألم ليقضي عليه. وبعد هنيهة تمتم قائلًا:

ـ أشعر أن نهايتي على هذه الأرض قد دنت يا «تي». إن نوبة المرض هذه المرة لن تطلق إساري إلا في القبر.

تجلت هذه الحقيقة المفزعة للملكة حين وقع بصرها على عيني

فرعون الغائرتين. وخيل إليها أن معاني الفناء تتكلم منهما بصوت ضخم. شعرت بأن زوجها يمر بتلك الفترة المتميزة التي تشبه لحظات الشعور المضطرب الذي يصل بين اليقظة والنوم. كان حيًّا دون أن تتبين فيه علائم الحياة النابضة، وكان ميتًا دون أن تسلبه يد الموت ظواهر الحركة والكلام. لم يكن حيًّا ولم يكن ميتًا، ولكنه كان يدب في تثاقل ووجوم في ذلك الطريق الموحش الموصل بين سلب العدم وجدب الوجود.

استولى على الملكة فزع فجائي، فأحست أن صدرها قد صار فراغًا. هذه المرأة التي طالما اعتزت بشخصها وأسرفت في الاعتداد بسيطرتها، سرعان ما تخاذلت حينما طالعها شبح وحدتها المستقبلة. أدركت في هذه اللحظة أنها لم تكن شيئًا يذكر، إلا لأن فرعون العظيم كان قائمًا إلى جانبها كالصرح الشامخ يسندها ويعضدها. إنها بدونه لن تكون سوى «امرأة ما..

تعلقت الملكة بفرعون وضمته إلى صدرها كأنها تشغل به فضاء نفسها، وجعلت تتمتم في غير وعي قائلة:

ـ هل تتركني وحدي؟ كيف أعيش بدونك يا «أمنحتب»...

مر فرعون بيديه على رأس زوجته، ثم رفع بأصبعه ذقنها حتى التقت عيناه بعينيها فقال لها مبتسمًا:

ـ من يصدق أن هذه المرأة الوجلة هي ملكتي المحبوبة التي طالما فخرت بها؟ لن تكوني وحدك يا «تي». فسينهض من ورائي ابني وولي عهدي فرعون مصر الجديد. إنه سيشد عضد البلاد بأسرها فكيف تخافين على نفسك؟

بدأت الملكة تنتحب وتقول:

ـ إني أريدك أنت يا «أمنحتب». ابق لي.. إن ابننا ولي العهد لا يزال صغيرًا.

فنظر إليها فرعون مدهوشًا ثم قال.

ـ صغيرًا! كما أن الإله لا يهرم، فهو لا يكون صغيرًا يا «تي».

ففرعون مصر يستطيع أن يحكم وهو في المهد، لأنه يولد ملكًا وإلهًا ساعة يرى النور.

لم تكن هذه الكلمات من الملك تعزية منصرفة إلى التهوين على زوجته المنتحبة، بل انطلقت في ثورة وحماس أعاداه صبيًّا يافعًا يعلن على الملأ تعاليم إيمانه الذي ولد ويموت من أجله. إن عرش مصر أسمى مراتب الوجود، فيجب أن ينتفي بصدده كل شك قد يرين على الأذهان الضعيفة اليقين. وفرعون مصر الجالس على هذا العرش هو أضخم أهل الأرض طرًّا، ولا شأن في هذا لعمره أو شخصيته.

ولكن المرأة الوجلة المتخاذلة لم تكن لتقنع في محنتها بأفكار مجردة، لا تستطيع أن تتعلق بها أو تعول عليها. إن ولي العهد هو ابنها الذي حملت به وأرضعته، ثم لقنته اللفظ وعلمته الحركة. فهي أدرى الناس به. إنه فتى أحلام له روح في جمال الزهرة، ولكنه دقيق البنية نحيف الجسم كالخيال الهائم. يحبه الشعب حتى العبادة، ولكنه لا يوحي بالهيبة إلى عظماء رجال البلاط وكبار موظفي الدولة. فكيف الحال بالنسبة لخصوم العرش الأشداء؟!

وكأنما أدرك الملك مخاوف زوجته فربت كتفها قائلًا:

ـ لا تخافي يا «تي». سوف تبخر وساوسك وأوهامك حين ينادى بـ«أمنحتب الرابع» فرعونًا لمصر. ستلمسين ذلك بنفسك. فإن لعرش مصر قوة سحرية يضفيها على الجالس عليه، فإذا به مخلوق آخر غير الذي عرفه الناس من قبل. إن فرعون هو الصلة بين الإله والشعب. لست خائفًا عليك يا «تي»، كما أني شديد الثقة بما سيكون عليه حكم ابني العزيز.

وأخذ الملك بيد زوجته المطرقة وقال لها مبتسمًا:

ـ تعالي بنا إلى الشرفة لنحيي الشعب قبل أن يمل الانتظار.

الفصل الرابع

اهتبل فرعون غفلة مدعويه، واسترق الخطى إلى مخدعه، حيث ارتمى متهالكًا من عناء مراسم الصباح. كانت أصوات ضحك نبلاء البلاط وعبثهم تترامى إلى أذنيه كخرير أمواج البحر البعيد. علام يضحك هؤلاء... ولم هذا الصخب الحاد؟ عبث. عبث. كل ما يفعله الإنسان في حياته عبث وهباء. إنه كالبحر عملاق أبله، تتدافع أمواجه في عنف وجلبة، فيكون هو أول من يتأثر بما يحدثه من ضوضاء، حتى ليحسب أنه يغير وجه الأرض، ويأتي ما لم يسبقه إليه سلف أو يلحقه فيه خلف. ولكنها أمواج معتوهة جوفاء كقبض الريح، تبتلع الواحدة سابقتها، ثم تنقلب في سرعة وجبن كدجاجة مذعورة، فإذا انحسرت آخر قطراتها عن شاطئ الحياة... فلا شيء. لا شيء قط.

أتراه يتحسر وهو في آخر مراحله على حياة قضاها هو الآخر في مثل هذا الصخب وذاك الضحك؟ أتكون حياته خطأ عظيمًا لم ينتبه إليه إلا وهو يكتب آخر فصولها؟ وهل كان في وسعه

إدراك عبثه وهو يخط أول حروف مستقبله، أم أن الإنسان مقضي عليه بأن يشرب كأس الخطأ حتى ثمالتها لكي يعرف أنه خطأ؟ وما تكون الجدوى حينئذ؟ إنه إذا اعتزم العدول عنه إلى شراب أصلح يكون قد قضى نحبه.

أيتها الآلهة! أتكون الخليقة ماجنة إلى هذا الحد؟ إنه هو «أمنحتب» الذي ابتدع هذه المراتع الصاخبة التي سميت باسمه. لقد أراد أن يجعل طيبة مدينة الأعياد والمرح، فيقرن اسمها في جنبات الأرض باللهو والحبور، بالنور الذي يملأ قصورها، والجمال الفاتن البارز في معابدها ومغانيها. على هذا الوجه تصور ما يجب أن تكون عليه عاصمة إمبراطوريته الشاسعة، فما ادخر وسعًا في تحقيق ما تمنى. جلب لحدائقها الأشجار النادرة من الصومال، ولمعابدها الأخشاب العطرية من آسيا، ولقصورها التحف البرونزية المنقوشة من اليونان ولموائدها الأواني المزخرفة والصحاف المموهة من فينيقية.

إنه يستطيع أن يسرد هذه الأعمال إلى غير نهاية. ولكن هل هو فخور بها أم تراها خطأ كبيرًا يطأطئ له رأسه؟ ما أمرَّ هذا الخاطر وما أتعسه! لشد ما عانى من مناهضة كهنة «آمون» المتزمتين الذين عارضوه في كل ما استحدثه في الفنون والأزياء. ولكن ها هو ذا اليوم يدرك أن كل ما أفنى حياته في تشييده ليس سوى شخوص من رمال، ستطؤها أقدام القدر فإذا هي والأرض سواء. حينئذ يجول بعينيه باحثًا عن آثاره فلا يجد شيئًا. لقد حدثوه بأن عمائره ستحيا أبد الدهر. ولكنها صخور ورمال ثم لا شيء بعد.

ما هو الدهر؟ إنه حلقات فكر الإنسان. إنه جدول الشعور البشري

يسمو صعدًا نحو الآلهة، ترفده سيول المعرفة والحق والجمال، فتزيد قوته الدافعة وتسرع به إلى الغاية العظمى. فماذا فعل هو؟ أي حقيقة أضافها إلى ثروة الدهر؟ لقد أسهم في سلسلة الفكر البشري بحلقة من صخور صم. فهل غنى الدهر بعمائره؟ إن الآلهة لم تقم حجرًا ولا شيدت حائطًا، وهي تعتبر مع ذلك ثروة الدهر وطعام فكر البشر، لأنها بنت صروحها في القلوب. آه لو علم ذلك وهو فتى!

ولكن نفس الملك الكئيبة ما لبثت أن تألقت فرحًا حين تذكر ولي عهده. لقد كان يسيئه فيما قبل أن يرى ابنه معتكفًا ساهمًا، ولكنه في هذه اللحظة وحدها تجلى له نور جديد. إن ابنه ليس مثله كالبحر الملتطم، ولكنه كالنيل الوديع الجميل، الذي يجري في بطء وهدوء، ليغرس في شطآنه الحياة، وليضفي على أهلها الخير.

أترى سيحذو ابنه حذو الآلهة فيطعم الدهر بما عجز هو عن تقديمه، ويهبه طعامًا غير الحجر الصلد والصخور الصم؟ إن كان ذلك فلم تكن حياته من العبث بالقدر الذي تصوره. فهو الذي أعقب ولي العهد، وهو الذي اختط بحياته الطريق الموصل لما قد يقيمه ابنه من عمائر أبقى من عمائره. لعله لو لم يكن كالبحر الملتطم لما نشأ ابنه كالنيل الوديع. فليهنأ بخلفه إن لم يتأت له أن يهنأ بنفسه.

من يدري؟ لعله لم يكن في طوقه أن يستحدث غير ما فعل. فأقدار الفراعة ترسمها الآلهة وحدها. وإن المرء لا يخط طريقه بنفسه بقدر ما يختطه أسلافه له، فالابن لا يكون صورة لأبيه، ولكنه تكملة وتتمة. هكذا أرادت الآلهة. لأنه لو حاكى الابن عمل أبيه لاستنامت

البشرية في مهدها الأول، ولأصبحت كالمرايا المتقابلة تعكس صورًا لا تحصى، ولكن لشخص واحد.

قد يعصر الجد الكرم، فيجمعه الأب، ويعتقه الولد، ثم يشربه الحفيد لينتشي. هذا ما يجب أن يكون. فعاصر الكرم لا يشرب خمره، لأنه لا يعرف غير العصير والمنتشي بما عتقه جدوده، إن ظن أنه قد بزهم بجهده وسما عليهم فهو واهم، لأنه إنما يتسلسل من حلقاتهم فيكمل لهم بمثل ما سيكمل خلفه له.

* * *

كان ولي العهد قد تسلل إلى الحديقة في صحبة «سمنكرع» الذي اصطفاه من بين سائر أصدقائه. وما كان «سمنكرع» بنبيل ولا سليل نبيل. بل كان ابنًا لأحد التجار المصريين الأثرياء. ولكنه لم يكن كأبيه ولوعًا بهذا الضرب من استجلاب الرزق. شد ما حرضه أبوه على مصاحبته في أسفاره إلى آسيا أو الصومال، فكان «سمنكرع» يلوذ بشتى الأعذار ليبقى في منزل أبيه المقام على ضفة النيل، يقرأ في أوراق البردي ثم يسرح ببصره في مياه النهر ليغرق في تأمل طويل.

وذات يوم جلس في شرفة القصر يقرأ تعاليم «بتاح حتب» المقدسة. كان الوزير يقول لابنه:

> إذا كنت قائدًا تصدر الأوامر للجم الغفير، فاسع وراء كل كمال، حتى لا يكون ثمة نقص في طبيعتك. إن الصدق جميل وقيمته خالدة، فهو لم يتزحزح منذ جلبه «رع» إلى العالم. والذي يتخطى نواميس الصدق يعاقب. وهو للضال كالطريق المستقيم. إن الخطأ لم يوصل

مقترفه إلى الشاطئ. حقًّا إن الشر يكسب الثروة، ولكن
قوة الصدق في أنه يبقى إلى الأبد، والرجل المستقيم
يقول إنه أحسن متاع ورثه عن والده...

كانت هذه الفقرة تورث «سمنكرع» حيرة واضطرابًا. أترى يكون والده رجلًا شريرًا لأنه لا يني عن كسب الثروة؟ إن المتاع الذي سيرثه عنه بائد. المنزل سيحترق، والسلع ستغوص في جوف المحيط. فماذا يبقى له بعد ذلك؟ الصدق.. الصدق الجميل الذي لا يمكن أن يزول ولا تؤثر فيه ألسنة النار.

وبينما هو غارق في تأملاته مرة، إذ لمح جسمًا أدكن يمرق في طيات النهر ظل هذا الجسم يظهر حينًا ويختفي حينًا، ثم اتجه آخر الأمر إلى الشاطئ وصعد إليه، فإذا به تمساح هائل كان قد شاع في طيبة منذ يومين أنه قد ظهر في ماء النهر.

بدا على التمساح أنه يقصد هدفًا معينًا. فقد كان يتقدم على رمل الشاطئ في بطء وتلصص. ورمى «سمنكرع» ببصره فرأى غير بعيد من التمساح شبحًا قابعًا في ظل شجرة. وفي غير تردد انحدر من المنزل، وظل يعدو في طريق طويل ملتوٍ، فلما وصل إلى الشجرة لاهفًا، كان التمساح على قيد خطوات منها. هكذا أنقذ «سمنكرع» حياة هذا الفتى الذي أوشك أن يكون فريسة لتمساح من أشد التماسيح وأضراها. ولم يكن هذا الفتى سوى ولي العهد. ومنذ ذلك الحين تولدت بينهما صداقة لم يفصمها غير الموت.

اتجه الأمير مع «سمنكرع» إلى ظل دوحة في طرف حديقة القصر، كانت المحل المختار لولي العهد، يختلف إليه كلما أراد الخلوة

بنفسه. هناك جلسا في سكون. وكان ولي العهد مطرقًا فلم يشأ صديقه أن يقطع عليه تأملاته.

وأخيرًا تنهد الأمير في استطالة ثم رفع رأسه إلى صاحبه قائلًا:

ـ لقد بدأت أكره الحياة يا «سمنكرع».

صمت «سمنكرع» لحظة قبل أن يجيب ثم قال:

ـ إنني ألاحظ فيك تغيرًا طال به العهد يا صاحب السمو.

عاد ولي العهد إلى إطراقه ثم تمتم قائلًا:

ـ ما عدت أعرف نفسي.

ـ أهي الأميرة «نفرتيتي»؟

ـ أجل..

وساد الصمت بينهما. لقد مضى أكثر من عام منذ بدأ قلب الأمير يتحرك لهذه الفتاة. وكان في أول عهده بهذا الحب شديد الفرح به، دائم التحدث عنه لمن يصطفيه من أصدقائه. ولم يكن في مقدوره إخفاءه عنهم. فقد كان حبه كشعلة من النار قدحت في حنايا صدره، ثم ما لبثت أن توهجت واتسعت حتى سربلته بثوب من النور، لا يمكن أن تخطئه عين الصديق الفاحصة.

بدا كل شيء جديدًا في عينيه، وامتلأ قلبه بموسيقى إلهية كست وجه الطبيعة بظل وردي. صار الصباح والمساء قصيدتين رائعتين لا تنضب لهما معان. وأصبح الأمير لا يمل من الخلوة إلى نفسه حيث ينعم بأحسن صحبة وأعذب حديث. واستحالت أشعة القمر في ناظريه حمى لها سورة منعشة، والنجوم ثنايا بسامة متألقة، والأزهار ألغازًا صغيرة محببة، والهواء لحنًا رائعًا يبعثه مزمار مقدس.

بات يفهم أنغام الطير وكأنها تتكلم بلسانه. وكان إذ يحدق في السحب يخالها أوجهًا معروفة لديه. أما الأشجار الموسوسة والحشائش المترنحة فقد صارت جميعها مخلوقات حية مدركة، حتى لقد خشي على سره من ثرثرتها.

وفجأة انقطع الأمير عن البوح بحبه إلى أصدقائه، وتبع ذلك حزن عميق خيم عليه، فتحول الفرح في عينيه إلى بصيص ساهم مكتئب. وفطن أصدقاؤه إلى ذلك التبدل، ولكنهم امتنعوا عن مفاتحته في أمره احترامًا لسره.

ولكن بدا لـ«سمنكرع» اليوم أن صدر الأمير قد ضاق بهذا السر، وأنه يريد أن يفرج عن همه بالبوح به. فاقترب منه ووضع يده على كتفه ثم راح يسر في أذنه قائلًا:

ـ هل جد في الأمر شيء يا صاحب السمو؟

كان ولي العهد قد غرق في تأملاته من جديد، فأفاق مفزوعًا على صوت صديقه وقال له:

ـ أي أمر يا «سمنكرع»؟

صمت «سمنكرع» فترة وهو يتفحص وجه صديقه الشاحب ثم قال:

ـ أيها الأمير. لست أحب لك هذا الحال الذي أنت فيه. ثم إنك تكتمه عني فتجعلني مسلوب الحيلة في أن أتلمس لك المخرج منه أو العون عليه. لست أفهم ماذا يشغل سموك وكل الأمور مبذولة لك...

وكأنما أصاب كلام «سمنكرع» ملمسًا رقيقًا من نفس الأمير، فانتفض جسده كعصفور بلله القطر، ثم رفع رأسه إلى صديقه قائلًا:

ـ هذا هو أس البلاء يا «سمنكرع». إن الأمور كلها مبذولة لي. فأنا إن أردت «نفرتيتي» فهي لي قبل أن أفرغ من البوح بهذه الرغبة.

ـ أتراك تود أيها الأمير لو قامت في وجه حبك الصعاب حتى يلذك اقتحامها والتغلب عليها؟

هز ولي العهد رأسه قائلًا:

ـ كلا يا صديقي. فليست المشكلة ما قلت. إن المشكلة أن «نفرتيتي» تعلم أنني سأكون فرعون مصر في يوم من الأيام. وزوجة فرعون ملكة لمصر وليس من بين فتيات طيبة من لا يسيل لعابها توقًا إلى هذا المنصب.

ـ إذًا فالأمير يشك في إخلاص فتاته؟

احتوى ولي العهد رأسه في يديه ثم راح يتمتم قائلًا:

ـ لا لا يا «سمنكرع». إنما أنا المخطئ. إن خيالي الآثم هو الذي يهيئ لي من الأفكار ما هي براء منه.

زوى «سمنكرع» ما بين عينيه ثم قال:

ـ لم أعد أفهم أيها الأمير.

راح ولي العهد يتكلم ببطء كأنما يحادث نفسه:

ـ إنها أوهام تعصف بنفسي فلا أدري أحقيقة هي أم سراب. لعله من المؤكد أن «نفرتيتي» لا تضجرها عاطفتي نحوها. فأنا إذ أقصدها في الليل أو في الفجر، تظل تسامرني من شرفتها ما غمضت أعين الرقباء، دون تململ أو ضجر. ثم إنها بجانبي طيعة صبور، تبتسم للقائي، ولعلها تحن لفراقي. ولكن...

صمت الأمير وعاد يصر بأنيابه وهو مطرق، فقبض «سمنكرع» على يده وضغطها ثم قال:

ـ ولكن ماذا يا صاحب السمو؟

رفع الأمير عينيه إلى صديقه وقد تجلت فيهما نظرة وجل وحزن، ثم أجاب قائلًا:

ـ ولكنها كالآلهة يا «سمنكرع»، وليست كالبشر. إنها تتقبل مني ما أبذله لها من عصارة نفسي في سكون ورضا، ولكنني لا أشعر بأنها تمنحني من نفسها شيئًا. إنني بجانبها ملتهب كالنار، ثائر كالبركان، منقض كالشهاب. أما هي... فإنها هادئة، ساكنة، مطمئنة، لا تني عن الابتسام. هذا حالها دائمًا. وقد أكون منقطعًا عنها وقتًا ما، فأهرع إليها عقب ليلة ساهرة، فإذا بها أمام مرآتها تضحك لنفسها وتصفف شعرها، كأنما لم تسمع بذكري من قبل. ثم أقابلها فترحب بي وتبسم لي، ثم تجلس صامتة في انتظار ما يقدمه عابدها من قرابين.

كان الأمير يتكلم بحماس واندفاع. فصمت حينًا ليتدارك أنفاسه ثم حول بصره إلى صديقه متسائلًا:

ـ هل تفهم مقصدي يا «سمنكرع»؟

أجابه صديقه باقتضاب قائلًا:

ـ أجل.

ـ أجبني إذن.. هل تحبني «نفرتيتي» حقًّا، أم هي تتلهى بعاطفتي نحوها؟

ـ بل تحبك أيها الأمير. كل ما في الأمر أنك لا تفهم النساء. إن

المرأة يا صاحب السمو مخلوق يختلف عن الرجل في كل شيء. إنها نوع آخر من البشر.

ـ كيف يا «سمنكرع»؟

ـ إن المرأة يا صاحب السمو لا تملك شعورًا أصيلًا في نفسها، ولكنها تعكس ما يصوبه إليها الرجل من مشاعر، وإنما في ضوء باهت جميل. فـ«نفرتيتي» لا تملك أن تكون شمسًا مثلك يا صاحب السمو. بل هي التابعة لك، العابدة لأشعتك. ويخيل إليَّ أن المرأة لا تحتاج منا إلى عاطفة مشبوبة، بل إلى مهارة وحسن سياسة.

إنها «حقل مثمر لربها» كما قال حكيمنا «بتاح حتب». فهي لا تحب من يعشقها، وتكاد تعبد من يعرف كيف يروضها.

ولكن عجبًا! أترى نسي صاحب السمو؟

كان الأمير قد أخلد إلى كلام صديقه فأجابه في دعة قائلًا:

ـ ماذا نسيت يا «سمنكرع»؟

ـ أليس سموك هو الذي طالما نادى بنا ألا نفرط في أقدس ما غرسته الآلهة في أفئدتنا فنبذله في غير موضعه؟ ألم تقل لنا: إن العاطفة المقدسة التي أودعت صدور الرجال لم تزرعها الآلهة لتحصدها النساء. فما استحق أن يولد من تفنى عاطفته في حب امرأة، وما أشقى من بهرته غوايات النساء فصرفته عن أعمال الرجال. فهل عزب عن سيدي الأمير ما أوصانا ألا ننساه؟

هز الأمير رأسه في حسرة ثم تنهد قائلًا:

ـ كلا يا «سمنكرع» لم يعزب عني منه شيء.

ساد الصمت بينهما برهة. وشعر «سمنكرع» بسعادة قدسية إذ أحس بروحه تتصل بروح الأمير عودًا على بدء. وكانا إذ يصلان إلى هذه المرتبة من الاندماج، يكفان عن الكلام، فيفهم الواحد منهما الآخر عن طريق آخر غير اللفظ والتعبير.

وفجأة أفاق «سمنكرع» فقطب متأملًا كأنما يعالج خاطرًا غريبًا ورد عليه، وظهر عليه التردد والارتياب فهز رأسه وكتفيه كأنه يطرد هذا الخاطر، ولكنه ما لبث أن تكلم قائلًا:

ـ يا صاحب السمو، إن قلبي يحدثني بأن هذا الذي رويته لي لم يكن السبب فيما انتابك من يأس وأسى. هناك سبب آخر

وثب الأمير مذعورًا كأنما راعه وحش مخيف. وظهر على وجهه ألم مجسم يعصر نفسه عصرًا، فحوى وجهه في كفيه، وشهق شهقة خيل لـ«سمنكرع» أن الأمير سيغيب بعدها عن رشده. وعاد الدم يسيل من فم ولي العهد ويتسلل من بين أصابعه.

هب «سمنكرع» من جلسته وهم بالاقتراب من الأمير فنحاه بيده قائلًا:

ـ لا تقربني يا «سمنكرع».

ـ ماذا حدث يا صاحب السمو؟

مسح الأمير فمه بيده، ثم أدار ظهره إلى صديقه، كأنه لم يعد يجرؤ على النظر إليه.

وأخيرًا قال له في صوت وئيد:

ـ كيف كشفت سري يا «سمنكرع»؟

توسل إليه «سمنكرع» في لهفة قائلًا:

ـ أي سر أيها الأمير؟

عاد ولي العهد يتكلم بذلك الصوت الهادئ المكتوم:

ـ كيف أدركت أنني لم أعد الأمير الذي تعرف؟

ولكن معين هدوئه سرعان ما نضب، فصاح في ثورة تنم عن أزمة دخيلة مروعة.

ـ من أخبرك بأنني فقدت إيماني بالحياة فصرت عودًا يابسًا تطأه أقدام البهائم؟ أخبرني من أين عرفت هذه الحقيقة...

الفصل الخامس

كان الرسول الذي أوفده فرعون قد نقب عن الأمير في مختلف أنحاء القصر فلم يجده. إلا أن خدم القصر كانوا يعرفون الكثير من عادات ولي العهد، فتوجه الرسول إلى الحديقة، وهناك لم يكن محتاجًا إلى كبير بحث، إذ وصل إلى سمعه صياح ولي العهد، فأسرع إليه يبلغه رسالة أبيه.

خف ولي العهد إلى والده بنفس قد تزلزلت من أصولها، ولكنه ما قطع آخر ممرات الحديقة ودلف إلى القصر، حتى كان قد ملك زمام مشاعره المضطربة. وفي سرعة فذة ألبس وجهه ذلك القناع الهادئ، الذي لم يكن يفصح عما يدور في جَنانِه بأكثر من بسمة وديعة لا تعبر عن معنى. والحق أنه كان لهذا الفتى المريض إرادة حادة سمت به على كل فراعنة مصر.

دخل ولي العهد على أبيه فسجد له ثم قبل يمناه ووقف خاشعًا. ومر فرعون بيده على رأس ابنه ثم قربها من فمه فقبلها. وأشار الملك بيده فأغلق باب الحجرة، وبقي الأب والابن خاليين.

طوق فرعون خصر ولي عهده ثم حدق في وجهه برهة وهو صامت. وأخيرًا ابتسم له قائلًا:

ـ إن صحتك ليست على ما أرومه لك يا «أمنحتب». أرى أن الدم قد عاد ينزف من فيك.

فأجاب الأمير في هدوء قائلًا:

ـ إنها إرادة الآلهة.. لست بخائف يا أبتاه.

ضحك فرعون وزاد من ضغطه خصر ابنه ثم قال:

ـ من قال إن ابني يخاف.. إن الفراعنة لم تخلق لتخاف يا «أمنحتب».

وصمت فرعون حينًا ثم عاد يقول:

ـ ولكن لم لا ترضى أن يعالجك «تحتمس» الطبيب؟

ـ لست أؤمن بطب الأجساد يا أبتاه. إن رضا الآلهة عني هو وحده الذي يستطيع شفائي.

أخذ فرعون يتأمل ابنه وعلى شفتيه طيف ابتسامة غامضة. حقًّا إن ولي العهد فتى شاذ التفكير.. ترى ما قدر لهذا الفتى أن يكون؟ واختلطت مشاعر الإعجاب في صدر الملك بلون من الحسد، فأحب أن يؤلم ابنه إيلامًا خفيفًا فراح يسأله:

ـ وهل الآلهة غضاب عليك يا «أمنحتب»؟

ولكن الأمير أطرق ولم يجب.

وربت فرعون كتف ابنه وقال:

ـ لا بأس يا «أمنحتب».. هون على نفسك. إننا في شبابنا تثقل علينا الحياة بمشكلاتها وأسرارها. وقد تنجح في مخادعتنا أحيانًا فتزلزل نفوسنا، حتى يخيل إلينا أن فقدنا كل شيء.. ولكني أؤكد

لك أنه حين يمتد بك العمر، ستحاول عبثًا أن تنقب عن واحدة من هذه المشكلات التي تلوح لك اليوم ضخمة ثقيلة، فإذا بها قد بخرت في الهواء.. سوف تدرك حينئذ أن أسرار الحياة لم تكن سوى هياكل مزوقة زائفة، وأنك إذا هززت لها كتفيك وأهملتها، لا تلبث أن تحل نفسها في النهاية.

استمع الأمير إلى أبيه وهو مدهوش فاغر الفاه.. كان ما يقوله فرعون في يسر وهدوء يدوي في أذن ولي عهده كأنه وحي عميق تحار في فهمه الأفئدة، فراح يسأل أباه في لهفة:

ـ أحق هذا يا أبتاه؟ أحق أن المشكلات تحل نفسها بنفسها دون افتقار إلى عناء؟

ابتسم فرعون بسمة اغتباط. فلقد ولد إعجاب ولي العهد بما قاله نوعًا من رضائه عن نفسه، فصار أكثر حبًّا لابنه واقترابًا منه. وعاد يقول لولي عهده:

ـ وهل يتكلم فرعون بغير الحق يا «أمنحتب»؟ عليك أن تثق بنفسك وأن تصبر. إن أحكم الرجال ليس إلا أجملهم صبرًا.

وساد الصمت بينهما، فنهض فرعون واتجه إلى النافذة، حيث وقف يطل على حديقة القصر، وراعه ما وقع عليه بصره من مغان مورقة، يحدها النيل بسوره الفضي، فتبدو كأفرع نضرة في جذع ضخم.

ـ ما أجمل الطبيعة يا «أمنحتب». لست أدري لِمَ تضني نفسك وأنت تعيش في هذا العالم الفاتن!

وأجاب ولي العهد في هدوء محمل بالمعاني:

ـ إن الطبيعة جميلة يا أبتاه. ولكن الإنسان قبيح.

ـ أليس الإنسان ابن الطبيعة؟

ـ لم يعد كذلك. فقد صيره كهنة «آمون» ابنًا للسحر والشعوذة والتنجيم، وراحوا يبيعونه أحجبة عديمة القيمة، بدعوى أنها تخلص مشتريها من عذاب الآخرة، وكأنما آخرة الآلهة تشترى بمال العباد.

نظر فرعون إلى ابنه وفي عينيه خليط من المشاعر المتباينة. مشاعر من الإشفاق والرثاء، وحب الاستطلاع. وأخيرًا قال له وهو يبتسم:

ـ وماذا تنوي أن تفعل يا «أمنحتب»؟

واستشعر الأمير رنة ساخرة في صوت والده فلم يزد على قوله:

ـ لا أدري يا أبتاه.

غير أن فرعون شعر بأنه مطالب بأن يضيء الطريق لابنه، حتى لا يتردى في مهاوي الجهل والغرارة، فمضى يقول له:

ـ استمع إليَّ يا «أمنحتب». إن الكائن هو الذي يجب أن يكون، وإلا لعدلته الآلهة وفق هواها. فعليك أن تسلم بالنحو الذي تجري عليه الأمور.

ولكن الأمير لم تكن حماسته لتبرد بمثل هذه الحجة الغامضة، فسأل والده:

ـ ألا يملك الإنسان إصلاحًا لما قد يراه خطأ يا أبتاه؟

أجاب الملك بلهجة صارمة:

ـ إنك لست بإنسان يا «أمنحتب». أنت فرعون. وعلى فرعون ألا يخدم أحدًا وإلا صار عبدًا له. بل عليه أن يعمل لنفسه ليصير

سيدًا. فالنفس الكبيرة وحدها هي التي تستطيع أن تحيا لنفسها، فتترك لعامة الناس خدمة المجتمع، وإصلاح شؤون الخلق. أما أنت فإنك بمحض سيادتك وترفعك، تستطيع أن تفوقهم جميعًا في إعلاء شأن مصر.

أطرق ولي العهد ساعة، فقد كانت العواطف التي أثارها حديث والده تعصف في صدره فتلجم لسانه. وأخيرًا تكلم قائلًا:

ـ بودي يا أبتاه لو استطعت مثلك أن آخذ الحياة هذا المأخذ السهل.

نفذت هذه الإجابة إلى صميم فؤاد الملك. إنها اتهام موجع لجماع حياته التي قضاها على الأرض ـ هذه الحياة التي شعر منذ لحظات بسخفها وتفاهة جدواها. وأدرك الملك أن نفسه القديمة هي التي كانت تتكلم منذ برهة فاقترب من ولي عهده وقال له:

ـ لست مضطرًا أن تنظر للحياة نظرتي لها يا «أمنحتب». بل عليك أن تترسم الخطوط المميزة لعهدك وشخصيتك.

ما إن سمع الأمير حديث والده حتى انخرط في البكاء، كأنما قد ضاق صدره عن تحمل ما هو فيه من عذاب. لقد كشف صديقه «سمنكرع» سره منذ لحظة، وها هو ذا والده يطالبه بأن ينهض بوضع أسس إيمانه بالحياة. إن الجميع يجهلون ما هو فيه من بلاء منذ أفلت زمام الحياة من يديه، فأصبح لا يدري من أمرها شيئًا. وفي وسط دموعه جعل يحدث والده:

ـ هذا هو أس مصيبتي يا أبتاه. لم أعد أستطيع إنجاز ما تطالبني به. لم أعد أفهم من أمر الحياة شيئًا.

دهش فرعون لبكاء ابنه، فجلس إلى جواره، واحتضنه بذراعه وهو يقول:

ـ هون عن نفسك يا بني. ماذا دهاك؟

رفع الأمير عينيه المخضلتين بالدمع إلى والده، وراح يتكلم بشفاه مرتعشة:

ـ حدث هذا منذ عام يا أبتاه، إذ تحطمت قيم الحياة في نظري، فلم أعد أفهم من أمرها شيئًا. وكان التغيير مفاجئًا، إذ أصبحت ذات يوم وقد فقدت إيماني كاملًا. لست أجد اليوم شيئًا أستند إليه. فأنا أسير فوق لجج الحياة، لا هدف ولا رجاء. آكل مع الآكلين، وأنام مع النائمين، وأضحك مع الضاحكين، دون أن أعثر على نفسي الحقة في أي حالة من هذه الحالات.

وصمت الأمير برهة ثم عاد يقول:

ـ لست أدري لِمَ أعيش!

حدج فرعون ابنه بنظرة ملتهفة. فولي العهد يجب أن يعيش. إنه إيجاب الأقدار. وتكلم فرعون متمهلًا:

ـ أهناك ما ينقصك يا «أمنحتب» مما أستطيع التماس العون لك فيه؟

هز الأمير رأسه في حزن وقال:

ـ كلا يا أبتاه. لا شيء ينقصني. ولعل هذا هو منبت البلاء. إن كل ما أطلب فهو لي، وكل الناس ـ بفضلك يا أبتاه ـ عبيد لأهوائي. السلطان والشعور بالقدرة ـ أحب ما يطمح إليه الناس وأجلُّ ما يسعدهم ـ كلاهما في طوقي ورهن مشيئتي.

كل ملوك الكون يلتمسون مرضاتي ويحنون لي الهام حين أسير، وأسير وأسير وأسير... أشبع نزعاتي، أحقق سلطاني، أجبي الرهبة والاحترام من قلوب الخلق... ومع ذلك فأنا شقي.

صمت فرعون متدبرًا كلام ولده وهو مقطب. ولكن التقطيب ما لبث أن تراخى تدريجًا ثم اتسعت شفتاه ببسمة حائرة مستريبة. وفجأة ردد صوته هذه الضحكة الفاتنة التي طالما ملأت قلوب سامعيه بالفرح والطمأنينة.

رفع ولي العهد بصره إلى والده في وجوم ودهشة ثم قال:

ـ علام تضحك يا أبتاه؟!

ـ عليك يا «أمنحتب». إنك سوف تعيش طويلًا حتى تتكلم الآلهة على لسانك.

وأمسك الملك ساعة ثم عاد يقول في صوت منخفض:

ـ أتدري لم أستدعيك يا «أمنحتب»؟

كان ولي العهد لا يزال يفكر في تلك الخواطر المتدافعة إلى شعوره فأجاب وهو شارد اللب قائلًا:

ـ كلا يا أبتاه.

ـ اعلم يا بني أن ساعتي قد دنت، وأنني سأغادر هذا العالم عن قريب.

أفاق الأمير من تأملاته فجأة وفتح عينيه مدهوشًا، فلم يكن يدور بخلده قط أن والده سيفارق الحياة يومًا ما. إنه منذ استهل بالبكاء وهو طفل، عرف أنه ولي للعهد، وأن أباه هو فرعون مصر. وكان يخيل إليه أن والده سيظل فرعونًا إلى الأبد، أما هو

فلن يكون غير ولي للعهد ما عاش. ولكن ها هو ذا فرعون يحدثه بأن حينه قد أوشك.

رفع الأمير بصره إلى والده وقال في تردد:

ـ أهذا أمر لا بد منه؟

ابتسم فرعون لسؤال ابنه. لقد بدا له استفهامًا ساذجًا ولكنه جميل. فإن ابنه لم يفقه من معاني الموت أكثر مما تحتمل. بل الأشياء عنده تصح وتحترم على قدر لزومها الحتمي، وبدرجة اندماجها في النسق الطبيعي للوجود. إن كان الموت لازمًا فمن الواجب والأفضل أن يكون.

وأجاب فرعون:

ـ إنها أيْ «أمنحتب» إرادة الآلهة التي سألحق بها.

تأمل الأمير قول أبيه فينة، ثم قال:

ـ حسنًا يا أبتاه.

ولم يتمالك فرعون حينئذ أن يعتنق ابنه وأن يملأ بفتوته كهوف صدره الكهل وأنشأ يقول:

ـ «أمنحتب». ابني العزيز. لكم أحبك! أحبك لأنك أكثر الناس حبًّا لي.

عاد لخاطر الملك صورة زوجه وهي تنتحب وتولول حين أخبرها باقتراب ساعته. لم يكن ذلك لأنها تحبه، بل لأنها تحب نفسها وراحتها. فهي تريده لنفسها. أما ولي العهد فلم يحزن ولم يعترض، بالرغم مما ينتظره من مهام ثقال ستعيي كاهله الفتي.

قبَّل الملك جبهة ابنه وظل يحتضنه برهة. كانت هذه اللحظة تعدل

كل ما قضاه من عمر. أما الأمير فقد بسط وجهه لأبيه وعلى شفتيه بسمة حزينة ثم قال:

ـ إن كنت تحبني يا أبتاه، فإن لي عندك مطلبًا أرجو أن تسعفني به.

ـ ما هو يا «أمنحتب»؟

ـ حين تنضم إلى الآلهة وتتخذ مكانك بينهم يا أبتاه، أرجو أن تشفع لديهم لينتشلوني من محنتي.

ـ لك هذا يا «أمنحتب».. إلا أن ثمة علاجًا لديَّ أرجو أن أقنعك بأن فيه نجاتك مما أنت فيه.

سأله الأمير في لهفة قائلًا:

ـ حقًّا يا أبتاه؟!

قبل أن يجيب الملك على ولده جال في الحجرة حينًا. ثم ألقى بنفسه على مقعد خفيض وقال:

ـ هل قرأت تعاليم «بتاح حتب»؟

أجاب الأمير قائلًا:

ـ أجل.

ـ هل أنت مؤمن بها؟

ـ لا أملك الآن أن أبدي رأيًا في أي شيء.

ـ حسنًا. هل تذكر قول هذا الحكيم «إذا كنت رجلًا ذا مكانة فأسس لنفسك بيتًا، وأحبب زوجتك في البيت كما يجب، واتخذها قرينة لنفسك، لتكون سيدة قلبك»؟

ـ أذكر هذا القول يا أبي.

رمق فرعون ابنه فترة ثم قال:

ـ «أمنحتب».. لقد كنت تسائل نفسك منذ لحظة عن هذا الشيء الذي ينقصك ولا تعرفه. هذا الشيء هو الزواج. إنه الشيء الوحيد الذي سيصلح ما بينك وبين نفسك.

لم يجب الأمير بل ظل مطرقًا لا يتحرك. فعاد فرعون يقول:

ـ أتراني أخطأت في وصف العلاج؟

صحا الأمير من إطراقه ونظر إلى والده ثم قال:

ـ من تريدني أن أتزوج يا أبتاه؟

ـ أميرة فاتنة تدعى «تادوخيبا».

ـ من تكون؟

ـ ابنة «داشرتا» ملك مستعمرتنا «ميتاني». لقد أرسلها والدها في صحبة وزيره فوصلت اليوم.

قال الأمير في سكون:

ـ أهذه إرادة مولاي؟

أثار وجوم الأمير في نفس الملك لونًا من الاضطراب والحيرة، حاول أن يخفيهما في دهشة متكلفة:

ـ حقًّا يا «أمنحتب» إنك غريب الأطوار. أيوجد فتى لا يتهلل فرحًا للاقتران بصبية بارعة الجمال وابنة ملك في الوقت نفسه؟

أجاب الأمير وهو على سكونه الحزين:

ـ لست أعرفها يا أبتاه.

ـ سوف تراها عصر اليوم في حفلة الاستقبال.

ـ إنني لن أعرفها ولو عشت معها إلى الأبد.

حدق فرعون في ولده برهة ثم قال وهو يضغط مخارج كلماته:

ـ إنك تحب يا «أمنحتب».

ولكن هذه المفاجأة لم تسلب الأمير هدوءه، فسالت إجابته من ينبوع سكونه كأهدأ ما تكون:

ـ أجل.

وعاد فرعون يسأله:

ـ أهي من الشعب؟

ـ بل أميرة يا مولاي.

ـ من هي يا «أمنحتب»؟

ـ «نفرتيتي».

خرج اللفظ من فم الأمير كالحجر الكريم يسقطه الصائغ في مكانه من الحلية فيستقر.

ـ أهي ابنة النبيل «آي»؟

ـ بعينها يا أبتاه.

دهش الملك للخبر فقد كان جديدًا عليه. كان البلاط قد أشاع عن ولي العهد أنه يكره النساء. وقيل إن ابن فرعون هو درجة الإشباع التي أدى إليها فرط ولع أبيه بالمرأة. فقد استنفد الملك غدير الحب وكشف عن أغواره، بحيث لم يجد ابنه جديدًا فيه يلقي إليه بشباكه. فكان أن استراح إلى نفسه وانصرف بها عن جهد قليل الغُنم.

وفرح الملك لهذا الكشف لأنه ينشئ رباطًا جديدًا يصله بابنه فقال له:

ـ إنني أهنئك يا «أمنحتب» بحسن اختيارك. إن «نفرتيتي» من أجمل ورود طيبة، وأبوها «آي» هو فخر الإمبراطورية شرفًا ونبلًا. ولكن

لست أدري كيف يمنعك حبك لهذه الأميرة التزوج بابنة ملك «ميتاني»، فما أظنك فقيرًا يا «أمنحتب» حتى لا يسعك التزوج بمن تشاء من النساء...

سأل الأمير وهو مقطب قائلًا:

ـ هل يقصد مولاي أن أتزوج الأميرتين كلتيهما؟

ضحك الملك ضحكته الفضية ثم قال:

ـ أتجده صعب المنال يا «أمنحتب»؟ وفي وسعك كذلك أن تتسرى بمن تشاء من الحظايا. هل نسيت أن الملكة «تي» ليست بزوجتي الوحيدة، وأنني سبق لي أن تزوجت أيضًا والدة الأميرة التي أرسلها إليك الملك «داشرتا» اليوم؟ أنت ترى أن التاريخ يسعى لأن يعيد نفسه.

دفع الأمير وجهه بين كفيه وغمغم قائلًا:

ـ لا أستطيع يا أبتاه. لا أستطيع.

ودهش الملك لإجابة ابنه فسأله:

ـ لم لا تستطيع يا «أمنحتب»؟

فرفع الأمير بصره في توسل وقال:

ـ أبتاه.. إن حب «نفرتيتي» يستأثر في نفسي بكل وتر يمكن أن يهتز بعاطفة ما. فكيف تريدني أن أحب هذه الأميرة الأخرى؟

قهقه الملك مسرورًا ثم قال:

ـ من كلفك أن تحب هذه الأميرة الأخرى يا «أمنحتب»؟ إنني أطلب منك الزواج فحسب. عجبًا! ألست رجلًا.. ألا يشعرك قربك من امرأة جميلة بسعادة حارة؟

هز الأمير رأسه وأجاب:

ـ إن زواجي «نفرتيتي» نفسها قد يهز عطفي فرحًا، ولكنه لن يشعرني بالسعادة.. فليست السعادة عندي في مباهج الحب، ولكنها في الانسجام الرفيع للروح الذي يؤهلها للاتصال بسر الخليقة. السعادة عندي هي الألم المضني، ولست أعرف سعادة عن طريق اللذة.

لم يكن للملك كبير صبر على مواصلة الجهد العقلي مدة طويلة. فقد عاش حياته مثالًا للحكمة العملية السهلة المأخذ. ثم إن هذا النوع الصوفي من النقاش لم يكن مما يدخل في طوق فهمه، بل كان يشعر نحوه كأنه شيء مريض متفكك. شيء كثير التغلغل في أحشاء النفس حتى ليفسدها لكثرة ما يعرض خباياها للأبصار. إن معابده الضخمة وتماثيله الجبارة لا تعرف شيئًا عن هذه التوافه الفكرية الدقيقة التي لا تتميز عن أوهام المخبولين.

لا عجب إذًا أن ضاق الملك ذرعًا بولي عهده فأخذ يحدثه في صرامة قائلًا:

ـ أرى يا «أمنحتب» أن كثرة إخلادك لنفسك قد أفسد عليك تفكيرك. إنني لم أسمع بآرائك تلك من أكثر كهنة «رع» اعتكافًا ونسكًا، فأي روح خبيثة أوحت إليك بهذه الأفكار السود؟ ألا تخشى حين يحضرك الموت أن تعرض حالك، فتجد أنك قد قضيت عمرك هباء منثورًا في الهواء، تجري وراء الإحساسات الشاذة، وتبحث عن شيء غير موجود؟ ماذا يشفيك، وماذا ينقصك؟ إنك تستطيع أن تجد في الزواج

سعادتك الجسدية، وفي ديانة «رع» و«آمـون» سعادتك الروحية، فعلام تبحث إذن؟

ابتسم الأمير في حزن وقال:

ـ إنني أبحث عن شيء ليس بـ«رع» وليس بـ«آمون». لقد وصلت إلى أسرار معابد هاته الآلهة، وأريد أن أقفز فوقها. إن روحي حبيسة وتريد أن تنطلق.

ضرب فرعون بيده على حافة مقعده بعنف قائلًا:

ـ لا يعنينا هذا الجدل الآن يا «أمنحتب». فالأمر الذي حدثتك به اليوم أمر خطير الأثر، ثم إنه يتطلب حلًّا سريعًا، فموعد استقبال الأميرة لم يبق عليه غير سويعات. فعلام عولت؟ إنني لا أسمح لنفسي بقسرك على أمر فيه عسر لك، فأنت فرعون مثلي.

نهض الأمير قبالة والده وقد اكتسى وجهه بطابع الجد الرزين. ثم قال:

ـ أرجو مولاي أن يعفيني من تلبية ما طلب مني.

ولكن الملك صاح في حماسة وعنف، وراح يهدر كالبركان:

ـ كلا يا «أمنحتب». لن أعفيك. فلست وحدك من يمسه هذا الأمر. بل إن مصر والإمبراطورية كلتيهما يتعلق مصيرهما بما تتخذ من قرار. فإن كنت تجد أنك ستشقى بتزويجك ابنة ملك «ميتاني»، فعليك أن ترحب بهذا الشقاء لأنه من أجل مصر ـ أجمل غادة في الوجود، وأحب المعاني إلى القلب. تقول إن روحك حبيسة في معابد الآلهة، وإنها تريد أن تقفز. فلتقفز إلى مصر الوطن، ولتكن مصر هي الدين. إنني لم أشعر مرة في معابد «آمون» أو «رع»

بمثل ما أشعر في معبد مصر من روعة وخشوع. إنني ملتصق بها كأشجار الجميز الجاثمة على شط النيل، وهي أقرب إليَّ من والدي ومن ابني لأني أنا مصر وهي أنا، أنا طينها وماؤها وهواؤها وكل قطرة من دمي هي التي أودعتها جسدي. إنما مصر صدر عريض مفتوح لشعبها. فكيف لا يحبونها... كيف لا يعبدونها... كيف لا يموتون من أجلها ليحيوا بها فيبعثون فيها... إن قول الشعراء، «إن الموت من أجل مصر حياة»، ليس مجرد خيال بل هو حقيقة واقعة.

كان الملك كلما طال به الحديث ازدادت حماسته وعلا صياحه، فما إن فرغ حتى هده الجهد. فألقى برأسه إلى الوسادة المثبتة بظهر مقعده، وأخذ يلهث بحدة أنبأت عما آلت إليه صحته من ضعف.

ومع ذلك فلم يرحم الأمير ضعف والده بل تجلت فيه روح المشاكسة، فعمد إلى صياغة إجابته على نمط جدلي يفسد به على الملك قصده فقال مبتسمًا:

ـ لست أدري يا أبتاه كيف أخدم مصر بتزوجي أميرة ليست مصرية؟

لعبت بنفس الملك سورة غضب خفيف، إذ لم يكن يحتمل تشكيكًا في جدوى السياسة التي استنزف عمره في سبيل دعمها لترتفع إلى مستوى دستور للدولة، فقال محتدًّا:

ـ لعمري إنك فذ التفكير يا «أمنحتب». ولعلك معذور، فأنت لا تزال طفلًا في فن السياسة. اعلم يا «أمنحتب» أن جدودك الفراعنة أقاموا الإمبراطورية المصرية بحد السيف ثم حافظوا عليها بحد السيف. ولكنني حين اعتليت العرش اكتشفت

ما يحوط هذه السياسة من أخطار كثيرة ونفع قليل. فعزمت على أن أتبع وسيلة غير هذه الوسيلة من مقتضاها أنني بدلًا من أن أرغم بلاد الإمبراطورية على قبول سلطان مصر، أعمل على جعل هذه البلاد نفسها تلح في طلب هذا السلطان وتسعى من أجله، فهذا هو فن الحكم الصحيح. ولهذا فقد استقدمت أمراء المستعمرات المصرية ونبلاءها، وبنيت لهم قصور ضيافة في طيبة هي التي تراها على الضفة اليسرى عند منحنى النهر. ولقد صادف هذا العمل اعتراضًا قويًّا من جانب النبلاء المصريين، الذين أشاعوا بأنني أصبغ بلاط الإمبراطورية بعناصر أجنبية سيتولد عنها خطر كبير في مستقبل الأيام. ولكنني لم آبه بكل هذه الاعتراضات النفعية، بل أنشأت معاهد العلم لهؤلاء الأمراء الأجانب، ويسرت لهم سبل الاتصال بأبناء أشراف المصريين، فتوطدت بين الفريقين صداقة متينة قامت على أساس تشبع هؤلاء الأجانب بالثقافة المصرية الخالدة. هكذا أصبح الجيل الجديد في المستعمرات مصريًّا أكثر من المصريين، وصار يتتبع أحداث مملكتنا باهتمام ولهفة يفوقان ما كان يظهره نحو أمور بلاده الداخلية.

ولقد غاظ ملوك آسيا أن يشعروا بأنهم في بلادهم قد صاروا أدنى مرتبة من فرعون مصر. وإن أشقى ما يعذب الملوك هو شعورهم بأن كبرياءهم قد مست. لهذا كان عليَّ أن أبعد هذه الشبهة عن خواطر ملوك المستعمرات، فأشعرهم بأنهم يتساوون في القدر مع فرعون مصر. وكان أن أرسلت في طلب الزواج من بعض

بناتهم... ولن تستطيع تصور أثر هذا الإجراء يا «أمنحتب»... فقد كان فعله كالبحر. فبعد أن كان ملك «ميتاني» يخاطبني بلهجة استعلاء تنبئ عن شعوره بالغضب، إذا به اليوم ـ وقد اطمأن إلى تقديري لمكانته ـ يتفنن في التذلل إليَّ بألفاظ لا أستطيع توجيهها إلى خدمي. وفي هذا اليوم وحده ولدت الإمبراطورية المصرية حقًّا. أما فتوح أجدادنا فلم تكن سوى غزوات موقوتة بحد السيف يحدثنا التاريخ بعشرات من أمثالها.

تحمل الملك هذا الحديث الطويل في شجاعة فرعونية حقًّا. لم يتوقف ليتدبر كلماته أو يلم أفكاره، بل انطلقت المعاني من فمه كسيل عرم يزخر بالقوة المخبوءة.

ولم يعد الأمر بينه وبين ابنه مجرد نقاش ومحاولة قهر، بل لقد اتخذ صفة الوصية الأخيرة التي يعهد بها فرعون إلى ولي عهده. وبعد فترة عاد يقول:

ـ إن مصر يا «أمنحتب» منذ أن فصل الإله «شو» الأرض عن السماء إلى اليوم الذي يلتقيان فيه من جديد، قد قدر لها أن تكون زهرة العالم المنوعة الألوان بقدر تنوع الأمم والجماعات، فمصر هي العالم، والعالم هو مصر. يؤمها القوم من مختلف بقاع الأرض فتضيفهم وترحب بهم، ثم ما تلبث أن تصهرهم في بوتقة سرها الإلهي، وتمسح جباههم بماء نيلها المقدس، فإذا هم ذرة طيعة في خضمها العالمي. لهذا وجب على مصر أن تكون مضيافة كريمة لأنها لم تخلق لنفسها بل للعالم. قد تتبدل الحكومات والأنظمة في مصر، ولكن العبقرية المصرية

لن تتبدل. وقد تطرأ عليها ثقافات ومدنيات من الشرق والغرب، فيعتقد أصحاب هذه المدنيات أنهم غزوا مصر بها وغلبوها على أمرها. وهم خادع... إنها الضريبة المفروضة على كل حضارة تظهر على الأرض، أن تأتي لتسجل أصولها في مصر «سجل العالم». إنها الإلزام الأدبي القاهر الذي يستوجب من كل ثقافة أن تأتي لتسوغ تعاليمها أمام مصر «ضمير العالم». إنها الأمم تروح وتغدو، والأديان تتنافس وتتطاحن، والفلسفات تتغير وتتبدل... كل هاتيك في ظل مصر الباقية الشامخة «أم العالم» التي تسع الأرض بأسرها، ولا أرض تسعها...

صمت الملك فترة وجيزة تدارك فيها أنفاسه ثم قال:

ـ هل يستكثر الأمير المصري بعد ذلك أن يتزوج بالأميرة الآسيوية من أجل مصر؟

قام ولي العهد فاقترب من الملك في تباطؤ، ثم وقف خلفه ووضع يديه على كتفي والده وقال مبتسمًا:

ـ لعل الأمير لم يعد يستكثر ذلك يا أبتاه...

الفصل السادس

ـ مولاتي.. أنت لا تزالين زاهية كأبهى ما تشتهي العين. أفليس من القسوة البالغة أن تعتكف الزهرة النضرة في أردية مسودة؟

قالها وابتسم. كان «بتاح موس» رئيس كهنة «آمون»، قد أخذ نفسه، بابتسامة استحياء يرسمها على شفتيه، فيبدو كعذراء بوغتت في خدرها. وكان ظنه أن هذه البسمة الأخاذة تجلوه في مظهر الكاهن المتبتل، الذي لعزوفه عن الدنيا يحرجه اختلاطه بالناس، ويخجله تحدثه إليهم. ولطالما أفاده هذا القناع من الرياء. فهو يهيئ إلى سامعه أن محدثه رجل طيب القلب قليل الحيلة، فيشفق عليه، ولا يتحرج من أن يفضي أمام هذا الملك الطاهر بما يعني قلبه من أسرار لا يشك في أنها ستطوى في بئر من الكتمان. وقليلون هم الذين استطاعوا أن يكشفوا ما وراء هذا الستار الخادع من نفس جشعة وشخصية خبيثة.

كان «بتاح موس» قصير الجسم، ضخم الرأس، يمشي مهرولًا خافض البصر، كأنه لا يهتم بما في طريقه من غوايات الدنيا. وكان يصافح من يقابله بحرارة بالغة حتى ليربكه بما يظهره له من آيات الود

والترحيب. ولكي يظهر للقوم أن هذه هي طبيعته التي لا يملك عنها محيصًا، فقد حرص على أن يسوي في معاملته بين الفقير والأمير. يضيء على الجميع ببسمته المستحيية، ويشع فيهم بحرارته التي أوقدها في أتون نفاقه.

لا غرو إذن أن أنشأ كاهن «آمون» لنفسه بطانة كبيرة من أهل طيبة المخدوعين. إنهم يعرفونه بعينيه الصغيرتين، وبأسنانه البارزة على شفته السفلى مما يجعل لهيئة وجهه النحيل سمة فأر مبتسم. يعرفونه بصوته الخفيض المتهدج وبمسوحه السود المحتشمة، وبذراعيه المنعقدتين على صدره كأنه في صلاة دائمة. يعرفونه ويفسحون له الطريق خاشعين مبجلين، وشفاههم لا تفتر عن الهمهمة بالدعاء للكاهن الأكبر. والحق أن «بتاح موس» كان خدعة كبرى...

ورفعت الملكة «تي» عينيها إلى الكاهن، وقد هزتها الدهشة مما سمعت، فظلت تحدج وجهه المستحيي بنظرات يلمع فيها الشرر. وأخيرًا قالت بصوت حديدي:

ـ ماذا تعني يا «بتاح موس»؟

لم يفقد الكاهن هدوءه بل ظل رانيًا إلى أرض الحجرة الملكية ويداه معقودتان في حجره. قال:

ـ إنني يا مولاتي رجل قليل الخبرة بأمور الدنيا. غير أن إلهنا الأعظم «آمون» يلهمني أحيانًا ما فيه الخير، فلا أملك سوى الإذعان لأمره. لقد مات فرعون زوجك المقدس فحزنت عليه الأمة حزنًا لم تشعر به لملك من قبل. وظلت تتجاوب أنحاء المملكة بالعويل حتى لم يبق في العيون دمعة لم تذرف، ولا في

الصدور شكاة لم تتصعد. فقد كان فرعون الراحل عظيمًا جبارًا، عرف كيف يحمل عبء الحكم الفادح بشجاعة لا يعدلها سوى مهارته وذكائه.

وصمت الكاهن فترة ثم عاد يقول:

ـ ولكن فرعون قد مات...

لم تكن الملكة «تي» قد استبانت بعد، ما يرمي إليه هذا الذئب المخادع، فراحت تقول:

ـ ولكن نجلنا فرعون الجديد قد تربع على عرش أبيه... عم تتحدث يا «بتاح موس»؟

ـ أطال الله في عمر ملكنا الشاب «أمنحتب الرابع»: النور الجبار، صفي الإلهتين، ملك مصر العليا والسفلى، وحبيب «آمون رع» سيد السماء. ولكنك تعلمين يا مولاتي أن جلالته ما برح يافعًا لا يحتمل إهابه الغض قسوة الحكم. لهذا خشي الناس ألا يكون في مكنته امتلاك زمام السلطة بما يضمن لسفينة الدولة أمن المسير.

بدأت أغراض الكاهن تتكشف لبصيرة الملكة. ونازعتها رغبة التثبت مما أدركت فقالت له مبتسمة:

ـ ولكنك تعلم أيها الكاهن الجليل أننا قد نصبنا أوصياء على العرش إلى أن يبلغ فرعون رشده. أليس في هذا الكفاية لضمان سلامة الدولة؟

فعاد الكاهن البكر يلوح بابتسامته التي يظنها تسيل عذوبة، والتي أصبحت الملكة تمقتها أشد المقت. قال:

ـ إنه فوق الكفاية.. وتجدينني أول من يعترف بجدارة مولاتي وعظم كفايتها. غير أن الملكة تعرف حال شعب طيبة. لقد شاء له حمقه من قديم الأزل ألا يميل إلى حكم الملكات، فهو يعمد دائمًا إلى مناوأة سلطتهن. ولقد طلبت مقابلة مولاتي اليوم لأبوح لها بهذه الحقيقة التي يؤلمني التفوه بها. وثقي أنني ما كنت لأتكلم بهذه الصراحة لولا ما وصل إليه الحال من التحرج. فإن جلالتك أول من يعلم بخبر تلك الاضطرابات التي نشأت في العاصمة، ثم ذاعت في أنحاء المملكة حتى صارت الشواهد تنبئ بقيام ثورة عامة لا يعلم نتيجتها غير الآلهة.

كانت القلاقل التي يتحدث بها كاهن «آمون» المظهر المادي للدسائس التي افتن في حبكها مذ مات فرعون الراحل. ولقد توصل إلى إضرامها بوسائل شتى، نوعها وفق ما يثير كل فئة من الناس. قال لأتباع «آمون» إن الملكة تزمع القضاء على ربهم لتحل «رع» مكانه. وقال للوطنيين المتحمسين إن ملكتهم الأجنبية تسعى إلى بيع مصر للآسيويين. ثم وسوس في صدور أهل طيبة التياهين برجولتهم أنه مما يحط بقدرهم قبولهم حكم امرأة. بل لقد همس الكاهن الشرير في أذن الشعب أن الملكة قد سمت فرعون بمساعدة كهنة «رع» لتستأثر بعده بالحكم.

هكذا جمعت القلاقل وقودها من هنا ومن هناك. فبدأت الأسماع تتبين همهمة خافتة صادرة من الشعب.

غادرت الملكة مقعدها واتجهت إلى النافذة تطل منها على حديقة

القصر، وهي تستقصي في خاطرها أخبار تلك الدسائس التي وصلت إلى علمها في وقت لم تكن تملك لها منعًا، وعاودها من جديد إعجابها بمهارة كاهن «آمون». غير أنها لا تعرف بالضبط ما سوف يعرضه عليها هذا الثعبان المتلون...

وتكلمت الملكة وهي لا تزال مولية الكاهن ظهرها:

ـ وما هي الوسيلة التي تقترحها أيها الكاهن الجليل للقضاء على هذه القلاقل التي لم يصل إليَّ علمها بعد؟

وعاد الكاهن يقول من جديد:

ـ يا صاحبة الجلالة، إن جمالك يتخطف الأبصار ويأسر الأفئدة. عليك بالزواج يا مولاتي ليقوم إلى جانبك ملك رجل يرتاح إليه الشعب.

لم تغير الملكة من وقفتها، فقالت دون أن تنظر إلى الكاهن وعلى شفتيها ابتسامة اغتباط وتسلية:

ـ ومن هو الزوج الذي تراه ملائمًا لنا يا «بتاح موس»؟

ـ إنك يا مولاتي أشرف امرأة في المملكة فلا يليق بك سوى رجل يعادلك في الشرف.

ـ ليس من يعادلني في الشرف سوى فرعون يا «بتاح موس».

ـ ولكن فرعون قد مات يا صاحبة الجلالة. وفرعون الحالي هو ابنك.

ـ إذن...

ـ إذن فلا مفر من أن يكون الزوج الكفءُ لصاحبة الجلالة هو من يلي فرعون في المرتبة.

استدارت الملكة وصوبت إلى الكاهن سهام عيني نمرة متحفزة وقد علت وجهها ابتسامة غامضة المعاني. وأخيرًا تكلمت في صوت هادئ ملول كأنها تقرأ أرقامًا لا معنى لها:

ـ إن المراسم الملكية يا «بتاح موس» تنص على أن الذي يتلو فرعون في المرتبة هو كاهن «آمون».

لم يجب «الكاهن البكر» بل أرخى عينيه إلى الأرض ورسم على شفتيه إحدى ابتساماته المخضلة بالوداعة والحياء، فبدا كفتاة ناعمة يفضي إليها بخبر خطبتها.

وراقبته الملكة وهو يقوم بدوره فاضطرم قلبها بعواطف متضاربة تترجح بين رغبة القتل ولذاذة الاستماع.

وطال بينهما الصمت فرفع الكاهن رأسه وقال في صوت واهن:

ـ مولاتي... إنني رجل لا مأرب له. وجلالته أول من يعلم بأنني اعتزلت السياسة واعتكفت في المعبد. غير أنه يوحى إليَّ أحيانًا من «آمون» فلا أستطيع سوى الإذعان لحكمه صاغرًا.

وأجابت الملكة بلهجة قطة تداعب فأرها فتملأه بالآمال قبل أن تهوي عليه بالمخلب:

ـ ولكني قد عاهدت نفسي أيها الكاهن الجليل على أن أظل مخلصة لذكرى زوجي فرعون الراحل.

ـ إن واجبك الأعظم يا صاحبة الجلالة هو أن تخلصي لمصر أولًا

ـ وعهدنا المقدس يا «بتاح موس»؟

ـ إننا يا مولاتي دمى في أيدي الآلهة توجهنا كيف تشاء.. وليس علينا أن نقرر مصير أنفسنا. فالآلهة تأمر ونحن نطيع. ولعل روح

فرعون العظيم الراحل لو ملكت التكلم الآن لما خارت لك بغير ما نصحت مولاتي باتباعه.

رفعت الملكة حاجبها متصنعة الدهشة ثم قالت:

ـ حقًّا... ولم ذلك أيها الكاهن المبجل؟

رأى الكاهن أن الفرصة قد سنحت لكي يلقي بإحدى وسائله في الإقناع:

ـ لأنه في اليوم التالي لهذا الزواج ستنقطع القلاقل على التو، فيعود الأمن إلى ربوع مصر، وتعرف الطمأنينة طريقها إلى قلب الملكة. وليس لمولاتي أن تخشى شيئًا، فهي تعلم عظيم تقديري لها وحبي إياها.

جاشت بنفس الملكة رغبة في أن تهوى على الجسم القابع أمامها فتوسعه ضربًا ثم تأمر بأن يُلقى خارج القصر. ولكن نوازع الحكمة منعتها من أن تظهر على وجهها شيئًا مما يتأجج به صدرها، فقد خشيت أن يفسد التدبير الذي اجتهدت في حبكه مع مستشاريها، ولا سيما أنه لم يصل إلى علمها بعد مبلغ ما صادفه هذا التدبير من نجاح أو إخفاق.

* * *

كان مجلس البلاط قد انعقد في اليوم السابق للتدبر في وسائل القضاء على تلك الاضطرابات الشعبية قبل أن يستفحل الأمر. وكانت الملكة الوالدة لحداثة عهدها بالسلطان، ولرغبتها في أن تشعر نفسها بقوتها المادية الهائلة الممثلة في الجيش المصري، فقد رأت أن تخمد هذه القلاقل بقوة السلاح. وجاراها في هذا الرأي «حور محب» القائد

الشاب، الذي لم يجد غير هذه الفتنة ليصرف فيها نشاطه الحربي بعد أن استتب الأمن في المستعمرات الآسيوية، ولم يعد ما يبرر شن الحملات عليها.

غير أن الحكيم «أمنحتب بن حابو» والوزير «رع موس» اتجها إلى غير هذا الرأي. فقد أدركا أن هذه الحملة المسلحة ضد الشعب هي نفسها ما قصد إليه كاهن «آمون». فهو يستطيع بمكره أن يستخلص منها وقودًا لإشعال نار الفتنة التي قد تنتهي بحرب أهلية طاحنة.

وكان الوزير «رع موس» قد صادفه في إحدى رحلاته التفتيشية فرصة سعيدة لم يهتم بأمرها في ذلك الحين، بل اكتفى بأن رواها للحكيم «أمنحتب بن حابو» وشاء حسن الطالع أن يتذكر الحكيم هذه القصة أثناء انعقاد مجلس البلاط، فحدث الملكة بها ورغب إلى المجلس أن يتدبر أمر استغلالها. وبعد تقليب الأمر على وجوهه المختلفة، انعقد الرأي على استخدام حيلة محبوكة الأطراف سرعان ما وضعت موضع التنفيذ. فأرسل القائد «حور محب» في مهمة دقيقة يتوقف على توفيقه فيها نجاح الحيلة بأكملها، واختص الوزير بتنفيذ الجزء السياسي من المكيدة الذي لم يكن يقل خطره عن مهمة «حور محب».

وفي المساء عرفت الملكة أن الوزير قد نجح فيما وكل إليه. فقد أنفذ في طلب «تا نم» مساعد رئيس كهنة «آمون» الذي يليه في المرتبة ويمثل الإله في غيابه. وبعد أخذ ورد طويلين تمكن الوزير من الحصول على موافقته على أن يلعب الدور الذي رسمه له. وكان

ثمن هذا الدور ثلاثة أحمال من الذهب دفعت فورًا، ووعدًا ملكيًّا بأن يعين حاكمًا لإحدى المستعمرات الآسيوية بدلًا من وظيفته التي لن يتمكن من الاحتفاظ بها إن نجحت المؤامرة.

ولكن ها قد أمسى المساء، ثم أشرق جبين الفجر، ولم تلبث الشمس أن توسطت كبد السماء، ومع ذلك فلم يصلها خبر عن «حور محب»... ولكن لعل تأخره دليل على توفيقه في مسعاه وإلا لعاد من ساعته. فعلى الملكة أن تشغل الكاهن حتى تستبقيه لديها، وأن تمهد لمفاجأتها له بما يهد من أعصابه، حتى إذا طالعته بما دبرته له، كان ذلك كالسيف ينفذ في أحشاء فارس قد طرحته دابته وتسنمه خصمه.

جلست الملكة قبالة الكاهن، وقالت له في صوت غفل لا يبين عن غضب أو تشجيع:

ـ لقد كنا نعلم تقديرك لنا يا «بتاح موس» لكن حبك...

وأمسكت الملكة فلم تتم. وحدق الكاهن في وجهها فلم يستطع أن يجزم هل ترتجف شفتاها بطي ابتسامة، أم تعلو جبينها مسحة من تقطيب، أم أن كليهما مجتمع في قسمات هذا الوجه الغامض الذي تتحكم صاحبته في أدق عضلة فيه. يقينًا إن الملكة تفوقه براعة في فنون الأداء والتمثيل، فقد اقتصر جهد الكاهن على تشخيص الحركات، أما هي فقد تعدته إلى البراعة في رسم الظلال وأشباه الظلال، حتى لتستطيع الإيحاء بأدق المعاني وأخفى العواطف بلآلئ عينيها الجذابة أو بتموجات وجهها الرقراق.

وأمام هذا التيه المغلق فضل الكاهن أن يعمد إلى الإفصاح عما

يقصد، لعلمه بأن النساء إن لم يستهوهن الثناء فهو لا يضيرهن على أي حال قال:

ـ إن الرجل لا يملك سوى الإعجاب بأجمل أزهار الأرض يا مولاتي، والإعجاب يسير الحب في ركابه... صدقيني يا صاحبة الجلالة، إن الإلهة «هاتور» إلهة السنا لتغار من حسنك وتتمناه لنفسها.

أجابت الملكة بمثل الصوت المصمت المغلق:

ـ عجبًا أيها الكاهن المبجل... ولكنك متزوج ولك أبناء.

دخل في روع الكاهن أنه قد بدأ يطرق أبواب التوفيق، فنوازع الغيرة في المرأة هي أصدق مظاهر الميل. وساعده على هذا التصور أنه كان يدرك بغريزته أن الملكة تشعر نحوه بإعجاب كمين. فقال مبتسمًا:

ـ أتغار صاحبة الجلالة من زوجتي... أؤكد لمولاتي أن شدة إخلاصي لها ستورثها الملل مني.

وصمت الكاهن حينًا ثم عاد يقول وعلى شفتيه ابتسامة غير ابتسامة «الكاهن البكر»:

ـ إن إعجابي بمولاتي يرجع إلى عهود طوال. وقد لا تذكر مولاتي أنني طلبت يدك من أبيك وأنت فتاة، ولكن فاز عليَّ فرعون بالرغم من سبقي إلى الطلب.

ـ هل أشقاك هذا الفوز كثيرًا يا «بتاح موس»؟

ولعل الكاهن أراد أن يقتنص من الملكة إجابة صريحة، فسألها بدوره بدلًا من أن يجيبها:

ـ وهل أسعدك يا صاحبة الجلالة؟

وقبل أن تجيب الملكة سمعت نقرًا بالباب، ثم دخل كبير الأمناء وتقدم إليها فأسر في أذنها خبرًا برقت له أساريرها، فألقت إليه بأمر مقتضب، وأشارت إليه بالانصراف. غادرت الملكة مجلسها، وجالت في الحجرة وقد عقدت كفيها خلف ظهرها. واستطال بها هذا الحال دون ان تنبس بلفظ. وخيم السكون على الحجرة حتى لم يكن يسمع فيها إلا أنفاس الكاهن ووقع خطوات الملكة المنتظم. وكان لاستمرار هذا الوقع وانتظامه أثر عميق في أعصاب الكاهن، فأخذ يرمق الملكة في غدوها ورواحها، كأنما شدت عيناه إليها.. ثم تنحنح وتململ في مجلسه، فلم تلتفت إليه، بل اطرد وقع خطواتها المنتظم المستمر. وبعد برهة كان الكاهن يصور صوت هذا الوقع بشفتيه، على غير شعور منه. كان كالمسحور. وبدأت الوساوس تحتل صدره. ترى ماذا أسر كبير الأمناء إلى الملكة؟ وهل تجوال الملكة وإطراقها نتيجة لهذا الخبر، أم هو التفكير فيما عرضه عليها وتقليب الرأي فيه؟

ولكن الملكة سرعان ما قطعت على الكاهن حبل هواجسه، إذ وقفت أمامه وأنفذت فيه نظرة صارمة ارتجف لها قلبه. ومع ذلك فلم تبادر الهرة بافتراس فأرها، بل ظلت تحدجه برهة طويلة، ثم تحركت شفتاها قائلة:

ـ لا أكاد أصدق أيها الكاهن الجليل ما أسمعتنيه اليوم من حديث.

لم تكن نبرات صوتها متفقة مع ما في نظرتها من صرامة. فكاد الكاهن يجن، ولم يعرف في أي متجه يسير. ولكنه جالد نفسه. وأخفى هواجسه، ثم أجاب:

ـ الأمر الخطير يناسبه الحديث الخطير يا صاحبة الجلالة.

لم تغير الملكة من نظرتها، ولم تبدل من صوتها، إذ قالت:

ـ لا إني أعرف كاهن «آمون» حقبة طويلة. ولست أتصور أن يصدر منه هذا القول.

حاول الكاهن أن يركن إلى المزاح. فقال:

ـ إن الحقيقة يا مولاتي على عكس ما يتصوره المرء، وإلا لم تكن حقيقة.

هزت الملكة رأسها وازداد تقطيب عينيها:

ـ حتى هذا الحديث ما كان لينطق به كاهن «آمون».

ماذا دهى الملكة! وما هذا الخوف المتسلط على وجدانه! ما باله لا يستطيع تمالك زمام قلبه! ها هو ذا يسمع نفسه يحدث الملكة على غير إرادة منه قائلًا:

ـ ماذا تقصدين يا صاحبة الجلالة؟ هل أنا... هل أنت...

ولم يعرف كيف يتم حديثه، فجعل يفغر فاه صامتًا وهو يلهث. وعادت الملكة تهز رأسها:

ـ رباه... أكاد لا أصدق أن الماثل أمامي هو «بتاح موس» رئيس كهنة «آمون».

ما كادت الملكة تتم حديثها حتى سُمع نقر على الباب من جديد. ودلف في هذه المرة الوزير «رع موس»، فأعلن الملكة قائلًا:

ـ «بتاح موس» رئيس كهنة «آمون»، ومساعده الكاهن «تا نم» يريدان التشرف بمقابلة مولاتي في أمر هام.

صاحت الملكة في صوت مرعد:

ـ ماذا تقول! أين هما؟

وبعد قليل دخل الحجرة الملكية الكاهن «تا نم»، في إثر كهل قصير القامة، بادر بالسجود والتكفير للملكة. فما استوى ولاقى وجهه الضوء حتى صرخت الملكة، وقفز «بتاح موس» من مقعده صائحًا. كان القادم الجديد نسخة أخرى لرئيس كهنة «آمون»، حتى ليستحيل على العين أن تميز أي فارق بين ما للشخصين من سحنة وهيئة... المشية المهرولة، سمة الجسم، ثم المسوح السود المحتشمة، والذراعان المنطبقتان على الصدر، والعينان الضيقتان كالفأر، والأسنان البارزة فوق الشفة السفلى... لا يمكن أن يكون هذا تشابهًا بل معجزة...

وتكلم القادم الجديد، فإذا بصوته نفس الصوت الخفيض المستحيي:

ـ معذرة يا صاحبة الجلالة إن كنت قد أزعجتك في أمر لك. ولكني لم أملك سوى المبادرة إليك، حتى أريح نفسي من خاطر ظل ينغص عليَّ حياتي من يومين.

نظرت إليه الملكة المرتاعة بحدقتين ازدادتا اتساعًا، لتزدادا تعبيرًا عن دهشة صاحبتهما، وقالت بصوت متهدج:

ـ ما الأمر أيها الكاهن الجليل؟

ـ إنني أعتذر عن كل ما صدر مني، فقد كنت مجرمًا دنيئًا.

ـ كاهن «آمون» الأكبر مجرم دنيء...

قالتها الملكة وهي تنتقل ببصرها بين القادم الجديد، وبين زائرها القديم، كأنما تتخير من بينهما من تنطبق عليه هذه الأوصاف، لتصب عليه دهشتها. وجاء تأكيد القادم الجديد سريعًا، فقال:

ـ أجل يا مولاتي.

انتفض زائر الملكة القديم، ولكنه لم يفتح فاه. واستطرد القادم الجديد قائلًا:

ـ اليوم يا صاحبة الجلالة، بينما أقوم بصلاة الصبح، تجلى لناظري الإله «آمون» فرأيته مقطبًا مزمجرًا، ثم ما لبث أن صب عليَّ جام غضبه. قال لي إن المتربع على العرش هو ابنه الحبيب، وإنني بوصفي خادمًا للإله، كان عليَّ أن أستميت في خدمة فرعون، بدلًا من أن أدس للعرش، وأثير الشعب. والحق يا مولاتي أنني إن كنت قد فعلت هذا، فقد صدر عن إخلاص وصدق يقين بأن فيه منفعة لمصر. غير أن الإله رماني بالإجرام والدناءة، وبين لي في صورة لا تقبل الشك، أنني كنت أفعل ذلك لخدمة أغراضي الشخصية، ولأحقق مطامع وضيعة كانت تضطرم في نفسي الخاطئة.

صمت القادم وأطرق، فاقتربت منه الملكة وقالت:

ـ إنك تظلم نفسك يا أبتاه. أليست هذه الاضطرابات من نوع القلاقل التي تعقب وفاة الملك عادة إذا كان خلفه ما انفك فتيًّا؟

كان المشهد بارعًا حقًّا... فقد كان كاهن «آمون» يتهم نفسه بنفسه، على حين تتطوع الملكة للدفاع عنه. وبلغ من دقة سبك الإخراج، أن خيل لـ«بتاح موس» أنه يرى شبحه في العالم الآخر، وقد وقف يعترف بذنوبه أمام الإله «أوزوريس». وها هو ذا يرى آثامه تتجمع في كفة الذنوب، وإذا بها تهبط وتهبط حتى شال الميزان، وأصبح

مصيره المقرر أن يلقى إلى الغول الضاري، الذي يفتح فمه على الدوام انتظارًا لكل خاطئ.

وعاد القادم الجديد يقول:

ـ كلا يا صاحبة الجلالة. إن كل ثورة من هذه الثورات، أجهدت حياتي في تنميق مسبباتها، ثم كنت من بعد ذلك أرعاها، وأوري نارها. إنني وحدي المسؤول عن كل هذه القلاقل يا صاحبة الجلالة. وليس ثمة تكفير أتوسل به إلى غسل كل هذه الآثام. فأنا أضع حياتي رهن أمرك يا صاحبة الجلالة.

ولكن صاحبة الجلالة ابتسمت وقالت:

ـ إن حياتك عزيزة علينا أيها الكاهن المبجل. ولكن الحق إنني لم أكن أتصور كل هذا من كاهن مصر الأول، الذي أشاد الشعب بنبله.

ـ لا يا مولاتي. إنني لم أكن نبيلًا في يوم من الأيام.

ولم تتمالك الملكة أن تخفي ابتسامة لاحت على شفتيها، فقد كانت دلالات هذا المشهد الفريد تملأها غبطة وتسلية. وصاحت مدهوشة:

ـ هكذا... وعلام عولت الآن؟

ـ إن صفحَت عني مولاتي، وشاء كرمها أن أظل في منصبي، فسأصدر أمري لأعواني كيما يقفوا هذه الاضطرابات في الحال. ولقد أعلمت مساعدي الكاهن «تا نم» بالأمر، وأحضرته إلى مولاتي ليكون تحت تصرفها حتى أبرهن على صدق توبتي.

التفتت الملكة إلى الكاهن الآخر وسألته:

ـ هل أنت مستعد للعمل في خدمتنا أيها الكاهن «تا نم»؟

ـ إنني طوع إرادة مولاتي، وعبد رغباتها.

ـ حسنًا. وأنت يا كاهن «آمون» الأكبر، لقد شاءت إرادتنا أن نصفح عن ذنوبك. انصرف إلى معبدك.

ولكن «بتاح موس» تقدم إلى الملكة، فتكلم أول مرة قائلًا:

ـ لا داعي لهذا يا صاحبة الجلالة.

التفتت إليه الملكة وانبعثت منها صيحة دهشة ثم قالت:

ـ أما تزال هنا... لقد كدت أنساك أيها الرجل. حدثني من تكون أنت؟

عض «بتاح موس» على أنيابه وقال:

ـ لست محتاجة لأن تطيلي تمثيل دورك يا صاحبة الجلالة. إنني أعترف بهزيمتي.

تأملته الملكة مليًّا. حقًّا إن حاله يثير الشفقة. ولا يستطيع الباحث في النفس البشرية أن يجزم هل هي هذه الشفقة، أم هو نبل الملكة، أم هو إعجابها القديم بالكاهن هو الذي دفعها إلى أن تمتنع عن إطالة تعذيبه، على ما هنالك من لذة التشفي والانتقام. ولكنها ـ وقد أدت حيلتها الغرض المقصود منها ـ سرعان ما طرحتها بعيدًا عنها فرجعت الكاهن الحق إلى منصبه، ثم وجهت إليه خطابها على هذا الاعتبار:

ـ حسنًا يا «بتاح موس». هل أنت مستعد لأن تنفذ ما تعهد به لنا هذا الكاهن المبجل منذ لحظة؟

ـ هذا أمر مفروغ منه يا مولاتي.

ـ ليكن ذلك. وسنحتفظ بهذا الكاهن المحترم رهينة لدينا لضمان تنفيذ ما تعهدت به. وإلا قام هو بتنفيذه.

صوب «بتاح موس» إلى الكاهن المزيف نظرات تقدح شررًا ثم التفت إلى الملكة:

ـ أتسمح مولاتي أن تخبرني أين عثرت على هذا المخلوق؟

فقهقهت الملكة وقالت:

ـ لا تخف يا «بتاح موس» فلدينا من أمثاله كثيرون.

ـ لا يا صاحبة الجلالة. فلا يوجد في العالم سواه.

ثم التفت إلى الكاهن الزائف وقال له:

ـ أليس كذلك يا «هوتي»؟

ولكن الملكة لم تترك لكاهنها فرصة الإجابة بل صرخت قائلة:

ـ عجبًا... أتعرفه يا «بتاح موس»؟

فنظر إليها نظرة ساهمة ملولة ثم قال:

ـ إنه توأم لي يا صاحبة الجلالة. ولقد أخفيت أمره عن الناس أجمعين، إذ لم يكن انتسابه إليَّ يشرفني في كثير أو قليل، بعد أن اختار طريق الفساد، واندس بين سفلة القوم، وكانت صلتي به قد انقطعت منذ أمد بعيد. ولكن هأنذا أراه في هذا اليوم المنحوس الذي ما كان يجب أن يظهر فيه.

والتفت «بتاح موس» إلى مساعده وقال له:

ـ هيا بنا يا «تا نم» فلا بأس أن نقتسم ثمن خيانتك معًا.

ولكن الملكة تكفلت بالإجابة عن الكاهن فقالت:

ـ أخشى أنك ستضطر إلى البحث عن مساعد جديد يا «بتاح موس».
فإن الكاهن الجليل «تا نم» قد أصبح منذ اليوم حاكمًا لبعلبك، حيث يكون من سوء حظه أن يصبح بعيدًا عما سيوحي به إليك الإله «آمون».

لم يجب رئيس الكهنة، بل ظل يحدق في وجه الملكة المنتصرة في هدوء ضخم عميق. ها هو ذا قائم أمامها كعهدها به فلم يتحطم، ولم يبك، ولم يتوسل بل لقد استقام ظهره وقد اعتاد الانحناء، وشمخ رأسه وقد علمه الخفض، واحتدت نظرته وما كانت إلا حيية. وهوى قلب الملكة فجأة فقد شعرت أنها المنهزمة وأن الكاهن هو المنتصر. فإن في محض تحمله الهزيمة نوعًا من النصر، وفي التهليل والفرح بالنصر هزيمة خفية. إن الكاهن الآن هو المسيطر على الموقف من غير شك. فقد انتهى نجاحها وانتهى إخفاقه، غير أن الشجاعة التي قابل بها الكاهن محنته، دلتها على أن ما وقع بينهما اليوم إنما هو حلقة في سلسلة. ولسوف تنثني دورة الأقدار في فلكها المعكوس، فيذهب إخفاق الكاهن في غياهب النسيان، ثم تتجمع له على مر الأيام بذور نصر جديد لا يلبث أن يزدهر حين تدق الساعة.

وتتبع الكاهن هذه الخواطر وهي ترتسم متلاحقة على صفحة وجه الملكة التي أخذها هذا الشعور المفاجئ على غرة منها، فأدرك أن قناصته قد أصبحت فريسته. وعلم أنه لو عرض عليها الآن ـ وهو طريح مهزوم ـ ما عرضه عليها منذ حين، فقد تقبل وهي منتصرة ما سخرت منه وهي مهزومة.

ولكن الكاهن الأريب اكتفى بأن رشق الملكة بنظرة أشاع بعدها بسمة لم تكن هي الأخرى بسمة «الكاهن البكر».

ثم انحنى مسلمًا وخرج مهرولًا

* * *

وفي المساء كانت الملكة ترأس حفلًا صغيرًا استمعت فيه إلى المغامرات التي لقيها القائد الشاب «حور محب» وهو يجد في البحث عن شبيه كاهن «آمون». فحدثها كيف أنه ظل يتنقل بعجلته الحربية من بلدة إلى قرية، حتى انتهى أخيرًا إلى غار في كبد الصحراء، حيث وجد ضالته متربعًا وسط أتباعه ومساعديه.

سألته الملكة وهي تتأمل بين أناملها عنبة وردية كخد الشمس:

ـ أهو يتعبد هناك؟

ـ كلا يا صاحبة الجلالة. إنه زعيم عصابة تسلب قبور الموتى.

ضحكت الملكة وهي تمتص رحيق حبة من العنب على مهل وقالت:

ـ يظهر أن السلب يا «حور محب» من تقاليد أسرة رئيس الكهنة.

وضحك القوم عاليًا وقد امتلأت رؤوسهم بخمرة الجعة ونشوة النصر. ولم يكد أن ينفض الحفل حتى كان القائد «حور محب» قد ارتقى إلى رتبة قائد الجيش الأعلى.

الفصل السابع

تمضي الأيام تلو الأيام، وتقترب الأرض من الشمس فتصطلي بنارها، ثم تشيح عنها فترجفها برودة الحرمان، ويتوسط هذين ربيع زاهر وخريف قاتم ـ الأفلاك لا تنقطع عن الدوران.

تولد الأطفال فترضع الوالدات. تتألق العذارى فتخفق القلوب، يهيم العشاق ثم يسعدون، يتزوج الفتيان ثم ينجبون، ويأخذ الناس ويعطون، ويروحون ويغدون، ثم تعتل الأبدان فتهمى العيون، ويموت الشيوخ فيدفنون، فاسقون أو متعبدون، وهناك في المغرب يبعثون ـ قلب الحياة لا يفتر له نبض.

العالم بأسره يهيم ويدور وينبض، ولكنَّ ثمة مخلوقًا قد قبع في مكانه لا يبرح ولا ينشط.

أين فرعون..

لم تكن تراه أبهاء القصر الملكي. ولم تكن تعرفه المحافل أو الولائم، ولم يكن يظهر في المراسم العامة إلى جانب والدته، ولم يشاهده الملوك والساسة ممن يقصدون طيبة.

أين هذا الفتى الناحل الجسم، الكبير الرأس، العريض الجبهة، الخفيف الوطء كأنه الخيال؟ أين تلك القسمات النبيلة، وتلك الأجفان الثقيلة على العيون الحالمة، وهذا الفم العذب الوديع كأنه ينبوع من ألحان الملائكة؟

لم يكن أحد يعرف. ولا فرعون نفسه كان يدرك أين هو أو ماذا يفعل. مخلوق على هامش الحياة قد تخلف عن موكبها إلى جانب الطريق، تمر عليه الأيام والليالي وهو ساهم واجم يحدق في الفضاء...

حتى زوجته الآسيوية لم تكن تراه إلا لمامًا. كانت تحدثها أحلامها بأنها حين تصبح زوجة لفرعون العظيم، ستصير ملكة على جميع أمم الأرض، تحوطها الجلالة والمهابة، فلم يمض شهر على زواجها حتى وجدت نفسها حبيسة في قصر من ذهب، لا يكاد يشعر بوجودها أحد. أيكون هذا هو العز الضخم الذي مناها به أبوها وهو يقنعها بالتخلي عن ميلها لابن عمها الذي لا يعدو أن يكون أميرًا آسيويًّا متوحشًا، لتتزوج فرعون الإله الذي تخر له جباه الملوك؟

أين هو فرعون الإله؟ إنه وهم لا حقيقة. وهي حين تنظر إليه تشعر كأنه شبح أو خيال لا يمت إلى الآدمية بصلة. كانت تأسرها أحيانًا ضحكته التي تلمع كجناح الحمام الأبيض، ولكنها لم تكن تفهم كنهها، بل توجس خيفة مما كانت تتلمسه وراءها من معان غامضة. وأصبحت تنظر إلى زوجها كأنه مخلوق غير بشري بل كأنه روح هائم فر من عالم الأموات. ولم تكن الأميرة الآسيوية سوى جسد من لحم حار. وأنامل فرعون باردة كأكف الموتى.

ومن هنا تولد خوفها من زوجها. اقتصر هذا الخوف في بادئ

أمره على أنها أصبحت تتهيب قربه وتعمل على الهرب منه. ثم تطور الخوف على مر الأيام جزعًا راعبًا ورهبة قتالة. ولم تكن في غربتها تجد صدرًا عطوفًا تشكو إليه محنتها، بل زاد في اهتياج مشاعرها هذه الوحدة المروعة التي فرضت عليها. وكيف تنفرد بنفسها؟ إلى الأخيلة القتالة التي تعصر فؤادها عصرًا، أم إلى شبح زوجها المخيف الذي يطاردها في يقظتها وفي أحلامها بأنامله الباردة وبسمته الغامضة؟ وزاد من شجونها أن ترامت إليها أنباء عن صلات زوجها الماضية بالأميرة «نفرتيتي». فهل قدر لها أن تحرم كل عطف وأن تفوز بحب زوجها امرأة غيرها؟

اعتملت هذه الأشجان في صدر الملكة الغض ولعبت الأخيلة الموحشة برأسها الصغير فإذا بها مريضة طريحة الفراش. وعادها الطبيب «تحتمس» وأجهد نفسه في التماس العلاج لها، ولكنه أسقط في يده فانصرف يقول لفرعون إن داء الملكة بعيد عن منال طبه. فلم يكن مرض الملكة علة جسمية معروفة، بل انتابتها مضاعفات عصبية جعلتها لا تنقطع عن الصياح والبكاء. كانت تقطع شعرها وتمزق ملابسها. وكان أكثر ما يثيرها أن ترى زوجها أمامها أو أن تسمع صوته من بعيد. فإذا اتفق أن لامستها يده كفى هذا لكي يؤرقها ليالي موصولة. ثم أصبحت تهاب أيدي الناس جميعًا فما ترى يدًا ممتدة حتى يخيل إليها أن ألسنة من الجليد تنفذ في جسدها.

وصار حالها لا يفترق عن الجنون. ولم يكن بدنها النضر وعظامها الغضة لتحتمل قسوة هذا العناء المضني، فاشتدت عليها وطأة المرض وأصبحت أيامها على الأرض معدودات. هذه المسكينة التي أماتها

خوفها من زوجها لو أنها رأته وهو لا يزال «أمير الأحلام العذبة» لعبدت الثرى الذي يسير عليه.

فماذا دها فرعون؟

حتى الأميرة «نفرتيتي» لم تكن أسعد به حظًا من زوجته. فقد كان الملك لا يسمح لنفسه بأن يخون إخلاصه لزوجته المريضة، كما رفضت «نفرتيتي» أن تتزوج منه فتصبح ضرة للأميرة الآسيوية. غير أن فرعون لم يكن ملحًّا في طلبه بل تركها وانصرف. وندمت «نفرتيتي» ما شاء لها الندم. فقد كانت تحب الملك وخيل إليها أنها أغضبته. وعادت تتودد إليه فما كان يقابلها بغير الابتسام. ثم حاولت أن تجرب سلاح البعد فلم يسأل عنها. حينئذ بدأت تشعر بالغيرة. ووقع في قلبها بعض الوقت أن فرعون قد بدأ يشغف بزوجه. ولكن أخبار انكماش الملكة عن زوجها لم تلبث أن وصلت إلى مسامعها فحطمت هذا الوهم. إذا لم يكن حب الملك لزوجه قد صرفه عنها فلم لا يأتي إليها؟ ما له أصبح غريبًا عليها بعيدًا عنها وهو من كان يقضي الليالي تحت شرفتها..

ماذا دها فرعون؟

لعل السر في هذا مفتاحه في يد صديقه «سمنكرع» ولكن «سمنكرع» نفسه لم يعد يُرى في صحبة فرعون فقد ساد علاقتهما جفاء غامض. لحظ هذا الصديق تغيرًا خفيًّا في طبيعة فرعون، فلم تعد ضحكته الجميلة تفيض بالبشر بل جدت فيها ومضات من السخرية السوداء والتشاؤم البغيض. ولم يعد فرعون يطرق الموضوعات المحببة إلى قلبيهما، تلك التي طالما جمعت بين روحيهما، بل كان

يهرب منها إلى الحديث التافه والمزاح السهل. ثم امتنع الملك تدريجًا من أن يفتح صدره لصديقه فشعر «سمنكرع» أنه بات بعيدًا عن ثقته أو هذا ما خطر له. وكان سلوك فرعون قد أصابه مثل هذا التبدل، إذ صار يخالط نوعًا آخر من الخلان الذين يميلون إلى المرح ومطارحة اللذات، وينأون عن كل جهد أو عمل عقلي. وكان صفي الملك في هذا الحين هو النبيل «تيتو» الوسيم النزق كالعصفور، وكان «تيتو» مثالًا للأناقة وحسن الذوق، فما لبث الملك الذي لم يكن يعرف ما يلبس أن اقتدى به، حتى صارا يتعاونان على ابتكار الأزياء واستحداث أساليب التأنق وحسن الهندام.

هكذا رأى «سمنكرع» أنه قد صار دخيلًا على هذا الجو الجديد بعد أن خان الملك مثلهما المشتركة، التي أجهدا نفسيهما في صوغها تحت ظلال الدوح وعلى شطآن الجداول. فما كان منه إلا أن تدلى في سكون من أفق صديقه القديم. فهل افتقده فرعون فأرسل في طلبه؟ لا شيء من هذا. وكأنه لم يكن يعرف في يوم ما شخصًا يدعى «سمنكرع».

ولقد احتار «سمنكرع» في تأويل هذا التطور ورده إلى تعليل معقول. فالملك لم يكن من هذا النفر الذي يفسده السلطان فيجعله يتنكر لأصدقائه الأول، ثم إنه لم يكن يباشر هذا السلطان حتى يقال إن سورته قد طغت عليه بالرغم منه. بل إن حياة الملك وهو فرعون لم تكن تختلف في مظاهرها عن حياته وهو أمير فإذا لم يكن هذا هو مرد التبدل في طبيعة الملك ومسلكه فما يكون المرد؟ لقد كان الملك يفني نفسه في سبيل أصدقائه فأصبح اليوم ولا صديق له.

فماذا دها فرعون؟

هل صحيح أن فرعون قد غدا مهملًا لزوجته، خائنًا عهد حبيبته، متنكرًا لأعز أصفيائه؟

* * *

في مبنى متطرف من حديقة القصر ألف فرعون أن يجلس إلى منضدة مثقلة بمختلف الأسفار وصحائف البردي. كان يلقي ببصره إلى النيل البعيد الملتمع في أحضان الطبيعة الخضراء كخنجر من ماس يذهب به التفكير كل مذهب. ويطول به الشرود فتدمع عيناه ويتمنى لو دفن هذا الخنجر في صدره فيستريح مما هو فيه من شقاء. فلم يكن الملك جاهلًا بتلك المشاعر الجديدة التي عرفت طريقها إلى صدور أصدقائه وخلانه، بل كان إحساسه بها كإحساسهم. وكان يعلم أن هذه التهم الخفية باطلة لا أساس لها. غير أنه وجد نفسه عاجزًا عن ردها، فقد كانت الحقيقة التي سيدفعها بها أقسى عليه من التهم عينها.

كانت الحقيقة هي أن الملك هو الذي تعمد قطع كل هذه الصلات الحبيبة العزيزة. أما العلة في هذا فقد كان يعرفها وحده. وكان البوح بها يفقده آخر أضواء الأمل في حياته. فلم يكن يطيق الملك أن تنمحي ثقة صحبه فيه كل انمحاء.

هذه الحقيقة هي أنه أدرك في يقين أن نفسه قد صارت رديئة فاسدة بحيث لم يعد جديرًا بالاحتفاظ بصلاته الروحية القديمة. وعرف أنه يخدع أصدقاءه إن اندمج بينهم على أنه المؤمن السامي الذي عرفوه. على حين لم يعد له الآن سوى روح قبحه الشك، وعصفت به

السخرية الشريرة التي لفظت المثل العليا وحطمت المبادئ الرفيعة. وكان يمني نفسه بأنه لا بد متغلب على هذا التطور عن قريب فيعود إلى صلاته الجميلة بصحبه، وتشرق الشمس بعد احتجاب. غير أن الأيام كات تمر فما يزداد الملك إلا تغلغلًا في شكه وبعدًا عن إيمانه القديم. وقد كانت شؤون نفسه في هذا العهد تلهيه عن مهام الحكم فأهملها إهمالًا تامًّا، وألقى عبئها على عاتق والدته.

هذا هو الذي دها فرعون.

أين هو؟ إنه معتكف في صومعته القاصية عن صخب القصر حيث قطع صلاته بالعالم، وكان إذا اضطر لمغادرتها إلى محفل أو وليمة رسمية يعمد إلى الاختفاء وراء قناع من السخرية والتهكم يستر به شقاءه المرير. ولم يكن أسبق إلى مجاراته في هذا المضمار من النبيل «تيتو» ورفقته، فاندمج في زمرتهم حتى بدا للناظر العابر كأنه واحد منهم.

غير أنه كان لاعتكاف الملك علة أعمق من تلك. فقد عقد العزم على استكناه أصول الشك المستولي عليه، فلعله إن تعرف إلى أسبابه يمكنه التغلب عليه. أراد أن يعرف لماذا لم يعد يعتقد ألوهية المعبودات المصرية ويستريب بصفاتها المقدسة. هل «آمون» إله؟ هل «بتاح» إله؟ هل «ست» إله؟ هل «أوزوريس» و«شو» و«هاتور» جميعهم آلهة؟ هل «رع» نفسه ـ أكثر الآلهة المصرية سموًّا وروحانية ـ إله؟ إن الشمس التي يتجسد فيها هذا المعبود هي بلا شك قوة عظيمة جبارة. ولكن هناك أيضًا الأرض والقمر والنيل والنبات. فهل كل واحد من أولئك إله في ذاته كما تقول المعتقدات المصرية؟

وكان أن اعتكف الملك يدرس الكتب الدينية، ويراجع النقوش المحفورة على الأهرام وغيرها من الآثار القديمة، فيقارن فيما بينها ثم يطلق العنان لفكره يتأمل ويتدبر، وكان يخيل إليه أحيانًا وهو يتتبع حلقات تفكيره أن هناك بعض أضواء الأمل في نفس هذا الشك المستولي عليه، بل خيل إليه مرات أن شكه الراهن أفضل من إيمانه القديم. غير أن تلك المشاعر ما تلبث أن تغور في ظلمات نفسه، فيعود إليه يأسه وحيرته فيطرق وتنهمر دموعه.

ولم يصبر الملك طويلًا على هذه الدراسات الدينية التي كانت تورثه الحيرة بدلًا من أن تعيده إلى طمأنينة الإيمان. لطالما هرب من صومعته فخرج هائمًا على وجهه في الحقول ورأسه يكاد ينفجر لشدة ما تتضارب فيه الأفكار، وأخيرًا عول على أن يضع حدًّا لهذا الجهد الموئس، وكان أن أخرج الأسفار جميعها من صومعته فلم يترك فيها قصاصة من صحيفة بردية.

كان يزامل فرعون في بحوثه الدينية شاب يدعى «بك» وهو ابن «أوتا» كبير مثالي الملكة «تي». وكان «بك» من أذكى شبان طيبة، له نفس في صفاء الجدول المتألق، وعزيمة تكاد تداني عزيمة فرعون مضاء وقوة. وكان أول ما لفت نظر فرعون إليه أن استطاع في إحدى الولائم الملكية أن يسوي له صورة على صحيفة من البردي في لحظات معدودات. في هذه الليلة جاذبه الملك أطراف الحديث في شأن الفن المصري القديم والجديد فأعجب بآرائه ومال إليه. ومن هذا الحين نشأت بينهما صداقة وطيدة ارتاح إليها الملك لأنها ـ وهي قريبة العهد ـ لم تكن تظهر لهذا الصديق إلا تطور فرعون الجديد.

وكان «بك» حين تنتهي دراساتهما في بطون الأسفار، يعمد إلى قطعة من الصلصال يصور بها هيئات مختلفة لمعبودات وأشخاص. ولم يكن الملك يرضى عن مجهودات صديقه الفنية دائمًا، فكثيرًا ما عدل له في هيئات تماثيله، إذ كان هو الآخر مثالًا مجتهدًا في صباه. ولقد هاجت هذه المحاولات الفنية خواطر الملك فأطلقت عقله يفكر ويتأمل...

كان الملك قد تعلم فن النحت على يد كاهن من أتباع «رع». ولكنه بعد أن أتقن أصول الفن الأساسية، ضاق ذرعًا بما كان يلقنه إياه معلمه من وجوب تقييد الأوضاع الجسدية على مقتضى التقاليد الدينية التي تحكمت في الفن حتى هذا العهد. فترك معلمه وراح ينشئ بنفسه. أما «بك» فقد تلقى أصول فن النحت على يد والده «أوتا» زعيم مثالي الإمبراطورية، الذي لقن ابنه الأوضاع التقليدية على أنها جزء عنصري في أصول الفن. وكان هذا مثار الخلاف الدائم بين الملك وصديقه. فكان الملك لا يعبأ بالقيود، ويعمل على تصوير الحركة خالصة نقية تنبض منها الحياة، على حين يصر «بك» على أن يقدم رجل تمثاله ويؤخر الأخرى وفقًا للتقاليد القديمة.

ولكن الملك أدرك أن نظرته إلى الفن لا يمكن أن تصل إلى مرتبة الحركة الثورية على القديم الفاسد، إلا إذا تعهدها بالدرس والتهذيب، حتى يجلو أصولها على أحسن وجه. لهذا فإنه بعد أن يئس من بحوثه الدينية أحال مكتبته إلى معمل. واستبدل بكتبه ومحابره الحجارة والمعاول. ثم أكب مع تلميذه «بك» يعملان ويحطمان ويعدلان. وكان مصدر وحيه في هذا التجديد، الفن المصري المتناهي في القدم الذي ظهر في أيام الفراعنة الأولى.

غير أن الملك كان إذا فرغ من عمله وخلا إلى نفسه، تسلمته أفكاره السود فبلبلت فؤاده. إن العمل لم يسعده فهو لا يزال يحس بالشقاوة تخز نفسه وخز الإبر. فعلام إذن كل هذا الجهد ولأي غرض يبذل؟ كان يزداد تأكدًا على مر الأيام، أن عليه أولًا أن يحل مشكلة نفسه وإلا فلا معنى للحياة. ولكنه لم يستطع أن يصل إلى حل لهذه المشكلة بالرغم من كل ما بذل في هذا السبيل.

آه لو تتكشف له علة شقائه...

لقد بدا للملك منذ عهد أن مرجع شقائه هو تنافر حياته، وفقدان انسجام شخصيته مع ما قدر له أن يكونه. واستولت عليه فكرة مؤداها أنه لم يخلق للملك وأنه بمحاولته أن يوفق بين نفسه الطليقة باعتباره بشرًا، وبينها باعتباره فرعونًا لمصر، إنما يجمع بين شتيتين متنافرين ما لبثا أن اعتركا في صدره فأورثاه هذا البؤس. أما وهو لا يستطيع أن يغير ما بنفسه فليس لديه إلا أن ينبذ العرش.

وذهب إلى والدته في أحد الأيام وكاشفها بهذه النية. ولم تكن الملكة تفهم فرعون كفهم أبيه له. فلم تدرك من رغبة ابنها غير معنى واحد، هو انتهاء عهد سلطتها التي ترتكن إلى وصايتها عليه، فجزعت ونصحت واحتجت، فما ازداد الملك إلا تصميمًا. وكانت الملكة تعرف معدن عزيمة ابنها، كذلك لم يغب عن بالها رقة قلبه ويسر تأثره. فلم تجد أخيرًا غير أن تبكي له وتستعطفه، لكي يرجئ إنفاذ رغبته إن لم يشأ أن يعدل عنها، ثم أكدت له أنها ستعفيه من تحمل كل تبعات الحكم، وتعصمه سائر مضايقات المنصب.

وكان أن عاش فرعون طليقًا من أتفه القيود الملكية، لا يعرف

من الوزير ومن الحاكم، ولا يهمه أن تقوم الثورات أو أن تنسلخ المستعمرات. فهل أفادته هذه الحرية الظاهرية، فأطلقت سراح روحه الحبيس في سجن تعاسته؟ لا شيء من ذلك. فلم تكن المشكلة إذن أنه أسير منصب معين ينشز بحياته عن لحنها الطبيعي، بل الطامة هي شعوره المرهق بأن شيئًا ينقصه، وجهله بهذا الشيء ماذا يكون.

لم تكن بنية الملك الرقيقة لتحتمل هذا الجهد المضني المتصل الحلقات. فازداد تدهور صحته وكثر نزيف الدم من فمه. غير أن علته لم تقف به عند هذا الحد فقد كان من أثر إجهاد فكره المستمر، ونهك أعصابه المتواصل، أن عاجله مرض خطير أسلمه إلى نوبات من الصرع كانت تجعله يتلوى على الأرض كدودة اقتطع بعض جسدها. وكان يبلغ من شدة هذه النوبات أحيانًا أن يحسب الطبيب أنها قاضية عليه، فيبدأ رجال البلاط في إعداد معدات الجنازة والدفن. ولكن الملك كان ينجو منها في كل مرة.

ولم يكن الزمن ليقنع لفرعون بهذا القدر من المحن. فقد ابتلي في أوقات إفاقته بنوع مرضي من الأوهام تستولي عليه، فتصور له أشباحًا وأخيلة مزعجة تظل تتراقص أمام عينيه بصورها البشعة، مصدرة أصواتًا منكرة مفزعة، ثم لا تلبث أن تحدق به من كل جانب فتهدده وتتوعده، وقد تهم عليه بطعنة أو ضربة.

وما تنصرف إلا وقد هدت كيانه فتتركه كومة من الهشيم، وكانت تتراءى له أحيانًا أشباح أناس يعرفهم، فتظهر واضحة ناطقة كأنها مجسدة فعلًا. فقد يفتح الباب عن «نفرتيتي» فتدخل الحجرة وتتقدم إليه هاشة تمد إليه ذراعيها، ويقوم إليها الملك ليحتضنها، فإذا بذراعيه

تطبقان على صدره ولا أحد غيره في الحجرة. وقد تأتيه زوجه باكية منتحبة. فتجلس عند قدميه حيث يسمع عويلها ويرى ارتجاف أعطافها ويكاد يحس بحرارة جسدها، فينحني عليها وإذا به يحدق في أرض الحجرة وقد اختفى الشبح في طرفة عين.

ملأت هذه الأوهام صدر الملك برعب جديد كان يعكر عليه أوقات صحوه: أتراه قد جن وهو لا يدري؟

هذا حق واقع لا شك فيه. كيف فاته أن يدرك ذلك من قبل، وقد ولد وهو مجنون... ألا يذكر أنه وهو في السابعة من عمره كان يخيل إليه أنه المخلوق البشري الوحيد، وأنه لا يوجد فرد من نوعه في كل أنحاء الأرض؟ كان يبدو له أن كل من سواه ـ حتى أبوه وأمه ـ ليسوا غير أرواح هبطت من عالم آخر، لتخدمه ولتصور له دنيا يعيش فيها. إنه يذكر الآن جليًّا كيف استولت عليه هذه الفكرة وهو صبي في إصرار غريب لم يملك له دفعًا. فكان يتجمع تحت غطائه ليلًا، وعيناه تحدقان في الظلام، وفكره يدور بما يتصور أنه أخطر حقيقة استطاع أن ينتزعها في غفلة من هؤلاء الماكرين الملتفين حوله. ألم يكن هذا بدء الجنون؟

إذن فما كان يعتقد وهو فتى أنه أفكار سامية، وما كان يصوره له شعوره من عواطف نبيلة لم يكن سوى أخيلة الهوى. ماذا بقي له إذن مما يحبب إليه هذه الحياة التعيسة المملوءة بالآلام والأشجان؟ حتى ذخر ذكرياته الجميلة قد سلبه ولم يعترف له به.

وكان أن استولى على فرعون خاطر شرير، أخذ يشتد في صدره اضطرامًا كلما طال به عهدًا. وكان أول ما طالعه هذا الخاطر في يوم

عاصف، اشتدت رياحه حتى لكأنها طوفان متجسد من التيارات يدفع كل ما يصادفه بأيد جبارة. واتفق أن كان الملك في هذا اليوم بمحجر بالقرب من طيبة، يشرف على قطع أحجار لبعض تماثيله. وبينما هو واقف بمنعطف من الجبل، إذ سمع صوتًا مرعدًا في القمة فرفع بصره يتبين أمره، فلفحته رياح سافية أعمت عينيه. وفي لحظة أحس بسيل من الأتربة ينهار عليه من كل جانب ويخزه بسنان كالإبر فحجب عينيه بكفيه وتجمع مكانه. ولكن انهيار الرمال ما لبث أن اشتد وصحبه صوت مدو يصم الآذان؛ وأخذ الصوت يقترب، ثم إذا بريح قوية تلفح الملك فتلقيه على الأرض. وكان الصوت يزداد دنوًّا وارتفاعًا. وفجأة أحس بشيء يهفو به بسرعة خيل عادية، فلما أفاق إلى نفسه تبينه جلمودًا هائلًا ينحدر إلى سفح الجبل. لم يصب الملك بغير خدوش في ذراعه اليمنى. وأقبل «بك» ورجال البلاط يهنئونه بنجاته من الموت، فكان ينظر إليهم ذاهلًا دون أن يراهم، أحس بقلبه يدق كالمطرقة وبرأسه يغلي كالمرجل. وتملكه شعور غريب لم يكن يعرفه من قبل ـ شعور الرغبة في الهرب من الحياة، ونزوع إلى الاحتماء براحة الموت. لشد ما تمنى الملك في هذا اليوم لو سقط الحجر على رأسه فحطمه.

منذ ذلك الحين وفكرة الانتحار تنمو في صدر الملك حتى ملأت كل أقطار نفسه، وملكت عليه شعاب عقله، أصبح هذا الخاطر يرافقه في غدوه ورواحه، فإذا دجا الليل دلف معه إلى فراشه فيذود النوم عن جفونه. بدت له الحياة ناصلة تافهة لا أمل فيها يستحق العيش. فكيف وهي تطالعه في كل يوم بألم جديد وعذاب شديد...

وفي هدوء الليل، والناس هجوع والقمر ساج، كان يحلو للملك أن يجلس في شرفة حجرته وحيدًا، فينشد أبيات الشاعر القديم المجهول الاسم:

انظر: إن اسمي ممقوت، أشد من رائحة اللحم
الفاسد في أيام الصيف الحارة.
انظر: إن اسمي ممقوت، أشد من رائحة السمك
العفن، وأكثر من تل من الصفصاف مليء بالأوز.
انظر: إن اسمي ممقوت، أشد من زوجة تترامى عنها
إلى زوجها أقاويل السوء.
انظر: إن اسمي ممقوت، أشد من فتى شهم قيل عنه
لمن يكرهه إنه مزور على أبيه.
لمن أتكلم اليوم؟ الناس شرهون. وأصدقاء اليوم
ليسوا جديرين بالحب.
لمن أتكلم اليوم؟ فإن الذي يستفز غضب الرجل
الصالح بأعماله الشريرة، يعجب به الناس
ويضحكون له كلما كانت خطيئته شنيعة.
لمن أتكلم اليوم؟ إذ لا أحد يذكر الماضي، ولن
يفعل أحد الخير لمن أحسن إليه.
لمن أتكلم اليوم؟ إذ لا أحد في سلام، وفرح القلب
لا وجود له.
لمن أتكلم اليوم؟ فإني مثقل بالشقاء، والخطيئة التي
تحل بالأرض لا حد لها.

ألا مرحبًا بالموت...

إن الموت أمامي اليوم، كمثل المريض يتماثل،
وكمثل الذي ينزل إلى الحديقة بعد طول اقتعاد.
إن الموت أمامي اليوم، كرائحة زهرة السوسن، وكما
يقبع الإنسان في ظل شاطئ نهر رطب.
إن الموت أمامي اليوم، كطريق معبد، وكما يثوب
الرجل إلى زوجه الحنون.
ألا ما أهنأ الموت...

إن الذي هنالك سيتربع كإله حي، ويحاسب المذنب
على الجرم الذي اقترفه.
إن الذي هنالك سيقف في سفينة الشمس، ويتقبل
أحسن القرابين ليقدمه إلى الإله الكريم.
إن الذي هنالك سيكون رجلًا عاقلًا محفوفًا
بالتبجيل، مصليًا لـ«رع» حين يتكلم.
إن الذي هنالك ستتبرأ نفسه من خبث الأرض، ولن
تطالعه شراهة البشر وغلظتهم.
إليَّ أيها الموت الحبيب...

أسرع وانحدر بي إلى الغرب، حيث يتحد جسمي
بالأرض، وترتفع روحي لتستريح...
هذا هو النشيد المحبب إلى نفس فرعون المسكين...

الفصل الثامن

من الطبائع ما لا ينشط إلا إذا طالعه الإخفاق، على حين يضفي عليه الفوز خمولًا واستكانة. فالنجاح لديه بلوغ للأرب. أما الإخفاق فهو الدافع والمثير، يضرم نار غضبه فتحتشد له جيوش مواهبه.

كان هذا حال «بتاح موس» حين انصرف من لدن الملكة. لقد حمل طاقته جهدًا عنيفًا وهو يحاول أن يملك عنان نفسه أمامها، فلما خرج إلى الطريق انفجر مرجل غضبه، فبدا كثورة أمة طامية مجتمعة في فرد. والحق إن غضبة الكاهن كانت جبارة مرعدة، أحس بها معبد «آمون» وترددت صيحاتها في أبهائه، حتى خيل للكهنة أن رئيسهم قد أصابه مس.

وبعد أيام هدأت السورة، فخلفت وراءها عزيمة مرهفة إلى الصراع. وأحس الكاهن براحة غريبة وهو يقلب في رأسه مختلف أساليب الكيد. وكأنما الشباب قد عاوده فغدا ذلك الفتى الطموح الذي هبط طيبة منذ سنين عدة، ليبني مستقبله وليكافح العقبات التي قد تعترض طريقه.

غير أن مشكلة اليوم تختلف عنها بالأمس. فأنظمة الإمبراطورية المصرية لم تكن تمنع أي فتى مهما يتضع مولده أن يبلغ أسمى مراتب الدولة بكفايته وجده، فتمكن «بتاح موس» من أن يصبح رئيسًا لكهنة «آمون». ولكن دستور الدولة، وطبيعة الشعب، والديانة الرسمية، كانت كلها تقف حائلًا في وجه من تحدثه نفسه بالمساس بالعرش المقدس. ولم يكن غرض الكاهن اليوم سوى هذا. وما دام المتربع على العرش عدوه اللدود، فسيظل دائمًا الصخرة التي تتحطم عليها أمانيه، ما لم يتوصل بدهائه إلى أن يحل فيه ملكًا من صنعه.

ولكن كيف ينال كاهن «آمون» من هذا الصرح المتماسك من العقيدة المتأصلة؟ إنه وهو أقرب الخلق إلى الآلهة، يعرف أن الفراعنة ليسوا سوى بشر كسائر الناس. وهو يدرك حق الإدراك أنهم عرضة للأخطاء ومطية للأهواء. فإن الكهنة هم الذين أحاطوا العرش بهالة من التقدير، وها هم أولاء يعانون النكران الأليم لحسن الصنيع. إذن فليسلب كاهن «آمون» العرش ما منحه إياه أسلافه من قبل. عليه أن يظهر للناس أن فرعون قد يخطئ، وأن من واجبهم محاسبته على هذا الخطأ. بل من حقهم أن يخلعوا من لا يرضون عنهم من الملوك. وكان أن أعمل الكاهن ذهنه في الوسائل التي تمكنه من تحطيم أنبل ملك عرفه الوجود.

كانت الوسائل التي لجأ إليها «بتاح موس» فذة في نوعها، فقد قامت على فكرة لم تعرفها السياسة المصرية من قبل. كان الدستور المصري في هذا الحين هين المبنى، إلا أنه متين الأركان. عرش سام يخلص له الجميع، ووزراء وموظفون يتلقون سلطتهم من الملك،

وشعب أمين لا يعترض إلا عن طريق المحاكم المنبثة في جميع الأقاليم. الملك يحكم والشعب يطيع، لأن كلا منهما يثق في الآخر.

«الشعب يشير والملك يطيع»؛ «حكم الملوك منوط بإرادة الشعب»؛ «العرش منصوب لخدمة الأمة»... هذه هي الصيحات الخافتة التي بدأ كاهن «آمون» يسرها في آذان شعب طيبة. وهذه هي بذور الديمقراطية التي ابتكرها هذا الكاهن الماكر، وراح باسمها يمهد الأمور لتحطيم خصمه.

ولأول مرة في التاريخ عرفت مصر نظام الأحزاب. ولقد بدأ «بتاح موس» بأن عزل العرش وميز أنصاره. ثم راح يعمل على أن يكون له في عقول الشعب صورة مستقلة ما لبث أن أسماها «حزب الملك». وأخذ في الوقت نفسه يبث دعايته الأثيمة في شعب طيبة، مظهرًا نفسه في مظهر من سيخلصهم مما ستوقعهم فيه دسائس ملكة أجنبية وعجز ملك مخبول. وصار القوم يتناقشون في أمور الدولة على ضفاف النيل، وفي ظلال البيوت. فلم تلبث أن تكونت الحلقات، وتشعبت الآراء. حينئذ أدرك الكاهن أن فرصته قد سنحت. فأشاع خفية أنه قد تكون حزب يدعى «حزب آمون» يعمل على رعاية مصالح المصريين المعرضة للبوار. وأخذ دعاته يغرون القوم بالانضمام إليه.

أطلق كاهن «آمون» عجلة دسائسه تدور، ولم يبق له سوى أن يقتعد معبده في اطمئنان إلى أن تينع الثمرة فيظهر بنفسه ويقطفها. غير أن طبيعته الإدارية المحكمة، ورغبته في ألا يترك شيئًا لرحمة الظروف، تركته غير راض أن يدع الأمور تسير على هذا الوضع. فحزب «آمون»

حزب كمين. وسيضطر إلى أن يبقى كذلك مدة طويلة، إلى أن يشتد ساعده ويجتمع له من الأنصار ما يمكن للكاهن من الجهر به.

ولكن الحزب لا يستطيع أن يصل إلى السلطة، وهو لا يعتمد إلا على كهنة «آمون» والمارقين من أهل طيبة، بل يعوزه سند آخر يستطيع بواسطته أن يبلغ أغراضه بالقوة إذا لزم الأمر. ذلك أنه مهما تبلغ سطوة الرأي العام في طيبة، فالملك مستطيع أن يقضي عليها آخر الأمر بحد السلاح. فكيف يتمكن «بتاح موس» من أن يوفر لحزبه قوة تضارع قوة العرش؟ قوة تستطيع أن تضع أمانيه موضع التنفيذ؟ انطلق الكاهن يبحث وينقب.

سنحت للكاهن فرصته يوم أرسلت إليه الملكة القربان التقليدي الذي اعتادت الفراعنة تقديمه إلى الإله «آمون» في فترات موقوتة. ذلك أن حامل القربان في تلك المرة كان القائد الشاب «حور محب» الذي كان موضع إعزاز الملكة وتقديرها في هذا الحين.

وكان «حور محب» مملوءًا بالحيوية والنشاط اللذين يبلغان به حد العنف في كثير من الأحيان. وكان القوم في طيبة ـ وخاصة النساء ـ يعجبون بهذا العنف ويعتبرونه دليلًا على فتوة صاحبه وشدة شكيمته. إلا أن شخصية «حور محب» كان بها ملمس ضعف خفي عرف كاهن «آمون» أن ينفذ إليه من خلاله. ذلك أنه كان شديد الطموح إلى درجة تعميه في كثير من الأحيان عن مبادئ الإخلاص ومقتضيات الأمانة، إن كان فيهما ما يعوقه عن الوصول إلى أهدافه. ولذلك لم تكد تنقضي لحظات على مقابلة «بتاح موس» له، حتى أدرك الكاهن أنه يواجه صنوًا له يستطيع أن ينفذ إلى أدق همساته الباطنية.

بدأ كاهن «آمون» حديثه مع القائد بالإطناب في المديح له، والثناء الطيب على جليل أعماله، فراح يقول:

ـ إنني أتتبع فعالك المجيدة مغتبطًا بها أيما اغتباط أيها القائد العظيم.

فقهقه «حور محب»، وقال بصوت ينبض بغرور الفتيان:

ـ عفوًا أيها الكاهن الأكبر، فما أؤدي إلا واجبًا عليَّ نحو مصر.

أخذ الكاهن يجرب حظ «ابتسامته العذراء» مع هذا الفتى الطموح، فركبها على شفتيه، ثم راح يقول:

ـ كثيرون غيرك نسوا هذا الواجب يا «حور محب» والحق أن وجودك قد أضاء قلبي بشعاع الأمل بعد أن كدت أيأس من صلاح الحال. فيجب أن تعلم أيها القائد أنك أمل مصر في أن تستعيد سابق عزها.

ولم يكن الكاهن محتاجًا إلى أكثر من هذا القول ليذيب قلب القائد رقة وانعطافًا.. لقد دخل «حور محب» على كاهن «آمون» وهو ما فتئ منتشيًا بخمرة الانتصار، فقد قام بأهم دور ترتب عليه سقوط الكاهن. وكان «بتاح موس» يدرك هذه الروح، فما زال يستدرجها في مهارة مشعوذ حاذق، إلى أن جردها من سمها، ثم جعل ينفث فيها من معسول القول ما أحال السم ميلًا ثم حبًّا خفيفًا.

ولم يكن أعرف من الكاهن بأن خطوته التالية هي أن يبذر في صدر محدثه بذور التمرد والسخط على ما قدر له، حتى يثير فيه غريزة الطموح التي لا تلبث أن تركبه المركب الذي يريده له ـ مركب السعي الخفي إلى النهوض بنفسه فوق المستوى الذي وصل إليه.

ـ أصدقني يا «حور محب» إنك لا تجد من يحسن تقدير مواهبك فيجزل في مكافأتك على الوجه الذي تستحق. وإنه لمما يحزن نفسي حقًّا أن أراك مغمورًا وأنت أهل لأرفع منصب في الدولة. إنني أكاد أجزم أنك من نسل أسرة ملكية إذ ألمح في وجهك سمات الآلهة.

كانت مراجل الطموح قد أخذت تغلي في صدر القائد الشاب، فأخذ ينظر إلى الدنيا من منافذ شهواته، وبدأ يفسر الحقائق على ضوء أطماعه المشبوبة. وشعر أنه أصبح على أبواب تطور عظيم وهو يجيب الكاهن قائلًا:

ـ إن أبي ينتسب إلى الفرعون العظيم «أمنمحعت الأول» الذي حكم مصر قبل دخول الرعاة. ولكن...

ولكن الكاهن لم يتركه يستدرك أو يفسر بل ابتدره بقوله:

ـ أما قلت لك يا «حور محب»... إن نظري لا يخطئ يا بني. وهأنذا أقسم أمامك بأن الآلهة قد اختارتك لكي تلعب دورًا مخالفًا لما تقوم به. وسوف تثبت الأيام صدق نبوءتي.

* * *

وانصرف «حور محب» من لدن كاهن «آمون» وهو أشد ما يكون اضطرابًا وقلقًا. كانت الأماني ترتفع به حينًا حتى ليشفق على نفسه من الفرح، ثم تعتاده نوبة من الخشية والتوجس، فيمتلئ قلبه بالجزع على ما قد يسببه له طموحه من نكبات. ثم ما كنه هذه المهمة الأخرى التي اختارته الآلهة لها؟ إن كاهن «آمون» إذا تكلم عن طوايا الآلهة ورغباتها فهو يتكلم عن علم لأنه أكثر الناس صلة بها. غير أن الكاهن لم يشأ

أن يفصح عن مقصده بل تركه غارقًا في لجج الفرض والتخمين. آه لو يدرك الكاهن كم هو في حاجة إلى معرفة هذه الرغبات الإلهية، حتى يستطيع أن يستوضح طريقه على ضوئها، وأن يهيئ نفسه لتلبيتها.

وكان أن تواصلت زيارات «حور محب» السرية لكاهن «آمون» الذي صار يطالعه في كل مرة بتدبير جديد. فيومًا يدعي أنه سمع صوت «آمون» يقول له كذا وكيت، ويومًا آخر يحدثه بأنه وقع على ورقة بردية أثرية تحوي تكهنات نبي قديم، وأنها تومئ بوقوع تطور جليل الأثر في الحكم، يتم في عهد ملكة تحكم بالوصاية عن فرعون فتى. ويومًا ثالثًا يجمع الكاهن خيوط إيماءاته ومداوراته في حديث منطقي عذب يجني به ثمرة إعداده الطويل، ويدفع فريسته خطوات في السبيل المقصود، ثم يستأنف نسج حيل أخرى منمقة فيغري دميته بخطوة أخرى. وهكذا لم تنقض أشهر قليلة حتى فتن «حور محب» بسحر الكاهن وصار ألصق به من أخلص أتباعه.

وكان اليوم الحاسم حين تمت المحالفة بين رئيس الجيش ورئيس الديانة، على أن ينضم الأول إلى حزب «آمون» ومع موالاته إظهار الإخلاص لفرعون وللملكة حتى لا يدرك أحدهما من أمر مروقه شيئًا. أما الالتزام الذي يقع على عاتق «حور محب» بمقتضى هذا التحالف فهو أن يعمل على إثارة الجيش على فرعون تدريجًا، حتى إذا جاء اليوم الموعود انقلب عليه. ولم يكن ثمن هذا الالتزام سوى تنصيب «حور محب» على العرش بدلًا من فرعون المخلوع.

وقال له الكاهن وهو يحاوره:

ـ لا أظنك حينئذ ناسيًا مركز الإله «آمون» ووجوب صدارته

على كل المعبودات الأخرى غير منازع. وما أظنك كذلك حارمه خيرات المستعمرات المصرية التي صارت اليوم لا تأتينا فضلاتها إلا بتسمح من كاهن «رع».

فانطلق القائد يسرف في الوعود ويقول:

ـ ثق يا أبتاه أنني سأقتلع معابد «رع» من جذورها، فأشرد كهنتها وأصادر أملاكها. ولن تعرف مصر إلهًا غير «آمون»، ولن تعرف القوافل الآسيوية طريقًا غير الطريق الموصل إلى معابده المقدسة.

ابتسم الكاهن وقال:

ـ حسنًا يا صاحب الجلالة. وعد الملك ملك الوعود...

الفصل التاسع

أمضى الملك ليلة مضطربة لم تفارقه فيها أحلامه المزعجة. وأحس حين اعتدل في فراشه بألم شديد في صدره، فشرب جرعة ماء وبقي متكئًا يحدق في لوامع الفجر الأولى وهي تتماوج على رؤوس الأشجار. كان منظر الشروق أعظم ما يفتن الملك من مشاهد الطبيعة، وإنه ليحس بالراحة إليه حتى في عهده المضطرب هذا الذي سلب فيه كل متعة. أخذ يرنو في نوع من الرهبة والاستمتاع إلى خد الأفق وهو يتورد تدريجًا بمثل خجل العذارى يفاجأن في الخدور.

بعد برهة ستبرز الشمس مستحيية من عشيقها الأرض. ولكنه سيسجد لها ثم يطلق من فم كل مخلوق من كائناته أهازيج البشرى والترحيب. وما تلبث أن تمتلئ الشمس غرورًا وصلفًا فتصعر له خدها حتى تصليه بنارها. ولكن إلى حين. فالأرض الأبية لا تطيق الاستعباد، وتنظر الشمس ما الخبر، ثم تنزل من عرشها السامي تلتمس التوبة. إلا أن الأرض لا تزال تعرض، وحين تضيق الحيلة بالشمس،

تجثو في المغرب عند قدمي عشيقها الأرض، وقد احمرت مقلتاها وانتفختا من طول العويل...

هذه قصة حياة الشمس، فما سيرته هو؟ لقد ماتت زوجه الآسيوية منذ عام، وبعد أيام ستحتفل الأمصار بزواجه من أميرته «نفرتيتي». فهل هو خليق بهذا الزواج الجديد، أم أنه يرتكب من هذا الطريق جريمة أخرى؟ ألم يكن هو المسؤول عن وفاة زوجه الأولى؟ ألم يكن قاتلها؟ لقد كان أعلم الناس بمصدر علتها، ولكنه مع ذلك ترك الزهرة تذوي وتموت. ويحدث نفسه بأنه لم يكن في وسعه أن يفعل شيئًا. حسنًا. فلِمَ يتزوج ثانية فيكون سببًا في داء جديد ليس له عنده دواء؟

حقًّا إن «نفرتيتي» سلكت حياله مسلك الشمس مع الأرض، فأصبحت أكثر توددًا وإلحاحًا، وصارت تحبوه من مظاهر عطفها وحنانها بما لم يعهده فيها من قبل. كما أنه لا يزال على حبه القديم لها فما فترت عاطفته. ولكن ألم يكن يحسن به أن يجالد هذه النوازع جميعها فلا يجعلها تؤثر في الحقيقة التي يدركها حق الإدراك ـ تلك الحقيقة الرهيبة من أنه لم يعد يصلح لنفسه ولا يصلح لغيره؟

استقام الملك على قدميه، ولكنه ما لبث أن تهالك على الفراش، إذ شعر بأنه منحل القوى، لا تقوى رجلاه على حمل جسده النحيل. واضطرمت في صدره ثورة شديدة على نفسه وضاق بها أيما ضيق. أما لهذا الشقاء من نهاية...

استراح برهة، ثم قام متهالكًا إلى سفر على منضدة قريبة، أخذ يقرأ فيه حتى لا يدع لأفكاره المعتمة مجالًا تستبد فيه بروحه الحائرة. ولكنه لم يفهم شيئًا مما يقرأ، فأغلق السفر وأطرق. وسمع همهمة

الكهنة من بعيد وهم يرتلون نشيد الفجر للإله «رع» الصاعد في سفينة. ولكنه ظل على جموده إذ كان قد هجر الصلاة منذ عهد بعيد. وتمثلت له رؤى صباه كأنما تدعوه إليها في عتب وترحيب. ألم يكن سعيدًا حينذاك؟ ولكنه يقول لنفسه إنه كان سعيدًا لأنه كان جاهلًا. ثم يغلب على هذا التفكير هاتف خفي ينادي في أذنيه بأنه كان سعيدًا لأنه كان كاملًا، أما اليوم فهو مبتور مشوه. وتعصف به نفسه من جديد.

أتاه الخدم بطعام إفطاره فشرب كوبًا من اللبن ولم يمسس غيره. ثم ارتدى ملابسه وتوجه إلى مخدع والدته يسأل عنها إذ كانت متوعكة هابطة القوى منذ أيام. كان يعلو وجه الملكة صفرة تميل إلى البياض. ولم تكن هي الأخرى قد استراحت إلى نوم هنيء. انقبض صدر فرعون حين لاحظ بوادر الهرم تتجمع حول عيني والدته وتسلب اللون من شفتيها. وراحت تحدثه عن سفير قادم اليوم من بلاد الصومال وفي ركابه قافلة محملة بأنفس السلع، وأوصته بأن ينوب عنها في مقابلته والترحيب به. ما له وللسفراء والحكام... لقد ترك زهرة زوجته تذبل وتفنى. أفلم يكن قد ترك من قبلها زهرة أنبل وأعظم هي مصر! ولكنه طمأن والدته ووعدها خيرًا، ثم هبط إلى حديقة القصر.

بدت الحديقة لناظريه في هذا اليوم ضيقة مملة، فتركها واتخذ سمته صوب الحقول. ومر في طريقه بشوارع طيبة، فكانت لا تزال مقفرة إلا من بعض الصناع المهرولين صوب الضفة الشرقية للنهر، حيث يعملون تحت إمرة «أوتا» في بناء معبد الملكة. ولكنه وصل إلى حدود المدينة ألفى الحياة في الحقول قد سبقت

حياة العاصمة بعدة ساعات. ولم يكن الملك معروفًا من الشعب فلم يلتفت إليه أحد.

أحس الملك بجفاف في حلقه وعاوده ألم في صدره فعرج على قرية قريبة يلتمس جرعة ماء. وما إن دنا من منازلها الصغيرة المتراصة حتى هب عليه نسيم رطب يحمل في طياته رائحة طالما أحبها: رائحة الحطب المحترق تخالطها رائحة خبز الذرة الساخن. ولسبب مجهول لديه شعرت نفسه براحة لطيفة لم تعهدها منذ سنين، فوقف هنيهة يملأ صدره بهذا الشذا المحبوب. وبرزت في باب بجانبه فتاة صغيرة تحمل حطبًا فسألها شربة ماء، فاختفت برهة، ثم أحضرت له جرة أخذ يكرع منها بنهم. فلما روى ظمأه ناولها الجرة في تردد لم يغب عن الفتاة، فسألته أهو في حاجة إلى شيء آخر.

ابتسم الملك وقال لها:

ـ لقد خرجت من منزلي ولم أتناول سوى كوب من اللبن، فلما شممت رائحة خبزك شعرت بالجوع. غير أنني لا أملك دراهم، ولذا...

قاطعته الفتاة مبتسمة:

ـ لا بأس أيها المسكين. اصبر قليلًا وسآتيك برغيف.

عادت الفتاة بالرغيف، فاختطفه الملك وراح يقضمه بنهم وهو سائر إلى جوارها. والتفتت إليه الفتاة بعد لحظة وقالت:

ـ يظهر أنك لم تتناول طعامًا منذ مدة طويلة أيها الرجل الصالح.

خجل الملك من ملاحظة الفتاة فانقطع عن الأكل ثم قال:

ـ أجل يا ابنتي. إنني لم آكل منذ مدة طويلة.

وارتاحت إليه الفتاة فأخذت تحاوره:

ـ وكأني بك لم تشرب لبنًا كذلك؟

ازداد خجل الملك، فراح يؤكد لها أنه شرب لبنًا قبل أن يبرح منزله. ولكن الصبية لم تكن لتقتنع بتوكيداته وهي تراه قد أوشك على التهام الرغيف في ومضات عين، فقالت له ضاحكة:

ـ إن كنت قد شربت لبنًا فلم يكن ذلك في منزلك أيها الرجل الصالح.

أدرك الملك أن الفتاة قد اعتبرته شحاذًا محترفًا فاحمر وجهه وأطرق. وكأنما أحست الصبية بأشجانه فأخذت تخفف عنه وطأتها قائلة:

ـ إن والدي يمتلك هذا الحقل القريب. ولقد سمعته يقول إنه في حاجة إلى عامل يساعده على جمع القمح، فلا بأس أن تتقدم إليه، وسوف أخبره أنني رأيتك تعمل في حقل مجاور بنشاط وكفاية فلا يبعد أن يقبل طلبك.

أحس الملك وهو يستمع إلى الصبية بسعادة خفية ترقص في قلبه، فابتسم لها وقال:

ـ ولكنك ترين يا ابنتي أنني ضعيف لا أقوى على عمل الحقل الشاق.

ـ لا تهتم بذلك يا أبتاه. فأنت طيب القلب. وسوف أحضر إليك كل يوم أؤازرك في عملك.

وأشارت الصبية إلى رجل متكئ إلى جذع نخلة فهمست في أذنه قائلة:

ـ هذا هو أبي. فكر فيما قلت لك وعد إليه بعد حين فسأكون في انتظارك.

ثم شدت على يده في حرارة وانطلقت تعدو صوب أبيها.

وقف الملك واجمًا وقد اغرورقت عيناه بالدموع. لقد ولد فيه عطف هذه الفتاة الطهور شعورًا بالمحبة والرضا، فاض بهما قلبه حتى لم يعد قادرًا على احتمال تفجر سيلهما المطَّرد. كأن ينابيع من الحب والغبطة قد انبثقت فجأة في أحشائه، فغمرته بفيض من السعادة لم يعرفه منذ سنين. لقد أشفقت عليه هذه الصبية وهي لا تعرفه، وأحبته دون أن تدري من أمره شيئًا. ها هي صبية كالزهرة البيضاء لم تجد فيه هذا الغول البشع الذي يراه في نفسه، بل لقد أروته وأطعمته ثم حاولت بعد ذلك أن تشاركه أعباءه. ما أسعده...

استولى على فرعون شعور غريب لم يدرك كنهه. كأنما كان نائمًا واستيقظ وكأن العالم المنبسط أمامه الآن، هو غير العالم الذي عاش فيه منذ لحظات حين كان غارقًا في أحلامه القاتمة. وأحس برأسه يدور كالطاحون، فظل واقفًا لا يتحرك وهو يحدق في غير شيء. وهب عليه نسيم رطب صافح جبهته المتقدة في رفق فصحا من غشيته، وبدأ يسير في ظلال الدوح المتمايلة. وأحس بالتعب يعاوده فتوجه إلى ساقية وجلس في ظلها، ثم أسند ظهره إلى جدارها وأغمض عينيه.

مضت لحظات والملك على حاله لا يتحرك. وأخيرًا اعتدل وفتح عينيه ولكنه لم يكن يدرك ما يبصر، فقد كان ما برح يتابع أفكاره المتلاحقة. ثم بدأ يتأمل المشهد المعروض أمامه، فانتقل ببصره

من الساقية الخربة إلى الغدير الملتف حولها إلى شجرة الجميز الحانية فوقها. ورأى عن يمينه دجاجة رقطاء تمشي بحذر ووجل فتتقدم برجل ثم ترفع الأخرى، فلا تخطو بها حتى توجه أذنها صوب الطريق تتسمع الخطر. وظل يرقب حركاتها العنيفة المفاجئة ساعة، ثم أجفل فجأة إذ هبط عليه شعور غريب.

لم يكن الملك قد أتى إلى هذه البقعة من قبل. هذا أمر يستطيع أن يجزم به من غير تردد. ولكنه أحس مع ذلك إحساسًا صادقًا بأنه قد سبق أن وجد في هذا المكان قبل اليوم. وخيل إليه أنه يذكر سائر معالمه بكل ما تحوي من تفاصيل. حتى هذه الدجاجة الوجلى التي تقدم رجلًا وتثني الأخرى، لم تنقص تلك الصورة التي حوتها ذاكرته عن هذا المشهد. ولكن عجبه لم يقف عند هذا الحد. فقد بدأ يشعر أنه قد وجد فعلًا في هذه البقعة. ولكن في زمن سحيق متناءٍ في القدم. وخيل إليه أنه يستطيع أن يتميز بعض الذكريات الغامضة الهفَّافة تهبط عليه من هذا الزمن الخارج عن نطاق حياته الراهنة. ولكن الذي سرب إليه الرعب أن إدراكه لهذه الذكرى لم يكن مقصورًا على المكان فحسب، بل تعداه إلى الملابسات والمشاعر. فهو حين أتى هذا المكان للمرة الأولى كان يحس بمثل ما يحس به اليوم، وكانت تحيط به تلك الملابسات عينها، وأنه جلس مثل جلسته الراهنة واستند إلى ذلك الجدار الخرب نفسه. فلم يكن شعور الملك كمثل شعور من يعود إلى مكان زاره من قبل، بل لقد أحس بأنه يكرر أدق تكرير حالة تامة التفاصيل والملابسات كممثل يقوم بدوره مرتين.

وحينئذ شعر الملك أنه لم يكن حرًّا في تصرفاته هذا اليوم، وأنه

لم يأت إلى هذا المكان لمجرد المصادفة، بل كان مقودًا إليه بإرادة خارجية لا يملك لها دفعًا. وغمرته رهبة خفية إذ شعر بأن ثمة روحًا قدسية تهيمن على المكان فتتجلى في أوراق الشجر الجافة، وفي ماء الجدول، وفي كل جسم وذرة تقع عليها عيناه. بل لقد هُيئ إليه أن كل شيء يتكلم حوله بلغة مفهومة يستطيع إدراكها.

وفجأة شعر بطنين مدوٍّ يملأ آذانه فلم يعد يسمع شيئًا. وازداد الطنين فأصبح صفيرًا مزعجًا اضطر معه الملك إلى أن يضع أصابعه في أذنيه فما انقطع أو فتر. وشعر بغثاء يتصاعد من جوفه فيخمش حنجرته ويجفف لعابه، حتى صار حلقه قطعة من خشب. وازداد تصبب العرق من جبهته وشعر بأن دمه يضطرم وأنه يندفع في عروقه بسرعة خارقة.

ولم يكن ما أصاب جسده بغير أثر في تفكيره. فقد كانت الخواطر تتوارد في رأسه بسرعة عنيفة، فلا تبقى في الوعي سوى لمحة خاطفة، ثم تترك مكانها لغيرها من السوانح وهكذا. ولم تكن بين هذه الخواطر رابطة ما، بل كانت كحديث زمرة من الناس يتكلم كل منهم في موضوع مستقل، ولا يجيب أحد منهم على أحد: «هذه الشجرة قد تقع في أية لحظة»؛ «ما معنى كلمة استكانة؟»؛ «إن لـ«سمنكرع» طريقة غريبة في الحديث»؛ «أيها الناس لعمري أنتم منافقون منافقون»؛ «ما أشهى الخبز الذي أكلته»؛ وهكذا... وخيل للملك أنه لو استمر تفكيره على هذا النحو مدة أخرى ليفقدن رشاده ولا يعودن إليه عقله. فحاول أن يتشبث بإحدى خواطره، وأن يعمد إلى استبقائها في وعيه فترة وإن قصيرة فلم ينجح. إذ كانت الخاطرة تفلت منه تاركة وراءها

غيرها ثم غيرها لا هوادة ولا رفق. امتلأ الملك جزعًا ووقع في وهمه أنها نهاية العالم...

بعد برهة انقطع الطنين وعاد إلى الملك سمعه. ومع ذلك ظلت الخواطر تطَّرد في واعيته بتلك السرعة والتفكك. ولكنه بعد قليل اكتشف اكتشافًا مدهشًا سُرَّ له. وجد أن هذه الصور التي بدت له أولًا بغير رابطة ولا انسجام، يستطيع أن يدرك بينها صلة جوهرية عميقة تجمعها في أساس مشترك. كأنما هذه الخواطر المتباينة هي ألوان الدنيا بأسرها، وكأنه عرف كيف يجردها من ظواهرها ليستبين فيها وحدة عنصرية لم يدركها في ماضي حياته. ظهر لبصيرته خيط واحد يصل كل معاني العالم المتنافرة. وأدرك أن هذا الخيط الواحد هو سر الوجود الكامن في كل مخلوق مهما يختلف مظهره.

لم تلبث الخواطر بدورها أن خفت سرعتها، ثم انقطعت أخيرًا مخلفة وراءها سكونًا شاملًا وفراغًا مطلقًا. وشعر الملك أنه لم يعد يفكر في شيء على الإطلاق، فأسند رأسه إلى جدار الساقية وأغمض عينيه.

أحس الملك بقوة خفية تدفعه إلى النهوض فاستوى على قدميه. ثم شعر بأنه مقود بإرادة خارجية توجهه إلى حافة الغدير، فأطاعها وجلس على الشاطئ مترقبًا. لم يكن خائفًا في ذلك الحين، فقد اطمأن إلى هذه الإرادة وأحبها فألقى إليها عنانه، متلهفًا لتلبية ما تأمره به.. وفجأة أحس بأنه سيوحى إليه بعد لحظات بإجابة ما. ووجد نظره مثبتًا في ماء الغدير. فجلس ينتظر.

لم يكن ثمة شيء غريب في مجرى الجدول. ولكنه بعد حين

رأى عودًا من القش يجرفه التيار، ثم توضحت فوقه جرادة دقيقة خضراء. بدا على الجرادة أنها تريد الوصول إلى الشاطئ، فأخذت تقوم بمحاولات متكررة كانت تغير من اتجاه العود، دون أن تحول بينه وبين مجاراة التيار. لشد ما اجتهدت في الجدف بأرجلها لتصل إلى وجهة تريدها، فما حفل بها الماء الجاري، بل يشدها في ركابه. وأسقط في يد الجرادة فحاولت التعلق بأعواد العشب النامية على جانبي الجدول. هذا يومئ إليها فتمسك به كأن فيه نجاتها، وذلك يبتسم لها فتسرع إليه، وثالث يغريها بمعسول الأماني فتجد في طلبه. وكانت في كل هذه المحاولات تجتهد في مغالبة التيار المتدفق، ولكنه يزجيها في طريقه فما يأبه بما تبديه. عجبًا! ألا تستطيع كل هذه الأعشاب المتكاثفة أن تنقذها من جبروت هذا التيار؟

وأخيرًا يئست الجرادة فأمسكت عن المقاومة، وسلمت أمرها إلى التيار القوي الجبار، مترقبة حظها في استكانة. يا للدهشة! هذا التيار الذي كانت تقاومه بكل قواها هو الذي أوصلها أخيرًا إلى بر السلامة، دون أن يتطلب منها جهدًا ما سوى إلقائها قيادها له. لم ينفعها جميع ما توسلت به من شعب. ولكن هذا التيار الواحد الأحد، الساري بين الشطآن كشعاع الشمس، هو الذي كتب لها النجاة. لطالما حاولت نكران جبروته والهزء بسيله الحيوي الدافق، فلجأت إلى من هم دونه. فما أنقذوها على كثرتهم. ولشد ما خاصمت نفسها وهي تجالده وتقارعه، فلما استسلمت له انحدرت بسلام في مسربها المقدور، وصالحت نفسها بإخلادها إليه.

فطن الملك فبكى بكاء غزيرًا وقلبه يطفح بالبشر.

وحين غادر مجلسه من الشاطئ ميممًا ناحية القصر بحث في حنايا صدره عن مصادر تعاسته فلم يجد لها أثرًا.

لقد عاد «أمير الأحلام» إلى المدينة من جديد، ولكنه في هذه المرة كان قلبه حاويًا لسر الله، الإله الواحد الأحد الذي لا شريك له من تلك الأوهام البشرية النامية كالعشب الطفيلي على شطآن غدير الحياة.

الفصل العاشر

جلس الوزير «رع موس» في قاعة العرش ينتظر مقدم فرعون. ولكنه لم يكد يستند برأسه إلى ظهر المقعد حتى هبط عليه النعاس، فلم يكن الوزير معتادًا أن يحضر إلى القصر في مثل هذا الوقت المبكر حين كانت الملكة «تي» تباشر تكاليف الحكم، ولكن الملك حين تولى بنفسه مقاليد المملكة فرض على موظفيه نظامًا صارمًا دقيقًا كان أول من أخذ نفسه به. ولم يكن يقنع في كل عمل يباشره بما دون الكمال، كما كان يتطلب من معاونيه أن يسموا بوظائفهم إلى هذه المرتبة. ولهذا اضطر الوزير إلى أن يجهد نفسه إجهادًا لا عهد له به، حتى يرتفع بمعرفته لأمور البلاد إلى الدرجة التي ترضي رغبات الملك. وما كان فرعون يقنع بعرض عام لسياسة الدولة، بل لا بد من أن يعرف أدق التفاصيل لما يعرض عليه من مسائل قبل أن يبت فيها برأي. لهذا كانت ساعات عمل الملك تمتد أحيانًا إلى ما بعد منتصف الليل، فيراه رجال البلاط منكبًّا على أوراقه لا يني ولا يكل.

كان التغير الذي أصاب الملك بعد الوحي الذي نزل عليه وهو على شاطئ الغدير، تغيرًا مفاجئًا دهش له القريب والغريب. هذا الفتى الخامل الذي كان يقضي أيامه منطويًا على نفسه فلا يقع عليه بصر إنسان، رجع إلى قصره ذات يوم، فإذا به شعلة من نشاط تعتمد على إرادة من حديد، لقد انقضى عهد الحيرة والاضطراب إلى غير رجعة. وانقضى كذلك عهد تلك الأوهام التي كانت تصور للملك بأنه لم يخلق للحكم. لقد أرادت الأقدار أن يولد ابنًا لفرعون، فعليه أن يلقي بنفسه في تيار الحكمة الإلهية دون مناقشة أو معارضة. إن أنانيته القديمة هي التي جعلته يحاول أن يغلب إرادته على إرادة الأقدار.

دهشت الملكة لما رأته من تبدل حال فرعون، ولكنها هونت من أمره. وحسبته بعض نزوات ابنها التي ألفتها منه. ألم يأتها ذات يوم يفضي إليها في هدوء بأنه سيعتزل الملك؟ أو لم تره يطلع عليها في بعض الأيام مرتديًا مسوح الكهنة، ثم إذا به مثال ينحت الصخور يومًا آخر؟ وهي بعد ذلك تراه عربيدًا يقرع الكأس بالكأس هو والأمير «تيتو»... إنه اليوم يقول إنه سيحكم. فلتتركه يحكم ما طالت به نزوته، فقد يأتيها في الغد قائلًا إنه سيزاول تجارة العطور. لقد انقضى عهد وصايتها عليه منذ عام، ولكنه تركها مع ذلك تحكم بنفسها دون أن تحدثه نفسه بانتزاع السلطة من يديها، بل كان يهرب من القيام بأبسط المهمات التي تكلها إليه فهل تصدق أن من هذا حاله يستطيع الحكم حقًّا أو يرغب فيه رغبة صادقة؟

ولكن سرعان ما أدركت الملكة خطأ تصورها، وعرفت أن الملك

يعي ما يقول. كانت الملكة مريضة حين بدأ يباشر سلطته بنفسه، فلما أبلت من علتها رغبت أن تعود إلى مزاولة مهامها السالفة، وأن تعامله باعتباره فتى يافعًا لا بأس بأن تشركه معها بين فينة وأخرى، لتطلعه على أصول فن الحكم. ولكنها لم تتصور لحظة أن ابنها سيخلفها في الحكم إلا بعد وفاتها. ودخلت عليه ذات مرة في حجرة العرش فوجدته يناقش وزيره في بعض المسائل. وحاولت الملكة أن تتخذ هيئة صاحب الأمر وأن تستقل بتوجيه الحديث، فلم تجد من الوزير مطاوعة على مجاراتها فيما أرادت، بل ظل يوجه كلامه إلى الملك وكأنه لا يشعر بوجودها. أما الملك فقد كان يقطع حديثه إذا تكلمت الملكة احترامًا لها، ولكنه كان يصله على الأثر، ويستغرق في مناقشاته عودًا على بدء. ومرة حاولت أن تدلي برأيها في موضوع أثاره الوزير فما كان من الملك إلا أن نظر إليها مبتسمًا وقال:

ـ أظنك متعبة يا أماه. وإنه ليسرني كثيرًا ألا تتهاوني بصحتك فأخلدي إلى الراحة مطمئنة إلى أنني قد عقدت العزم على أن أحمل عنك كل الأعباء.

وكذلك كلما أرادت الملكة أن تظهر بنفسها في ميدان النشاط السياسي، ألزمها فرعون حدها بأدب ورفق بالغين، ولكنهما يبينان عن عزيمة جبارة لا تملك لها الملكة دفعًا. ولم تكن الملكة وحدها هي التي تلين لعزيمة فرعون، بل إن سحر إرادته النافذة شمل كل عظماء المملكة، فلم يجرؤ أحد على معصية أمره. كان يأمر وهو يبتسم، ولكنه يشرف على تنفيذ ما أمر به بإرادة من نار. ولم تكن تخفى عليه خافية فيجوز عليه التمويه أو الادعاء. وهو من بعد هذا كله فتى

نحيل رقيق الصحة، لم يبلغ منتصف العقد الثالث من عمره. وحين أدركت الملكة ألا فائدة من مناهضته في حقه الشرعي، عرفت كيف ترتد في سكون لكي تقوم بدور الوالدة النصوح. ولم يجهل الملك مقدار ما تجشمته والدته في سبيل ذلك من نكران نفس، وهي التي درجت على حب السيطرة منذ تزوجت أباه. لهذا دأب دائمًا على أن يستشيرها في معظم الأمور، لكي يصور لها أنها ما برحت ذات رأي في توجيه دفة الحكم.

كان أول ما فعله الملك حين عاد من جلسته بشاطئ الغدير أن أرسل في طلب صحبه الأقدمين. ولما دخل «سمنكرع» القصر كانت أفكاره تلعب به كل ملعب، فقد انقطع عن زيارة الملك منذ مدة طويلة، ولم يستطع أن يصل بفكره إلى علة استدعائه بهذه السرعة. إن الأمر خطير إذن.

وفي ردهة القصر وجد صديقه «مري رع» الذي كان يرتاح إليه الملك ارتياحه لـ«سمنكرع» في العهد القديم؛ وكان «مري رع» ابنًا لأحد عظماء كهنة المعبود «رع» وهو فتى حاد الذكاء واسع الاطلاع، أرسله رئيس كهنة «رع» إلى الملكة «تي» وسألها أن تقبله في البلاط الملكي حتى يخادن ولي العهد، فيعلمه حب الإله «رع»، ويبعده عن تأثير كهنة «آمون».

ولقد دهش «سمنكرع» لرؤية «مري رع» فقد كان مثله من المغضوب عليهم في العهد الأخير. وأقبل عليه وقد خالجه نذير سوء يسأله:

ـ ما الأمر يا «مري رع»؟

فهز الصديق رأسه وقال:

ـ لست أدري يا «سمنكرع»، فقد أرسل إليَّ فرعون يطلبني ولا أعلم السبب.

ـ أتظن الملك قد أصيب بسوء، لقد انتهت إليَّ في الأيام الأخيرة إشاعات كثيرة عن ضعف صحته وتفاقم علة صدره.

وحين أهل عليهما الملك ورأيا بسمته التليدة تضيء وجهه، وذلك السحر الخفي الذي اعتادا أن يلمحاه في عينيه، خر كلاهما ساجدين، ثم هرعا إليه يعانقانه، يقبلان يديه. هذا هو حبيبهما السالف قد عاد إليهما. وكان الملك أشد فرحًا منهما، فظلت الدموع تسح من عينيه دون أن يستطيع لها كفًّا. وجرى بين ثلاثتهم حديث طويل إلى أن بدأ بقية صحب الملك يتقاطرون على ردهة القصر، فحضر «بك» وحضر النبيل «تيتو» وشاب يُدعى «ماهو» كان الملك يثق بإخلاصه ثقة عمياء فعينه رئيسًا لشرطته، وحضر كثيرون غيرهم ومن بينهم... «حور محب» قائد الجيش الأعلى!

أطلع الملك صحبه عن سبب دعوته إياهم، وشرح لهم بقدر ما استطاع الرسالة التي أوحى له بها والده العظيم. ثم أنبأهم بأنه قد اختارهم رسلًا لنشر تلك الحقيقة الجديدة. قال لهم:

ـ أيها الأصدقاء. إن الحقيقة الأولى أصدق الحقائق. وإن «رع» الذي تجلى لي اليوم في هيئة «آتون» هو أقدم آلهة مصر. فهو الإله الحق لأنه وجد منذ الأزل. ولكننا نرى اليوم عبادة «آمون» قد عدت على الدين الصحيح واغتصب كهنته مركز «رع» الممتاز لمعبودهم «آمون»، حتى صيروه على مدى الأحقاب المعبود

الرسمي للدولة. ونحن جميعًا نعرف الأساس الذي تقوم عليه عبادة «آمون». إنه الغش، والكذب، والدس في الخفاء، والتدلي بالخواص الإلهية المقدسة إلى مرتبة السلع يتاجر بها الكهان. وبهذا أخمدوا الوازع الديني الذي هو أساس نهضة الشعوب، إذ وجد الناس أنهم يستطيعون شراء سلامتهم في الآخرة بالنقود. ولم يقنع كهنة «آمون» بكل هذه الشرور بل اجترأوا إلى عهد قريب على التدخل في سياسة الدولة، فكانوا يحكمون إلى جانب فرعون.

كان الملك يزداد حماسة وحدة كلما طال به الكلام، فخرجت ألفاظه كالسهام تبحث عن فرائسها. ولكنه حين وصل إلى هذا الحد، صمت برهة ثم دوى صوته كالرعد في أنحاء الردهة إذ صاح يقول:

ـ أيها الإخوان، هذا الحال يجب أن يقف عند حد. فكهنة «آمون» ليسوا أقوى منا. وإني لهم ند شديد الضرب عنيد الصراع. وإن صيحتي التي أشيعكم بها هي أن ثوروا وحطموا. ثوروا على هؤلاء الكهان الأشرار، وحطموا مفاسدهم.

ولم تتبدد أصداء كلمات الملك من مسامع صحبه حتى انطلقوا في الأرض يبشرون الشعب بحماسة متقدة. فلم تنقض أيام قلائل حتى كانت مصر بأسرها تردد صيحة فرعون. أما «حور محب» فقد انطلق إلى أستاذه كاهن «آمون» يبلغه ما حدث.

كان نذير إعلان الحرب بين فرعون وبين كهنة «آمون» هذا المرسوم الذي أصدره يوم باشر مهام الحكم فمنع بمقتضاه الكهنة من التدخل في سياسة الدولة، وفرض لكل من ثبت عليه منهم أنه قام

بأي نوع من النشاط السياسي عقوبة مزدوجة هي الحبس والتجريد من الكهانة.

أما أثر هذا المرسوم في رئيس كهنة «آمون» فقد كان الصمت التام. لم يرفع هو ولا أحد من أتباعه صوتًا باعتراض أو احتجاج. ففرح الملك واعتقد أن ضربته نفذت إلى الصميم. أما الملكة «تي» فقد توجست خيفة وأدركت أن كاهن «آمون» لا بد مبيت أمرًا.

وسرعان ما ظهرت نية «بتاح موس»، فقد وصل إلى علم أعوان الملك المخلصين أن كاهن «آمون» بدأ يلعب في الخفاء، وأنه يحاول أن يشتري ذمة كثير من كبار الموظفين. ولم يكن الكاهن ينقصه المال لتحقيق هذا الغرض، فقد كانت أوقاف المعبود «آمون» التي أرصدها له الفراعنة السابقون من الكثرة والاتساع، بحيث تستطيع أن تمول مملكة بعيدة الأطراف. فإذا تمكن الكاهن من ضم كبار رجال الدولة إلى حزبه، أصبحت سلطة الملك قائمة على أساس من الرمال المنهارة.

أحس الملك بأن الأمر بات خطيرًا، وأنه يتطلب العمل السريع. ولكنه ظل مع ذلك مترددًا بعض الوقت. فهو من جهة لم يكن يستطيع أن يضمن إخلاص سائر موظفي الدولة المنبثين في عرض المملكة، ومن جهة أخرى أدرك أن العلاج الحاسم الذي يجتث هذا الخطر من جذوره، قد ينبني عليه رد فعل سيئ لن يتأخر كاهن «آمون» عن التفنن في استغلاله. وكان أن ساور فرعون اضطراب وحيرة. فيومًا يعقد العزم على وجوب البدار، ويومًا آخر تتغلب عليه حكمة مستشاريه الكهول، فيتراجع ويفضل التريث.

ولكنه في إحدى الأمسيات، إذ كان يصلي منفردًا في معبد القصر مناجيًا ذلك الروح الجميل الذي أخذ شعوره به يزداد على كر الأيام، خيل إليه أنه يسمع همهمة غامضة لا يعرف لها مصدرًا. لم يكن الصوت ذا مقاطع كما يكون الأمر في لهجة الكلام، ولكنه استمر في طبقة واحدة كطنين الذباب. ولم يجز بخاطر الملك في ذلك الحين أن ثمة روحًا يخاطبه، بل كل ما شعر به هو أن تأملاته وكثرة تعبده قد ارتفعا به إلى أجواء روحية أسمى من حياة الأرض، وأن هذا الطنين الذي سمعه من قبل وهو بمنعطف الغدير، لا يعدو أن يكون الأداة المحققة لهذا السمو الروحي أو الظاهرة المادية له. إنه يصم أذنيه عن عالمه الأرضي، ويفتح قلبه لاستقبال أصداء نورانية. وحين انقطع الصوت أحس فرعون بأنه قد انمحى في عناصر الكون، وأنه يستطيع أن يتوضح سر كل الكائنات، لأنه مندمج فيها. وكان من أثر هذه الوحدة مع الكون الأعلى أن تيسرت لناظريه الأمور، إذ بات مستطيعًا أن يرقب كيف تتحكم فيها القوانين الإلهية، وكيف تصرفها وفقًا للسنن الثابتة التي تحكم الكون.

كانت نتيجة هذه التجربة الروحية أن شعر الملك بأن عليه في مستأنف حياته الإقلال من تعويله على تفكيره الخاص، واللجوء إلى هذا الكائن السامي كلما طالعته مشكلة خطيرة تتطلب حلًّا ناجحًا. أما النتيجة المادية لهذه التجربة، فقد تجلت في المرسوم الجريء الذي دهشت له مصر، حين عرفت في صباح أحد الأيام بما أمر به الملك من تحويل ثلاثة أرباع أوقاف المعبود «آمون» لخدمة الإله الجديد «آتون». صعق «بتاح موس» لهذا الإجراء الذي لم يكن يتوقعه

من أكثر الفراعنة جرأة، فكيف بهذا الفتى المريض.. وأدرك كاهن «آمون» أول مرة أنه أمام خصم شديد البطش صلب الإرادة. وزاد في خوفه أن الملك لم يكن من نوع الرجال الذين اعتاد مقارعتهم والتغلب عليهم. فهو ليس كوالدته الملكة «تي»، ولا كمن سبقه من الفراعنة، ولعله لا صنو له فيمن يعرف الكاهن من الناس. فهو قد طرح كل الأساليب السياسية العتيقة التي ينبغ فيها كاهن «آمون»، وجاء بسياسة فذة لم تعتدها مصر من قبل. فاحترام التقاليد كان أول مبدأ سياسي واجتماعي واجب الاتباع، أما الملك الحالي فلم يكن يهمه تقليد ولا يقف في طريقه وضع عتيق. كان ثائرًا على كل شيء، فتأتي قراراته قاطعة كحد السيف.

* * *

لم يطل انتظار الوزير «رع موس» في حجرة العرش، إذ ما لبث أن صحا من غفوته فزعًا على صوت باب الحجرة وهو يفتح فجأة، والملك يتقدم من خلاله في خفته ونشاطه اللذين أصبحا حديث المجالس في طيبة. والحق أن الملك كان يبدو للناظر العابر كتلة من المتناقضات. فقد كان يُرى وهو يصلي في المعبد وقد استحال جسمًا متحجرًا مستغرقًا لا ينبض. فإذا ما نزل إلى ميدان عمله اليومي أحسه موظفو الدولة كأنه إعصار سريع الحركة، يظهر في كل مكان ويباشر كل أمر. ولقد يُرى في ضاحية الكرنك يشرف على معبده، فإذا به بعد لحظات متربع عرشه بالقصر الملكي، يناقش وزيرًا أو يقابل سفيرًا، ثم إذا به يُشاهد قبل انتصاف النهار في دار الحكومة ينتقل من مصلحة إلى أخرى، والأعين ترمقه في ذهول. ولقد راجت

الإشاعات في طيبة بأن الملك لا ينام إلا ساعات ثلاثًا وأنه يقضي أحيانًا أربعة أيام في عمل متواصل لا يذوق في خلالها طعم الكرى. وأصبح الملك على مرِّ الأيام أسطورة جميلة يتناقلها الشعب بإعجاب ودهشة، فنافس بذلك جده العظيم «تحتمس الثالث».

حيا الملك وزيره واستفسره عن حاله ثم ابتدره سائلًا:

ـ هل حضر كاهن «رع» الأكبر من منف؟

ـ لقد وصل مساء أمس يا مولاي وهو الآن بالمعبد. ولكن يا صاحب...

قاطعه الملك مبتسمًا:

ـ لكن، لكن، لكن.. لم هذه الخشية يا «رع موس»؟ إن العالم يسير باطِّراد ولم أر «لكن» هذه تعترض فلكه يومًا ما. إنك تحب تعقيد الأمور. ولعمري إنها تتعقد حقًّا إن سمحنا لـ«لكن» هذه بأن تطل علينا برأسها كل حين.

أطرق الوزير حينًا ثم رفع رأسه قائلًا:

ـ أنت شاب يا صاحب الجلالة وأنا كهل. ولقد علمتني التجارب يا مولاي أن الرجال الذين يصلون إلى أحسن النتائج، هم الذين يعرفون كيف يلقحون حماسة شبابهم بحكمة الشيوخ.

انطلق الملك ضاحكًا كبرعم يتفتح للندى وقال:

ـ بودي يا «رع موس» لو لقحت أنت حكمة شيخوختك مرة بحماسة الشباب. إن الحماسة يا عزيزي «موس» هي الإيمان، والإيمان ينتصر في كل الأحيان. فالإنسان وحده هو الذي يشيخ. أما الدنيا فهي على الدوام فتية نضرة لا يوافقها ما تدعوه بحكمة

الشيوخ. فأنا إذا شعرت يومًا بأعراض «حكمة الشيوخ» هذه، فسأدرك من فوري أنني بدأت أفقد صلتي بالحياة.

كان الوزير يدرك أنه لا طاقة له بمحاجاة الملك في رأي يذود عنه. ثم إنه لم يكن يرتاح إلى مثل هذا الجدل، الذي كان يزعزع مقاييس الحياة التي درج عليها، ويظهر حكمة تجاربه التي اكتسبها على مر السنين بمظهر القصور والتفاهة. فالشيخ لا يلذه أكثر من أن يدهش الفتيان ببارع القول، وأن يفتنهم بما يكشف لهم من أسرار الحياة. وقد حسب الوزير أنه سيجد في الملك الشاب مرتعًا خصبًا لنصائحه وحكمه، فإذا بالآية تنعكس، فينقلب الملك معلمًا والوزير تلميذًا يستمع.

ابتسم الوزير لمليكه وقال:

ـ لن أسمح لنفسي بمخالفة مولاي يوم عرسه.

قطب الملك وجهه، وجال في الحجرة جولتين ثم تبوأ العرش وقال:

ـ آه لو أنكم وافقتموني على رأيي في أن يقوم رئيس كهنة «رع» وحده بمراسم الاحتفال... إنني أخون نفسي إذ أسمح بأن يشترك في تزويجي كاهن إله زائف. لقد صرت أبغض هذا المعبود «آمون» حتى أصبح اسمي نفسه ثقيلًا على سمعي لأنني أنتسب به إليه، وأخشى أن أبغض نفسي من أجله.

والتفت الملك إلى وزيره سائلًا:

ـ أتعرف يا «رع موس» لماذا أسماني أبي «آمون حتب» مع أنني أنتسب بمولدي إلى الإله «رع» لا إلى «آمون»؟

ـ أنت لا تدرك يا مولاي مدى سلطة كهنة «آمون» ولا عظم نفوذهم. إن والدك المجيد لم يكن يستطيع أن يسميك بغير هذا الاسم، كما لم يستطع والده من قبل أن يسميه بغيره. وأنت يا صاحب الجلالة قد جئت أمرًا عظيم الخطر حين صببت الحرب على كاهن «آمون»، وحين أبيت إلا أن يشترك رئيس كهنة «رع» في عقد قرانك اليوم. هل نسيت يا مولاي أن عاصمة ملكك هي طيبة موطن الإله «آمون» ومعبودها الخاص، لا منف موطن الإله «رع»؟

أطرق الملك وقال وهو يعض أنيابه:

ـ كلا يا «رع موس» لم أنس ذلك، إن هذه الحقيقة شوكة في جنبي وقيد في يدي.

* * *

وقف الملك تحت الخميلة الفرعونية، وإلى جانبه عروسه الفاتنة «نفرتيتي» يعرضان موكب الزفاف الملكي. وكانت طيبة قد تجاوبت فيها الأغاريد فرحًا بملكها، فاحتشد أهلوها يهللون ويضحكون حول القيان والراقصات، إلى أن بدأ الموكب الملكي في التحرك، فكف الناس عن الصخب، ووقفوا مبهوري الأنفاس محملقي الأعين. مرت الجنود بثيابهم الملتمعة، وفي إثرهم العربات الملكية المشدودة إلى أكرم خيول آسيا، وأعقبتها مواكب الأزهار ترقص من حولها الغواني الفاتنات. كل هذا في نظام بديع لم يَشبه ما يعكر صفوه. ولكن حين مرت محفة الإله «آمون» تحمل صنم المعبود المقدس، ومن ورائها «بتاح موس» على رأس كهنته المتشحين بالسواد، وقع حادث انعقدت

له ألسنة الناس دهشة. ذلك أنه كان مشدودًا إلى محفة «آمون» عبد آسيوي موثق بالحبال، هو الفدية التي ستقدم إلى المعبود شكرًا له على هذا اليوم السعيد.

وكان قربان هذا اليوم فتى أشقر مفتول العضلات، يسير خافض الرأس مثقل الخطى. ولم يكن القوم يشفقون عليه أو يرثون لحاله، بل كانوا يصيحون ويهللون في وجهه، وكأنهم يحسبونه سعيد الحظ لما سيناله من شرف التفدية بنفسه على مذبح الإله.

استمر قربان «آمون» سائرًا في خضوع وهو يتأمل بأعين زائغة معالم الأفراح الملكية، فيرتد بصره حسيرًا حين يدرك أنه يسير في موكب جنازته. فلما حاذى خميلة فرعون رفع وجهه فإذا به مخضل بالدموع. وفجأة جذب الأسير وثاقه فقطعه وأفلت من محفة «آمون»، ثم جرى صوب الملك. فلما دنا منه انبطح على وجهه ساجدًا وفرائصه ترتعد من فرط الرعب. جرى كل هذا في لمح البصر فما استطاع أحد أن يفعل شيئًا، بل وقف الجميع يحدقون في دهشة. وحاول بعض حرس الملك أن يتقدم من الأسير، فأشار إليهم فرعون إشارة ردتهم إلى أماكنهم.

رفع الأسير رأسه ونظر حوله بوجل، فلما لم يجد من يتعقبه توجه ببصره إلى الملك والدموع تنهمر من عينيه في سكون. أما الملك فقد جلس مكانه لا يبدي حركة، بل أخذ يحدج الأسير وهو مقطب، فلم يلتفت حتى إلى وزيره إذ انحنى عليه يسر في أذنيه كلامًا خافتًا. وفي وسط هذا الهدوء الشامل ارتفع صوت الأسير المتوسل قائلًا:

ـ ماذا جنيت يا مولاي حتى يذبحني الكهنة الذين خدمتهم بإخلاص...

حين سمع الأسير صوته يتردد في جوف السكون المطبق، تملكه الرعب إذ خيل إليه أنه هبط إلى عالم غريب لا يفهمه ساكنوه. ولكنه استأذن بعد برهة قائلًا:

ـ لقد كنت أرجو أن تنتهي مدة أسري بعد عام بمقتضى القانون الجديد الذي أصدرته جلالتك، ففرحت ودعوت لمولاي. وكنت كلما تصورت فرح زوجي وعيالي بلقائي حين أعود إليهم بعد الغياب، أكاد أصرخ من فرط السعادة. ولكنهم يريدون قتلي اليوم، فلم هذا يا مولاي؟ ماذا فعلت...

وتغلبت الشجون على الأسير فأخذ ينتحب في شدة عصفت بجسده، وفجأة أحس بيد تمر على رأسه، فإذا بالملك واقف فوقه يبتسم له ويقول:

ـ لا تحزن أيها الأخ، انهض إلى جواري.

انكب الأسير على قدمي الملك يوسعهما تقبيلًا، ثم وقف بين يديه وما زال يرتجف. أما الملك فقد أومأ برأسه وصاح قائلًا:

ـ فليستأنف الموكب السير.

بدأت الجنود تتحرك وفي إثرها العربات الملكية ثم مواكب الزهور. ولكن حين جاء دور محفة «آمون» رآها القوم ملتزمة مكانها لا تتقدم خطوة. والكهنة من ورائها ماثلون. انحنى الوزير على الملك يهمس في أذنه عودًا على بدء قائلًا:

ـ أتوسل إليك يا مولاي أن تعيد الأسير إلى كاهن «آمون». إنك

تعرض نفسك لخطر عظيم، فـ«بتاح موس» تحوط الآن بكهنته ومن حوله شعب طيبة الذي يقدسه ويتفانى في تلبية أوامره. إنه ممثل ماهر يا مولاي ويستطيع في هذه اللحظة أن يصطنع ثورة تودي بنا جميعًا.

ولكن الملك لم يزد على أن هز رأسه في هدوء وإصرار. كان كاهن «آمون» يرقب الملك ووزيره عن كثب، فلما اتضح له إصرار الملك على فعلته، تقدم إليه ببطء وهو عاقد يديه على صدره، إلى أن وقف قبالته فانحنى له ثم استقام دون أن يتكلم. نظر الملك لحظة في عيني الكاهن ثم قال له:

ـ أتريد شيئًا أيها الكاهن المبجل؟

تكلم الكاهن بصوت واضح النبرات ليسمعه أهل طيبة المحتشدون فقال.

ـ قربان «آمون» يا مولاي. إنه من حق الإله وليس من حق جلالتك.

وعلا صوت الملك كالرعد حين أجاب قائلًا:

ـ لن يكون لـ«آمون» قرابين من البشر بعد الآن يا «بتاح موس» لا لـ«آمون» ولا لأي إله آخر. هذا أمرنا.

وعاد الكاهن يقول:

ـ إن هذا العمل يا مولاي سيغضب إله طيبة العظيم ومعبود الدولة الرسمي. فالإله يريد قربانه ويجب على البشر ألا يعترض إرادته.

ـ كأنك لم تسمع ما قلت يا «بتاح موس»!

ـ إذن فمولاي مصر على تجريد الإله من قربانه؟

احتبست أنفاس الشعب انتظارًا لإجابة الملك. أما فرعون فقد راح

يحدق في عيني الكاهن بنظرات من نار، ثم ما لبث أن تراجع في هدوء إلى مقعده تحت الخميلة فجلس عليه وصفق بيديه ثم صاح قائلًا:

ـ فليستأنف الموكب السير.

ولكن الكاهن صرخ على الأثر قائلًا:

ـ مولاي! إن موكب الإله لا يستطيع السير بغير قربانه.

حينئذ علا صوت الملك يدوي فوق الجموع قائلًا:

ـ وأنا قد أمنت قربان الإله. فإن كان إلهك لا يرضيه إلا أن ينهل من دم البشر البريء، فلست أبتغي رضاءه ولا أعبأ بنقمته.

لم تكن طيبة قد سمعت بمثل هذا القول من قبل. وقد حسب كاهن «آمون» أن تعلو همهمة الشعب ثم تنقلب إلى زمجرة طامية تكتسح أمامها الأحمر والأسود. ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث. إن الذي حدث هو عكس ما تصور الكاهن. فقد علت من الجموع أصوات استحسان وأخذوا ينظر بعضهم إلى بعض في ترقب ولهفة. والحق إن مسلك الشعب في تلك الفترة كان مبعثًا للعجب الشديد. فقد كانت حاشية الملك نفسها لا تتوقع إلا ما حسب الكاهن. فكيف قبل الشعب أن يهان معبوده على مسمع منه فلا يثور له بل يتحمس لمن تسبب في إهانته؟ ألأن اتجاهات نفسية الجموع شيء غريب شاذ لا يخضع لقانون؟ أم لأن الجموع تلذها أعمال الجرأة فتغطي على شعورها بالمهانة؟ أم يكون السبب أن الملك إنما عبر عن إحساس دفين في صدر الشعب؟ أم تكون حماسته وفتوته وهو يرعد للكاهن العجوز قد سحرتا الناس وحركتا فيهم نوازع البطولة، فاندفعوا يؤيدون الملك بغير وعي منهم؟

أسقط في يد الكاهن ولم يبق أمامه إلا أن يجرد آخر سلاح لديه، عله ينجح في تحويل شعور الشعب. فهو يعلم أن الجموع بطبيعتها تشفق على المغلوب وتنتصر له. لهذا تقدم الكاهن من الملك فخشع أمامه ثم استقام قائلًا في صوت كسير ينبض بالألم:

ـ ليأذن لي صاحب الجلالة بالانسحاب.

وتراجع الكاهن إلى أتباعه وأشار إلى حاملي محفة الإله فاستداروا بها. وبدأ موكب «آمون» يسير عكس اتجاه موكب الملك. ولكن «بتاح موس» كاد يصعق حين سمع رد الشعب على حيلته، فلم يكن غير الضحك والصفير. ها هو ذا قد أخطأ في حسابه مرة أخرى، فبدلًا من أن تصوره الجموع في هيئة المنهزم المظلوم، رأوا فيه الرجل الشرير الذي تغلب عليه بطلهم النبيل، فشيعوه بما يستحق من زراية.

الفصل الحادي عشر

مضى عامان منذ أن هبط الوحي على الملك. طرأ في خلالهما على ديانته تغييران جوهريان، كانا السبب المباشر في تبدل أقدار الإمبراطورية المصرية، وفي توجيه حياة الملك إلى الطريق الفذ الذي سار فيه.

ظل الملك مدة طويلة وهو يعتقد أن ما أوحي إليه به ليس إلا مذهبًا جديدًا في عبادة «رع» فاختصه باسم «آتون» أحد الأسماء الحديثة لإله منف، ونشره بين أتباعه على هذا الوجه. واستمر مدة عام كامل وهو يجد في المعاني الرمزية لعبادة «رع» ما يكافئ مطالب مذهبه الروحي، فقنع بأن يجتهد مع أصحابه في تفسير مظاهر هذا الإله بما يلائم سمو الديانة الجديدة.

ولكن حدث منذ عام أن شعر الملك بإحساسات خفية تلعب في نفسه دون أن يدري لها كنهًا. واكتشف في الوقت نفسه قصور ديانة «رع» عن مجاوبة الفكرة الملتهبة في صدره. فهو حين وصل في دراسته إلى البحث في منشأ «رع»، وجد أن هذا المعبود لم يكن

إلا بشرًا تأله في قديم الزمان، وحكم مصر حقبة مديدة، ثم ارتفع إلى السماء وتجسم في قرص الشمس، وأصبح يشرق على الأرض كل يوم، ثم يتركها في الليل ليستريح. ولقد درج الملك على قبول هذه العقيدة قضية مسلمة منذ ولد. ولكنه وجد نفسه ذات مساء يتساءل عن قدر انطباقها على حقيقة الكون المحيطة به، وهل هي تفسر كل مظاهر الطبيعة التي تتجلى لبصره كل يوم؟

ظلت هذه الشكوك تساور الملك أيامًا عدة دون أن يجد لها جوابًا. وخيل إليه أحيانًا أنه لن يستطيع أن يجد لهذه المشكلة حلًّا فتزداد حيرته. حقًّا لقد كانت تُطيف برأسه رؤى غريبة يشعر بأنها صادرة من روح سام، ولكنه لم يكن يدري لها تفسيرًا. وقصارى ما فطن إليه أن هذه الرؤى اختارته هو عينه، وأنها تومئ إليه للنهوض بعمل خاص.

ولبث كذلك حتى كانت إحدى ليالي الصيف الرطبة إذ سبقته زوجته الحبيبة إلى مخدعها، وبقي هو في الشرفة بعض الوقت قبل أن يلحق بها. ظل قاعدًا في جوف الليل وقد انسرحت أفكاره في مختلف الآفاق، فتركها على سجيتها وأخذ يتابعها في هدوء واستكانة. ووقع بصره على النيل المتألق حول طيبة، ورأى الترعة التي حفرها والده لتجلب الماء إلى بحيرة الملكة «تي» الهاجعة قبالة القصر. وحدثته أفكاره بأنه إذا كان النيل العظيم إلهًا كما تعتبره العقائد المصرية فهل هذه الترعة إله آخر، أم المعقول أن تكون بعض آثار الإله العظيم ومظهرًا من مظاهر سطوته؟ إن النيل في مقدوره أن يمنع عنها المياه في أي لحظة، فتصبح كالعود الجاف لا قدرة لها على الحياة. فهل يمكن أن يموت إله؟ إن الشمس كذلك تضيء الأرض وتحرك الرياح

وتنمي النبت، فكيف يكون الضوء إلهًا والنبات إلهًا مع أنها جميعًا مسببة من أشعة الشمس؟ والشمس هي الأخرى... إنها حقًّا أشرف الكائنات وأسمى مظاهر الطبيعة. إنها حقًّا مصدر الحياة في العالم، ومبعث القدرة لمختلف المعبودات. ولكن أليس لها هي الأخرى مسبب يشرف عليها كما يشرف على غيرها؟

وعلى حين غرة، سطع في ذهن الملك وهج أضاء له الحقيقة فأدركها في طرفة عين، كما فهم أيضًا مصدر الخطأ الكبير الذي وقع فيه المصريون منذ القدم، وبنوا ديانتهم على أساسه. لقد خلط الكهنة بين معنيين متميزين هما الإله نفسه ومظاهر قدرته، فحسبوهما معنى واحدًا، ثم أقاموا ديانتهم على هذا الرأي القائل، فراحوا يؤلهون النبت والريح والثور والهر، ولم يستطع إدراكهم أن يسمو إلى معرفة المصدر الأول لهذه القوى الأرضية. وعلى مر الأيام ازدادوا إمعانًا في الخطأ حتى أصبحت الديانة المصرية أعظم ديانات العالم تعقيدًا، وأخذت تتكاثر آلهتها كلما تمكن البشر من اكتشاف قوى جديدة، حتى بلغت الحال هذه الفوضى التي يئس معها الناس من فهم دينهم ـ لأنه في الواقع غير معقول ـ وأصبحوا يؤدون فرائضهم بطريقة تقليدية عمياء، دون أن يعنوا باستكناه جوهرها.

أما الذي تجلى لفرعون في تلك الليلة فهو أيسر شيء في الوجود. إن الكون لا يحكمه سوى إله واحد لا شريك له، وما جميع الآلهة المصرية سوى بعض مظاهر قوته. وهو إله قادر على كل شيء، لأنه المبدع لكل القوى التي أعجب بها المصريون فألهوها.

وكان من نتيجة إدراك الملك لهذه الحقيقة العلوية أن بدت له

حقيقة أخرى هي نتيجة طبيعية للأولى. فقد خيل للملك أنه يرى على صفحة الليل البهيم عبارة كأنها مكتوبة بأحرف من نور: إن الإله ليس الكوكب الشمسي نفسه بل «آتون» هو اسم الإله والشمس هي رمزه الظاهري. إن حرارة الشمس المولدة للحياة هي الأثر الحي لقوة الله. أما «آتون» فهو سيد الشمس وسيد جميع الخلق، إنه الدافع الحيوي الذي يسري في أوصال الكون، إنه النشاط العبقري المسيطر على جميع المخلوقات، إنه روح المحبة والشفقة المنسابة في الزمان والمكان، إنه صاحب القدرة العليا التي يطيعها كل عظيم في الكائنات وحقير. ليس قرص الشمس هو الإله. لأن الله لا هيئة له ولا جسد، بل روح مجرد. قادر، متناهٍ في الرفعة، عظيم السلطان، لا زمان له ولا حد لنبل طبيعته. إنه الخالق لكل شيء ولم يخلقه أحد، لأنه المسبب الأول للعالم.

دخل الملك مهرولًا إلى مخدع زوجته فأيقظها وأخذ يحدثها بما يفيض به قلبه واستمر يشرح لها ما خفي عليها من وحيه حتى إذا لمعت خيوط الفجر الأولى كانت الملكة أول من آمن بديانة زوجها الجديدة. ولم ينم الملك في تلك الليلة فمضى في الصباح الباكر إلى منزل صديقه «مري رع»، ثم أرسل في طلب «سمنكرع»، وبعد لحظة وافاهم بقية أصحاب الملك ومن بينهم «حور محب» قائد الجيش الأعلى. وظل الملك يبشرهم بديانته الجديدة بحماسة ووضوح وصدق يقين، حتى استطاع أن ينفذ إلى قلوبهم فيلهبها بالإيمان. ولقد كانت مهمته مع خلانه أشق منها مع زوجته، إذ لم يكن منهم من فكر من قبل في احتمال أن يكون الإله واحدًا وقد تشبعت أفكارهم

بالاعتقاد بتعدد الآلهة. كانت الحقيقة التي يقولها الملك جد غريبة، ومخالفة لما درجوا عليه منذ الصغر، وما اعتقدته مصر والعالم منذ أقدم العصور. ولكن إيمانهم القديم بشخص فرعون، وتلك الحرارة التي كانت تتفجر من كلماته فتنفذ إلى أفئدتهم كالسحر، جعلتهم في آخر الأمر لا يقلون عنه تحمسًا للدين الجديد. فلما تركهم عند منتصف النهار لم يكن بينهم من لم يؤمن بالعقيدة التي بشرهم بها سوى «حور محب» الذي تظاهر بالإيمان على حين كان قلبه قد أغلقته نوازع «الخبز والسمك» عن التأثر بأية حقيقة لا تتفق مع أطماعه.

غير أن تأثر الملك بالعقيدة التي أوحي إليه بها كان أشد ما يكون قوة وعنفًا.

أصبح لا يطيق أن يلفظ أمامه باسم أي معبود من المعبودات المصرية، وانصبت معظم نقمته على «آمون» إله الدولة الرسمي الذي يضم تحت لوائه كل المعبودات الأخرى، فصار لذلك رمزًا للديانة القديمة بكل ما حوت من أضاليل.

لا عجب إذن أن كان أول عمل رسمي أتاه فرعون بعد اعتناقه لديانته الجديدة أن أصدر مرسومًا يقضي بتغيير اسمه من «آمون حتب» إلى «أخناتون» أي روح «آتون».

وكانت الخطوة التالية التي انعقد عليها عزم «أخناتون» هي أن يأمر بإلغاء كل العبادات المصرية وأن يجعل عبادة «آتون» الديانة الرسمية للدولة. غير أن الملكة «تي» حين عرفت نية ابنها هرعت إليه مع الوزير «رع موس» وتوسلت إليه ألا يقدم على هذا الأمر الخطير الذي ستكون أهون آثاره إبعاد الأسرة المالكة من الحكم، وقد يستتبعه

نشوب ثورة داخلية عنيفة، لا يبعد أن يترتب عليها سعي المستعمرات المصرية للانفصال فتخسر مصر ملكها وممتلكاتها. وكانت الملكة الوالدة تتكلم بحمية واندفاع و«أخناتون» هادئ منصت. فلما أتمت الملكة حديثها حدق فيها فترة ثم قال بصوت خفيض:

ـ إنني أعلم يا والدتي أنك لا تؤمنين بديانة «آتون».

لم تتمالك الملكة الوالدة أن تخفي ابتسامة عبرت شفتيها. فقد كانت رأت في ديانة ابنها رأيًا اعتقدت أنه الأقرب إلى الحقيقة، لأنها أعرف بابنها من أي شخص آخر. إن ما راح يبشر به ابنها في طول البلاد وعرضها لم يكن ديانة حقة، بل أوهام مريض منهوك الأعصاب. فلطالما جاءها في الماضي عقب نوباته الصرعية يحدثها بما كان يتراءى له من رموز وأشباح. ولن تكون ديانته الجديدة إلا بعض هذه الرؤى. فإن من كان في مثل حال ابنها من توتر الحس وإرهاف المشاعر تختلط لديه الحقيقة بالخيال، فيحسب الحلم وحيًا، ويتهيأ له في حفيف الأشجار نداء ومناجاة، ويجعل من أتفه شؤون الحياة رموزًا خفية لحقائق مجهولة، ويتمثل في سقوط فضلات عصفور على ظهر كفه رسالة إليه أو مظهرًا لرغبة علوية.

ولقد حدثها ابنها بما وقع له على حافة الغدير فعرفت مصدر وهمه، وكادت تمسكه من كتفيه فتهزه هزًّا عنيفًا، وتطلب منه أن يهبط من آفاق تصوراته المريضة إلى بطاح الحقائق المادية الصلبة، فإن حكم الدول لا يعرف غير الحديد والنار.

ولكنها تهاب ابنها فعلًا، ثم إنها وجدت في اتجاهه الجديد ملهاة له عن أحزانه الماضية، فأظهرت اقتناعها بما حدثها به وشيعته بابتسامة

أستاذ يرثي لمحاولات تلميذه الأولى. ولم يكن من بأس في أن يتسلى الملك ببعض الصور والخيالات ما دام مرجعها الأخير هو تأييد ديانة «رع». أما أن يبعد بها كل هذا البعد عن عبادة إله منف ثم يطلب بعد ذلك إلغاء العبادات المصرية العريقة التي أصبحت صلب المجتمع وعماده، فذلك خروج عن نطاق التلهي، ولن تتركه يقحم أوهامه في تصريف أمور الدولة بل عليها أن ترسم له الحد الذي يقف عنده.

غير أن الملكة الوالدة سرعان ما ملكت مشاعرها فأسدلت حجابًا كثيفًا على أفكارها، وعادت تبسم لابنها في حنان وتقول:

ـ من قال هذا يا بني العزيز؟

ولكنها شعرت بسهام نظرات الملك تنفذ إلى قلبها فتكشف عن خباياه، ولذا فقد اضطربت حين سمعته يقول:

ـ أنت تقولينه الآن يا أماه. إنني ألمح في عينيك اتهامًا عريضا لي.

ثم التفت إلى وزيره قائلًا:

ـ أنت أيضًا لا تؤمن بـ«سيد آتون» يا «رع موس».

ولم يكن الوزير المخلص يملك مهارة الملكة «تي» في الادعاء، فقد اشتهر في البلاط بأنه شديد الصراحة إلى حد العنف، حتى لم يكن يعبأ بتوجيه اللوم إلى فرعون إن ضاق صدره ببعض أعماله. لهذا قابل نظرات «أخناتون» في هدوء قائلًا:

ـ لقد صرت شيخًا أيبسته السنون يا صاحب الجلالة، ولم يعد قلبي من التفتح بحيث يملك أن يغير الدين الذي اعتنقه منذ صباه. إن ديني يا مولاي هو مصر، وإيماني الأول هو العرش، وهذان أضعهما تحت تصرف جلالتك.

سمع «أخناتون» حديث وزيره وهو مقطب، ثم أطرق مرسلًا نظراته الحالمة إلى غير شيء. وأخيرًا فتح فاه قائلًا:

ـ من أنا يا «رع موس» حتى تؤمن بعرشي، إن أنا إلا أداة في يد إرادة جبارة؟ ولو كنت تؤمن مثلي بـ«سيد آتون»، لشعرت معي بأنني أقصر في حق الإله بما أبديه من تردد في تنفيذ رغباته.

غير أن الملكة الوالدة والوزير وفقا آخر الأمر إلى التغلب على إرادة «أخناتون». وخصوصًا بعد أن استشار «حور محب» فأخبره أنه لا يضمن إخلاص الجند إذا نشبت ثورة أهلية، فاقتصر الملك على إصدار مرسوم يقضي بمصادرة أملاك سائر الكهنة الشخصية وبضمها إلى أملاك الدولة. وقد كان المقصود بهذا الإجراء هو «بتاح موس» كاهن آمون الذي كانت له ثروة واسعة. فقد تمكن الكاهن بعد أن جرد الملك عبادة «آمون» من معظم أوقافها من مواصلة نشاطه بفضل هذه الثروة. فكان لا بد من حرمانه إياها حتى ينقطع كيده للدين الجديد ولو إلى حين.

والحق إن تدابير الملك كانت من الشدة والمباغتة بحيث أخذت «بتاح موس» على غرة، فأفقدته ما عرف عنه من لطف الحيلة ودهاء السياسة. لم يعد ذلك المفكر الهادئ الذي يزن الأمور بحكمة قبل أن يخرجها إلى طور التنفيذ، بل انقلب خلال فترة ما، رجلًا ثائرًا محنقًا لا قبل له بالصبر وتربص الفرص.

ما إن وصل خبر هذا القرار إلى «بتاح موس» حتى استدعى شريكه «حور محب» والأمير «تيتو» الذي تمكن الكاهن من ضمه إلى حزبه بوسائله البارعة. فقد كان الأمير «تيتو» كثير المطالب شديد الإسراف

يبعثر المال بغير حساب. وكانت موارده معرضة دائمًا للنضوب، فكان يعمد إلى الاقتراض من أصدقائه، فأوحى الكاهن إلى مساعده «حور محب» بأن يقرض الأمير ما يشاء وأن يزيد له فيما يطلب. واستراح الأمير إلى هذا المورد الكريم الذي لم يكن يضن عليه بمطلب، فدرج على ألا يقترض من غير قائد الجيش. غير أن الدَّين ما لبث أن تعاظم على مر الأيام حتى ثقل. وفجأة طالب «حور محب» بدَينه فأسقط في يد الأمير ولم يدرِ ماذا يفعل. فقد كان في إمكان دائنه أن يقاضيه أمام محكمة طيبة العليا فيجرده من سائر أملاكه. حينئذ ظهر كاهن آمون في الميدان. ففي أول مرة قابل فيها الأمير «تيتو» أخبره بأنه قد وصل إلى علمه وقوعه في أزمة مالية شديدة، وأظهر له استعداده لمساعدته. ثم كانت مقابلات بين الأمير والكاهن التمع فيه وهج الذهب كما تجلت براعة «بتاح موس» في التأثير والإقناع. ولم يكن «تيتو» بأقل أطماعًا من «حور محب»، فسرعان ما وجد في ذهب الكاهن منفذه إلى الخلاص من ورطته، وفي حديثه صدى أحلامه وأمانيه. وبعد وقت قصير كان «تيتو» ينافس «حور محب» في التقرب إلى كاهن «آمون» والمسارعة إلى تنفيذ رغباته.

حين قدم «حور محب» و«تيتو» إلى الكاهن ألفياه على أشد ما يكون من الهياج. كان يذرع الحجرة جيئة وذهابًا وهو يصيح شاتمًا مهددًا. فلما هدأ حاله شيئًا جلس إليهما، وأخبرهما بما انعقد عليه عزمه الحاسم، وطلب منهما أن يساعداه في تحقيقه. غير أنهما صعقا في أول الأمر وتراجعا عن طاعته. فلم يكن ما يطلبه الكاهن منهما سوى اغتيال فرعون مصر. غير أن ثورة الكاهن ما لبثت أن

حطمت كل اعتراضاتهما، ثم لوح لهما بقرب تحقق أمانيهما، فسرت عنهما خشيتهما على صوت نداء أطماعهما. وتدارس ثلاثتهم الأمر فلم ينصرفوا إلا بعد أن أتموا وضع خطة محكمة الأطراف مضمونة الأثر.

كان «حور محب» ـ إطاعة لنصح أستاذه الكاهن ورغبة في تمهيد سبيل الوصول إلى أغراضه ـ قد عمد إلى التقرب من الأميرة «بزمت» أخت الملكة «نفرتيتي» والتي كانت تسكن معها في القصر الملكي. وكان «حور محب» مليح الوجه، فارع الجسم، مفتول العضل، فسهل عليه استمالة الأميرة التي ما لبثت أن تدلهت بحبه وأصبحت لا تأبى عليه مأربًا. ففي ذات يوم إذ مر بها في إحدى ردهات القصر، أسر إليها بأنه سيحضر لمقابلتها بعد منتصف الليل، وطلب منها أن تعمل على ترك باب القصر الملكي مفتوحًا حتى يستطيع الوصول إليها. وكان القزمان «بارا» و«رينو» يعرفان سر سيدتهما، فطلبت منهما أن يشغل أحدهما حارس الباب الملكي بحديثه، على حين يفتح الآخر البوابة في حذر حين يشعر باقتراب حبيبها.

وبعد منتصف الليل اقترب «حور محب» من القصر فوجد «بارا» ماثلًا في انتظاره ففتح له الباب وأدخله قائلًا:

ـ مرحبًا بقائد الجيش الشجاع يتستر بالظلام ويعس في الخفاء.

ضحك «حور محب» وأخرج من جيبه قطعة نقود ذهبية وضعها في يد القزم وهو يقول:

ـ إنه الحب يا «بارا» يجعل من الرجل امرأة ومن الشهم رعديدًا.

وهم القزم بإغلاق الباب وهو يقول جريًا على طريقته في المزاح:

ـ إذا كان الحب هو الجبن فإن الجبن هو الحب، ولا بد لذلك أن أكون غارقًا في الهوى إلى أذنيَّ دون أن أدري.

ولكنه قبل أن يقفل الباب دلف منه شبح طويل فانتهره بصوت خافت قائلًا:

ـ من تكون؟

وهم بأن يصيح في طلب معونة الحارس غير أن «حور محب» كتم فمه بقبضته الحديدية وهو يقول له:

ـ اصمت أيها الأحمق فإنه تابعي.

وبعد أن انقضت أكثر من ساعة عاد «حور محب» من مقابلة فتاته فوجد «بارا» ينتظره بالباب. وكان القمر قد غاب عن الأرض فتركها في ظلام دامس. وقف القائد يتحدث إلى القزم برهة ثم نقده قطعة ذهبية أخرى. وحين هم بالخروج سأله «بارا» قائلًا:

ـ ولكن أين حارسك يا حارس البلاد؟

فضحك حور محب وقال:

ـ لقد خرج منذ لحظة أيها الأعمى ليعد لي مركبتي.

ولم يكن تابع «حور محب» قد خرج، بل ظل مختبئًا في حديقة القصر يترقب فرصته.

وفي الفجر هبط «أخناتون» درج القصر ثم وقف هنيهة يتأمل شروق الشمس. وتقدم في مسالك الحديقة الملكية وهو يلمس بيديه الزهر في حب وحنان كأنما يقرئها تحية الصبح، ورفع «أخناتون» بصره إلى السماء وتمتم قائلًا:

ـ يا الله... ما أكثر تنوع مخلوقاتك وما أجملها!

ثم انحدر صوب معبده القائم بطرف ناء من حديقة القصر. وكان تابع «بتاح موس» مختبئًا وراء دوحة ضخمة، فلما رأى الملك يقترب منه، رفع يديه بخنجر مرهف تأهبًا لطعنه. ووصل «أخناتون» إلى تلك الدوحة فوجدها تجيش بشتى الأطيار المزقزقة، فضحك منتشيًا وجلس تحتها ليستمع إلى صلاة العصافير.

ولم يكن تابع الكاهن يأمل في فرصة أطيب من هذه. ومع ذلك فما إن هم بطعن «أخناتون» حتى شعر بأن قوى خفية تغل يده فامتلأ قلبه رعبًا. وبينما يحاول التغلب على الجزع والاضطراب اللذين استوليا عليه، إذا به يسمع الملك يقول في صوت هادئ:

ـ ما الذي أتى بك إلى هنا؟

صعق التابع وصاح من فرط خوفه، ثم انطلق يعدو في جنبات الحديقة. أما «أخناتون» الذي كان يخاطب كلبه المقبل عليه، فقد فزع من صيحة التابع، وهم واقفًا يستبين الأمر. وكان صوت التابع وعدوه قد نبها حراس القصر فجروا وراءه يلاحقونه، حتى أمسكوا به وأخذوا يشدون وثاقه.

وبينما كان رئيس الحرس يستجوب تابع كاهن «آمون» إذا به يسمع صوت الملك من ورائه يقول له:

ـ فلتفك قيود هذا الأخ فإنها تؤلم يديه.

دهش الضابط وخيل إليه أن الملك غير مدرك لما يقول، فراح يبسط له الأمر قائلًا:

ـ لقد رأينا هذا الرجل يا صاحب الجلالة يبرز من وراء الشجرة التي كنت تحتها. ولما قبضنا عليه وجدنا معه هذا الخنجر المسموم.

وقدم الضابط الخنجر إلى الملك فتأمله «أخناتون» لحظة ثم قال:

ـ أجل.. إنه مسموم.

ثم التفت إلى الرجل المقيد وقال له:

ـ أكنت تريد قتلي حقًّا أيها الرجل؟

كان تابع «بتاح موس» يرتجف وجبينه يتفصد عرقًا باردًا. وحاول أن يتكلم غير أن الخوف عقد لسانه، فلم تصدر منه سوى تمتمة غامضة. ولما رأى «أخناتون» حال الرجل رثى له فتقدم منه ووضع يده على كتفه وهو يقول له:

ـ هون عليك أيها الرجل. فما من أحد هنا يريد بك شرًّا.

وأحس الرجل شيئًا من الطمأنينة تهبط على قلبه. فانحلت عقدة لسانه وانطلق يقول:

ـ أقسم لك يا صاحب الجلالة بأنني لم أرد قتلك! كيف أقتل فرعون ملك مصر وابن الإله؟ أقسم بـ«سيد آتون» المقدس أنني مظلوم يا صاحب الجلالة.

وحين أتم الرجل توسله أخذ ينتحب ويبكي كالنساء. ثم انحنى يقبل قدمي «أخناتون» ويديهما بدموعه، أما الملك فقد التفت إلى رئيس الحرس وقال له:

ـ حل وثاق الرجل ودعه ينطلق، لقد أقسم بـ«سيد آتون» فعلينا أن نصدقه.

واستدار «أخناتون» ومضى في هدوء صوب المعبد...

الفصل الثاني عشر

كان لهذا التدبير الإجرامي الذي اتخذه «بتاح موس» أثر شديد في نفوس أتباع فرعون. فإن مكائد الكاهن السلمية كانت تعتبر جزءًا من سياسة الدولة، تستطيع أداة الحكم أن تتدبر الوسائل اللازمة للقضاء عليها. غير أن التطور الذي انتهت إليه وسائل كاهن «آمون» الإجرامية جعلت الخطر يمتد إلى شخص الملك نفسه. فلم تكن الخناجر المرهفة إلا أهون أسلحة الكاهن رهبة، إذا قورنت بالسم الزعاف أو الأفاعي التي قد تضعها أيد خفية في فراش الملك، أو بنوع من الخفاش السام قيل إن الكاهن يقتني عددًا منه، وقد دربه تدريبًا محكمًا بحيث يستطيع أن يسلطه على فريسة معينة فلا يخطئها... أو بغير هذه من وسائل الاغتيال التي تناقلتها الأخبار وروجتها الإشاعات.

لا عجب إذن أن احتدمت ثورة رجال البلاط حين تطاير بينهم خبر محاولة الاعتداء على الملك، فطالب بعضهم بإبطال عبادة «آمون»، وأصر أتباع «أخناتون» على تقديم «بتاح موس» إلى المحاكمة توطئة لإعدامه. أما الملكة «تي» فقد عارضت كلا الرأيين سيرًا على خطتها

في وجوب مراعاة الحذر الشديد في كل إجراء يتخذ ضد كاهن «آمون»، على حين اقترح الوزير «رع موس» إقالة «بتاح موس» من رياسة ديانة «آمون» وتعيين كاهن آخر مكانه.

وفي لجة هذه الثورة الفكرية العنيفة بقي «أخناتون» وحده مالكًا لهدوئه وصفاء ذهنه، حتى لقد رُئى في اليوم نفسه الذي وقع فيه الاعتداء راكبًا العربة الملكية يخترق بها شوارع طيبة، وإلى جواره زوجته الحبيبة «نفرتيتي»، ألم يقل له أبوه إن المشكلات تحل نفسها بنفسها، وإن أحكم الرجال هم أكثرهم صبرًا...

وفي ذات مساء جلس فرعون خاليًا في إحدى حجرات القصر يراجع تقريرًا ذا شأن. ومضى الهزيع الأول من الليل والملك لا يزال مكبًّا على أوراقه يدرس ويستخلص. فلم يشعر بشبح لطيف ينسل إلى الحجرة، فما استوى وراءه حتى وضع أصابعه الناعمة على عينيه وقال بصوت ملائكي:

ـ أنا روح الإلهة «هاتور».

ضحك الملك واحتوى اليدين الناعمتين في كفه وأخذ يقبلهما بشغف ثم قال:

ـ وماذا تريد روح هذه البقرة؟

أجاب الصوت العذب قائلًا:

ـ تسألك هل هجرت زوجتك الجميلة وتزوجت أوراق البردي تقضي معها ليلك الأطول؟

أزاحت صاحبة الصوت أوراق البردي من فوق المنضدة، وجلست مكانها قبالة الملك وراحت تحدثه:

ـ فيم كنت تبحث يا «أخناتون»؟
ـ إنه تقرير عن حال الفلاح رفعه إليَّ «سمنكرع». أتعتقدين يا «نفرتيتي» أن هناك فرقًا عنصريًّا بين الفلاحين وبين طبقة السراة والأمراء؟
تفكرت الملكة وقتًا في سؤال زوجها ثم راحت تداعبه قائلة:
ـ وهل تستوي أنت وسائر البشر يا «أخناتون»؟
وضحك الملك ضحكة خافتة ثم أجاب:
ـ لقد كنت أحدثك عن الأمراء يا «نفرتيتي» لا عن نفسي. إنني عنهم جد مختلف...
ـ فأنت إذن لست ببشر؟
أجاب الملك في هدوء وثقة قائلًا:
ـ بل بشر يا عزيزتي.
ـ عجبًا... ألست ابن إله؟
ابتسم الملك وأجاب قائلًا:
ـ وابن إله أيضًا يا «نفرتيتي».
ـ لم أعد أفهم يا «أخناتون».
ـ إنني لست ابن إله لمجرد انحداري من صلب فرعون، ولكن لأن روح الإله السامية قد تسمحت فحسرت لي اللثام عن حقيقة الوجود. فأنا أشعر بأنني متصل بهذه الروح صلة الابن بأبيه.
وأطرق الملك فترة طويلة ثم عاد يقول:
ـ لقد قلت لك إنني مختلف يا «نفرتيتي».. مختلف عن البشر والفراعنة جميعًا. ولقد شعرت بهذا الاختلاف مذ كنت صبيًّا.

والواقع أن كل من خالط «أخناتون» كان يشعر بهذا الاختلاف شعورًا واضحًا. كان يوحي إلى الناس بالهيبة والاحترام، لا فرق في ذلك بين الصبي الأرعن والشيخ الذي يكبر فرعون بستين عامًا. فهو دائمًا هذا الروح المتميز البعيد عن مباذل البشر، تعرف نفوس الناس في حضرته أقدارها الحقة. فتخجل لقصورها، وتتشوف إلى السمو بأرواحها. كان «أخناتون» كالمرآة الصافية التي تعكس للبشر صور زلاتهم وآثامهم.

ولم تكن «نفرتيتي» تشذ عن سائر الناس في هذا الشعور. فكان حبها لزوجها يقترن دائمًا باحترام بالغ يمنعها أن تسف معه في عمل أو قول. ولكنها مع ذلك كانت أقرب الناس إلى نفسه فكانت أجرأهم في الطلب. ولذلك راحت تسأله:

ـ وكيف كنت تشعر بهذا الاختلاف في صباك يا «أخناتون»؟

وصمت الملك هنيهة حتى خيل إليها أنه لا يريد الجواب. ولكنه ما لبث أن تكلم في هدوء قائلًا:

ـ كنت أحس بأنني في واد والناس جميعًا في واد آخر.

ـ ألم تكن تعرف سيد «آتون» في هذا العهد؟

ابتسم الملك ولم يجب. وطال به الصمت فانساقت أفكاره على عادتها إلى آفاق إلهه المقدس فبدا في عينيه وميض غريب.. وميض يُشعر المتأمل بأن عيني الملك قد غارتا في أعماق بعيدة القاع، تضطرب فيهما عوالم غامضة لا يعلم كنهها سواه.

وحين تستغرق «أخناتون» هذه النشوة تهدأ كل حركات جسده، حتى ليخيل للرائي أنه قد تحجر فصار كبعض تماثيل الفراعنة

الأقدمين. أما عيناه فتتسعان ويثبت تحديقهما دون أن يطرف لهما جفن.

صحا الملك من نشوته فجأة فأخذ يلهث مسرعًا كأنما كان يصعد في جبل وعر ثم استراح إلى ظهر مقعده وأغمض عينيه وجمد على هذا الحال. وكانت الملكة تشعر بالحيرة والخوف حين تحضر زوجها هذه الانفعالات النفسية. ولما طال جمود الملك تناولت يده في كفيها وقالت في صوت رقيق:

ـ ما لك يا «أخناتون»!

ضغط الملك يد زوجه وقال وهو لا يزال مغمضًا عينيه:

ـ لقد هبط عليَّ خاطر فذ يا «نفرتيتي».

ـ ما هو يا عزيزي؟

نهض الملك من مقعده وأحاط خصر زوجته بذراعه وقال:

ـ سأحدثك به في الغد. هيا بنا لننام، فلم تبق سوى سويعات على شروق الشمس.

* * *

بقي «أخناتون» في فراشه ساهدًا مدة غير قصيرة وأخيرًا هبط عليه نعاس خفيف لم يفقده شعوره بنفسه، وبدأ يحلم...

رأى كأنما هو جالس قبالة نافذة صغيرة. ولم يكن يظهر من النافذة في أول الأمر إلا رقعة سماء زرقاء، ثم ما لبث أن تميز في وسطها عمود قائم لعله جذع نخلة شامخة. وبعد قليل جاء صقر ملكي فحط على رأس النخلة وبين منقاريه عصفور أزرق جميل. ولم يبد العصفور مذعورًا من الصقر بل كان يداعبه ويعابثه،

والصقر عاطف عليه. غير أن أفرع النخلة أخذت تجف رويدًا حتى استحالت عصيًّا طويلة. وراحت هذه العصي تتمايل وتتلوى، ثم رآها تتحول واحدة في إثر أخرى حيات ضخمة ما لبثت أن التفت حول جذع النخلة فأحاطت بالصقر من جميع جهاته. وكانت الواحدة منها تستطيل بجسمها فتهم على العصفور تريد التقامه. وخاف الصقر على كنزه فوضعه بين قدميه وراح ينقر رؤوس الحيات المتطاولة. واستمر على هذا الحال زمنًا طويلًا فما تقاربه حية حتى ينقر رأسها فيميتها. إلا أن الحيات تكاثرت عليه من كل جانب فأدرك أنه لن يستطيع محاربتها جميعًا ليدفع أذاها عن عصفوره الحبيب. أسقط في يده. وأصبح فحيح الأفاعي يصم أذنيه وبريق أنيابها يزيغ بصره. ماذا يفعل؟ وكأنما أدرك الصقر أنه ليس موثقًا إلى جذع النخلة فأخذ العصفور بين منقاريه برفق، وطار بعيدًا عن النخلة وأفاعيها..

ثم صحا الملك. أخذ يفكر في هذا الحلم فترة ثم عاوده الكرى فرأى في هذه المرة الصقر قد أصبح له جسد بشري. وألفاه واقفًا على شاطئ نهر عظيم والعصفور ما انفك بين منقاريه. وبعد حين أتته سفينة منشورة القلاع فاستقلها هابطًا مع النهر صوب الشمال. وكانت السماء في زرقة الزرع والنسيم الرطب يهب جميلًا فيملأ بطون الشراع ويدفع السفينة في رفق وإصرار. وظلت السفينة تنحدر مع النهر إلى أن صادفتها جزيرة خضراء أمامها منبسط من الأرض في أعطاف تلال شامخة تحيط بها وتحرسها. هناك وقفت السفينة فقفز منها الصقر البشري وأخذ يعمل بمنقاره في الأرض إلى أن أقام

فيها معبدًا فاتنًا. فلما أتمه جاء بالعصفور ووضعه فيه ثم اختفى من ساعته. وعلا صوت العصفور مرتلًا فجاوبته أهازيج الأطيار وأناشيد الرعاة من كل صوب.

* * *

وفي الصباح أخبر «أخناتون» زوجه بأنه سينتقل من طيبة إلى مكان مجهول في شمال النيل، إذ يشيد مدينة يخص بها الإله «آتون».

وفي الضحى جمع أصدقاءه وأطلعهم بهذه النية، فكان «مري رع» و«سمنكرع» من أكبر المحبذين لها، على حين شذ «حور محب» والأمير «تيتو» عن إجماع صحبة الملك فعارضا هذا الإجراء بحرارة وشدة. وعجب «أخناتون» لمعارضتهما فقد كانت الهجرة بالديانة الجديدة إلى مكان مستقل بها، هي الحل الوحيد الذي يقضي على كل المشكلات الحاضرة والمستقبلة دفعة واحدة. ولهذا التفت الملك إلى الأمير «تيتو» وخاطبه قائلًا:

ـ لست أرى وجهًا لمعارضتك يا «تيتو». أتظن أنك أحكم من سيد «آتون» الذي أوحى إليَّ بهذه الهجرة؟

أجاب الأمير وهو يتلمس مادة لحواره:

ـ عفوًا يا صاحب الجلالة. ولكن أليست عبادة سيد «آتون» ممكنة في طيبة عاصمة الدولة على قدر إمكانها في أي مكان آخر؟

وبدأ الملك يحتد فتكلم في شبه غضب قائلًا:

ـ أنت تعلم جواب سؤالك يا «تيتو». إن عبادة الله هنا لا يمكن أن تزدهر وسط سموم الأفاعي الملتفة حولها بالمرصاد. ولذا أمرني سيد «آتون» بأن أنجو بكنز الحق والجمال إلى بلد أمين

لم تدنسه العبادات الزائفة من قبل. فالثمرة الجديدة لا بد لها من منبت جديد يلائمها.

وتدخل «حور محب» ليدعم رأي شريكه في الخيانة، فراح يعدد للملك الأخطار والمصاعب التي تترتب على إقامة البلاط الملكي في غير عاصمة البلاد، فإن مركز نشاط الدولة يجب أن يكون مقر الملك.

استمع «أخناتون» إلى حجج القائد والأمير فابتسم ولم يجب. ولكن ما كان أشد عجبه حين جاءاه في اليوم التالي يعتذران عما صدر منهما بالأمس. وأخبراه بأنهما حين تدبرا الأمر على مهل، أدركا خطأ رأيهما، واستبان لهما صواب رأى الملك. ولم يعرف «أخناتون» بطبيعة الحال أن السبب في هذا التغيير الفجائي مرجعه ما لقيته معارضتهما من غضب «بتاح موس» حين أبلغاه ما حدث. فقد أدرك الكاهن بصدق بصيرته أن انتقال البلاط الملكي من طيبة هو أعظم فرصة بها يجود الدهر. فهو يستطيع حينئذ أن يحيك دسائسه بعيدًا عن عيني الملك الصارمتين، ويصبح المجال أمامه خاليًا لطعن «أخناتون» من الخلف دون أن يخاف أعين الرقباء.

أما الملكة «تي» والوزير «رع موس» اللذان كانا يفكران على نمط تفكير كاهن «آمون»، فقد أدركا على التو مبلغ ما يترتب على مشروع الملك من أخطار. فعارضا بشدة وعارضا طويلًا. وقالت الملكة «تي» لابنها إنه إذا أصر على هذه الهجرة فستبقى هي في طيبة. وقال الوزير إنه لا يستطيع أن يتحمل التبعة في نقل عاصمة الملك، وإنه إذا أصر فرعون على تنفيذ رأيه اضطر إلى تقديم استقالته. غير أن هذا جميعه لم يكن يثني إرادة الملك عما اتجهت إليه. فلقد رأى

الحقيقة واطمأن إليها. ولن يمنعه من تنفيذ أمر الإله المقدس أب أو أم أو وزير.

وذات صباح من أيام الربيع استقل الملك السفينة الفرعونية، وانحدر بها في مجرى النيل صوب الشمال. وكان معه في السفينة زوجه وبناته وصحبه وكبار موظفي الدولة. ولم يكن لـ«أخناتون» قصد معين يوجه إليه سفينته، فإن الوحي الذي نزل عليه لم يأمره بالانتقال إلى مدينة معروفة من مدن القطر، بل صور له مكانًا بجانب النهر وبسط له سائر معالمه، وكان على الملك أن يبحث عن هذا المكان.

ظلت السفينة تسير أربعة أيام متوالية. وفي المساء كانت ترسو على شاطئ النهر حيث يجتمع الملك بأصدقائه فيحدثهم عن إلهه سيد «آتون» وكان «سمنكرع» أصدق صحب الملك إيمانًا، وإن كانت طبيعته المنطقية التي تأبى التسليم قبل الاقتناع تدفعه في كثير من الأحيان إلى محاجة «أخناتون» وكان موضوع المحاجة في الغالب فكرة التوحيد التي يبشر بها الملك. كيف يكون الإله واحدًا في حين أن عبادة «آتون» مصرية صميمة تستمد أصولها من ديانة «رع»! قال له الملك:

ـ إذا كان الإله واحدًا فكيف يكون خاصًّا بالمصريين دون غيرهم من الشعوب؟

أجاب «سمنكرع» الذي كان لا يزال متأثرًا بالمعتقدات المصرية القديمة:

ـ إن كان الإله واحدًا يا صاحب الجلالة فإن البشر متعدد. فنحن

شعب متميز عن أهل آسيا وعن سكان الصومال. ولذا وجب أن يكون لكل واحد من هذه الشعوب آلهته الخاصة التي تلائم ملابساته وأرضه وطبيعة أفراده.

ـ لا يا سمنكرع. إنما الإله واحد لأن البشر واحد. فسيد «آتون» هو الذي خلق الناس جميعًا وهو الذي فرقهم ألوانًا وطبائع. فالإله الواحد هو الذي نوع البشر، وليس لأنواع البشر المختلفة أن تعدد الآلهة.

وكان «بك» قد فكر كثيرًا في اختيار الصورة التي ينحت للإله تمثالًا على هيئتها، دون أن يوفق إلى ابتداع صورة يمكن أن تحوي مختلف معاني الديانة الجديدة. فلم يجد غير الملك يلتجئ إليه. وذات ليلة فاتحه في الأمر فقطب «أخناتون» وقال:

ـ أي تمثال يا «بك»؟

ـ ألسنا نتخذ لسيد «آتون» تمثالًا يوضع في معبده ليتقدم نحوه الناس بالصلاة والدعاء؟

وكان ما يتكلم به «بك» هو التفكير الطبيعي لهذا العصر.

غير أن الملك ابتسم لصديقه وقال:

ـ إن سيد «آتون» المقدس واحد لا شريك له. وهو موجود في كل مكان ولا يمكن أن يحوي عظمته وجلاله تمثال من صخر أصم. وليس الناس بمحتاجين إلى صنم يعبدون فيه الإله، بل إنهم ليسوا في حاجة إلى معبد يقيمون فيه صلواتهم. فالرجل يستطيع أن يؤدي صلاته في الحقل أو في المنزل أو في الطريق، مقتديًا بما عداه من ضروب الخلق. فالطيور حين ترفرف، والشياه

حين تثغو، والسمك حين يسبح في الغدير، والأزهار حين تفتح صدورها لأشعة الله القدسية، والرمال حين تتهامس في جوف الليل البهيم، كلها تصلي لخالقها وسيدها.

ـ وكيف يكون معبد سيد «آتون» إذن يا صاحب الجلالة؟

ـ سأجعله فسيحًا مضيئًا يسبح فيه النور، على عكس معابد «رع» و«آمون».

وسيكون يسير البناء جميل النقوش كالزهرة، ولن يحوي غير مذبح عال توضع عليه القرابين، وتعزف في أرجائه الموسيقى المقدسة حتى تكون تراتيل العباد جميلة في أذن الله.

استمع «مري رع» إلى كلام «أخناتون» وقد استغرقته نشوة قدسية. فقد كان أحب تلاميذ «أخناتون» إلى نفسه، وأكثرهم تشبعًا بتعاليمه. فما أن فرغ الملك من حديثه حتى ابتدره قائلًا:

ـ ولكن القوم يا صاحب الجلالة لا بد لهم من رمز يعرفون به سيد «آتون» ليميزوه عن بقية المعبودات القديمة الزائفة.

أطرق الملك وراح يفكر. وبعد برهة طويلة رفع رأسه قائلًا:

ـ أنت محق يا «مري رع». لقد فكرت في هذا الأمر من قبل، واليوم حين كنت أتأمل الشمس المشرقة وهي تبعث الحياة في أوصال الأرض الناعسة، تجلت لي الصورة التي يجب أن تكون رمزًا للإله. فسيد «آتون» هو سيد الشمس، والشمس هي مبدعة الحياة في الكون، ورسل الشمس إلى الأرض هي ينابيع أشعتها الحارة النابضة.

والتفت الملك إلى «بك» ووجه إليه الحديث قائلًا:

ـ فليكن رمز الإله يا «بك» هو قرص الشمس المتوهج، تنبعث منه أشعة الحياة، وتنتهي بأيد مبسوطة تغدق على الأرض الخير والحق والسعادة...

في اليوم الخامس للرحلة شعر «أخناتون» بانقباض وضيق. فقد قطع بسفينته ثلثي الطريق بين طيبة وجنوب الدلتا، دون أن يعثر بالمكان الذي صوره له الإله في الوحي. أتراه كان واهمًا فتخيل من أضغاث الأحلام وحيًا قدسيًّا؟ واستولى على الملك شك قاتل فكاد يأمر الربان بالعودة، لولا شعور خفي كان يحفزه على التقدم. لم ينم الملك في تلك الليلة، فغادر فراشه قبل مولد الفجر، ووقف عند مقدم السفينة يتأمل أعلام الطبيعة الملتفة بظلال الليل. وعاودته شكوك الأمس فعض على أنيابه وأنشب أظفاره بكفيه. فلا شيء يسحق نفس النبي أكثر من تصوره أن إلهه قد تخلى عنه، وأن ما حسبه وحيًا لم يكن إلا بعض مكائد الأرواح الشريرة العابثة. وشعرت «نفرتيتي» بغياب زوجها فغادرت فراشها ولحقت به. فوجدته مستندًا إلى سُكَّان السفين وعيناه تدمعان. أخذت الملكة وجه زوجها بين كفيها وقبلت جبينه في لهفة وهي تقول:

ـ ما لك يا «أخناتون»؟

أدار الملك رأسه بعيدًا وقال:

ـ إن نفسي حزينة يا «نفرتيتي» يخيل إليَّ أنني أغضبت الله فلم أعد ابنه القديم الذي يحبه.

ـ ما هذا القول يا عزيزي... ألأننا لم نعثر بمدينة الإله بعد؟

هز الملك رأسه وقال:

ـ لا أظننا سنعثر بها أبدًا...

أحاطت «نفرتيتي» خصر زوجها بذراعها وضمته إليها قائلة:

ـ لا يا «أخناتون». لا تيأس من رحمة «آتون» فهو لا يتركنا إلا إذا رحنا نتشكك في قدرته ولا نؤمن بصدق وحيه.

أحاط الملك خصر زوجه وهو يقول:

ـ «نفرتيتي» حبيبتي... لأنت شعلة من جمال الله... غني يا عزيزتي تلك الأنشودة القديمة التي طالما أعادت إلى نفسي الأمل.

كان المعروف في طيبة أن للملكة أعذب صوت يرتفع بالغناء، وأجمل يدين تتحركان بالوتر. وانبعث صوت «نفرتيتي» في جوف الظلام رقيقًا، لطيفًا كالأحلام:

أيها الورد الجميل
لا تبح يومًا بقولي
اكتم السر الجليل
فالظبا تهتف حولي
إنما القلب يميل
نحو معشوق مدل
آه لو يدري الخليل
منطق الورد الجليل

كانت الملكة تغني ورأسها مستند إلى كتف زوجها، وهو يضغط معصمها كلما هاجه اللحن الساحر. ولكنها حين أتمت الغناء نظرت إلى زوجها فوجدته لاهيًا عنها، يحدق بإمعان في شيء بعيد. وكان الضوء قد بدأ ينشر ألويته فخلع على معالم الأرض أردية منوعة

الألوان، وأخذت الأجسام تتضح وتتحدد. وظلت الملكة ساكنة ترقب زوجها، فوجدته جامدًا على حاله لا ينبض بحركة ما، سوى ما تشعر به من دبيب قلبه الملتصق بجسدها. ماذا دهاه؟ وفيم يحدق على هذه الصورة الغريبة؟ أيكون الوحي قد حضره وهو يستمع الآن إلى صوت سيد «آتون»؟

ملأ الجزع قلب الملكة فتكلمت في خفوت قائلة:

ـ «أخناتون»...

ولكن الملك لم يجب، وكأنه لم يسمع نداء زوجته. فوضعت «نفرتيتي» يدها على كفه فضغطته ثم قالت بصوت أكثر علوًا:

ـ «أخناتون»...

عرت الملك رعدة قوية كأنما أوقظ فجأة من نوم عميق. ثم تكلم دون أن يرفع بصره فقال:

ـ انظري إلى يمينك يا «نفرتيتي». انظري...

قفزت الملكة وتعلقت بزوجها وهي تصيح:

ـ هل وجدت المكان...

وضحك «أخناتون» بغير شعور منه، وجعل يفرك كفيه ويقبلهما ثم يرفع بصره صوب السماء ويتمتم قائلًا:

ـ الله... الله... ما أشد شفقتك ورحمتك!

وأخيرًا التفت إلى زوجته قائلًا:

ـ انظري يا «نفرتيتي»... ها هو ذا المكان المقدس ينبسط أمامي بسائر معالمه التي رأيتها في الوحي. تأملي كيف تحيط التلال بالأرض المنبسطة من ثلاث جهات على حين يكمل النيل

الدائرة التي ستبنى عليها مدينة الآلهة. سوف أسميها «أفق آتون»، «آخت آتون»، لأن فيها تلتقي الأرض بالسماء، ويتصل البشر بجمال الله...

وعاد الملك يردد في غير وعي قائلًا:

ـ «آخت آتون»... «آخت آتون»... وجدتك أخيرًا أيتها المدينة المقدسة. شكرًا يا الله... من كان يتصور أننا كنا نرسو طوال الليل قبالة المدينة، فإذا لاح الصباح وجدناها منشورة أمامنا ترحب بنا...

وانطلق الملك يعدو في أرجاء السفينة صائحًا:

«مري رع»، «حور محب»، «سمنكرع»، أقبلوا جميعًا...

الفصل الثالث عشر

أقام «أخناتون» أيامًا قليلة بموقع المدينة الجديدة ثم كر راجعًا إلى طيبة. وكان أول ما أثار عجبه حين وصل إلى العاصمة أن رأى كاهن «آمون» ماثلًا في استقباله فوق المرسى الملكي المواجه للقصر، فما إن نزل من السفينة حتى تقدم منه محييًا ومهنئًا بسلامة الوصول. ولم يستطع الملك أن يفقه سر تغير مسلك الكاهن. فقد درج «بتاح موس» في العهد الأخير على الامتناع عن حضور الحفلات الملكية إلا ما كان اشتراكه في مراسمها ضرورة دينية، أما «أخناتون» فقد مضت عليه أعوام طويلة لم يطأ في خلالها أرض معبد «آمون»، ولم يشترك في الاحتفال بأية مناسبة دينية خاصة بهذا الإله. فقد كان المتعارف عملًا بين الملك والكاهن أن يتجنب كل منهما صاحبه قدر المستطاع.

فما يكون سر هذا الود المفاجئ وقد كان الكاهن يغلي كالمرجل في آخر مرة رآه فيها الملك! أتراه عدل عن سياسة العداء فهو يسعى اليوم إلى التفاهم بغية ضم الصفوف؟ أم أن في الأمر خدعة يحيك أطرافها ليأخذ الملك على غرة؟

مهما يكن الأمر فهذه فرصة كان ينتظرها الملك منذ زمن طويل. فكان أن اصطُحبا إلى القصر ودعاه الملك إلى تناول الغداء. وبعد أن انفض شمل المدعوين استبقاه معه بالرغم من محاولته الهرب. ودار بينهما حديث طويل، فحدثه الملك عن «آتون» إله الحب الذي تضحك الأرض بكل ما عليها جذلًا لرؤيته، فتتلألأ الأزهار بسنا التشوق إليه، ويشب النبت لاستجلاء طلعته، وترقص الخراف على حوافرها، وتندفع الأطيار من أعشاشها فرحى، فتفتح أجنحتها المغلقة، وتوقع بحفيفها أناشيد الحب لـ«آتون» الحي الذي لا يموت(*)

كان الكاهن يستمع إلى حديث الملك وهو يغالب نفسه حتى لا ينفجر ضاحكًا. فقد بدا له فرعون في هذه اللحظة غرًّا ساذجًا لا علم له بنفوس الرجال. ومع ذلك فإن تلك المحاولة اليائسة قد أثارت في نفس الكاهن نوعًا من الإعجاب بهذه النفس التي لا تهاب أحدًا، ولا تفرق بين عدو وصديق، بل تعامل الجميع بصراحة وإخلاص. إن «أخناتون» قيثارة لا تحسن أن تعزف إلا كلمات الإله، فهي لا تهبط بأنغامها إلى درك مجاملة الناس لتنمق لهم ما يرضي أسماعهم المفتونة.

ابتسم «بتاح موس» وراح يحاور الملك قائلًا:

ـ إن «آمون» يا صاحب الجلالة يعطف هو الآخر على من يعبده من البشر.

(*) كلمات «أخناتون» بتصرف.

فاندفع الملك في ثورة قائلًا:

ـ كلا يا «بتاح موس» إن «آمون» إله حرب وقتل ودماء. إنه طاغية يتطلب من أتباعه أن يقترفوا شتى الجرائم مرضاة له، أما هو فلا يرفع أصبعًا إلا بعد أن تقدم له الفديات والقرابين، لقاء ما يُطلب منه من خدمات، إنه إله أجير... إله جشع دموي، عنيف الحقد إذا أغضبه البشر، شديد الغيرة إذا ذكرت الألسنة إلهًا غيره.

تريث الملك لحظة ثم عاد يقول:

ـ أصدقني يا «بتاح موس» إن «آمون» لو تجسد بشرًا لكان قاطع طريق، ولحكمت عليه بالقتل.

وانصرف الكاهن من لدن الملك تاركًا وراءه وعودًا ملتوية لا تنصرف إلى شيء. فلما دخلت الملكة «تي» على ابنها وجدته حزينًا مكتئبًا، فراحت تطيب خاطره قائلة:

ـ لا تلقِ بالًا لـ«بتاح موس» يا بني، فسوف أبقى في طيبة بعد رحيلك لأرقبه عن كثب. وأظنني كفؤًا له، فلا يزال في وسعي أن أحطم كل حرابه اليوم كما حطمتها من قبل.

ـ أما تزالين عند رأيك، ألا تصحبيني إلى «مدينة الأفق» يا أماه؟

ـ هذا القصر وتلك البحيرة هما يا بني مملكتي الصغيرة التي إن فارقتها اختنقت ومت.

ـ لك ما تريدين يا أماه. إنك لا تؤمنين بديانتي لأنني ابنك الذي عرفته قبل أن تنبت أسنانه. فأنت تعتقدين أنني من صنع يديك ولذلك لا يمكنني أن آتي بشيء جديد لا تعرفينه من قبل. إنني عندك ابنك «أمنحتب» على الدوام. أليس هذا عجيبًا يا أماه...

أقرب الناس من صاحب الرسالة هم أبعدهم عن أن يعتقدوها... كأنما يخيل إليهم أنه ليس من حق قريبهم أن يبتكر فكرة فذة، أو أن ينادي بمذهب جديد، بل عليه أن يبقى دائمًا «قريبهم» فحسب. فإن فعل غير ذلك اعتبروه خائنًا أو مجنونًا... هذا عجيب يا أماه!

ـ إنك تسيء الظن بي يا «أخناتون»، فأنا أومن بـ«آتون» بقدر ما يتسع إدراكي لفهمه.

ـ هوني عن نفسك يا أماه. فلست أجبر أحدًا على اعتقاد شيء لا يقبله قلبه.

راح الملك يخطر في الحجرة وهو مطرق، فقد كان شديد الاحترام لوالدته، وكان إيمانها بديانته مما يدخل على قلبه أعظم السرور. ولكنها هي وكاهن «آمون» والوزير «رع موس» قد استووا جميعًا في عجزهم عن فهم عقيدة «آتون»، وإن اختلفت دوافع كل منهم.

وقف الملك فجأة وخاطب أمه قائلًا:

ـ لقد أخبرني كبير الأمناء منذ لحظة بأن «رع موس» يريد مقابلتي، فهل من جديد؟

ـ إنه يريد أن يقدم استقالته من منصب الوزارة.

ـ لم؟ هل صدر مني ما أغضبه؟

ـ لا يا «أخناتون» فلن تجد من يحبك ويخلص لك أكثر من «رع موس». ولكنه يقول إنه قد شاخ وهرم. ثم إنه يريد أن يفسح لك المجال لكي تختار للوزارة من عساه يكون أكثر معاونة لك منه. إنك تفهم الدافع له بالطبع.

ـ أجل يا أماه. وإني لأقدر له هذه العاطفة، إذ الواقع أنني أصبحت شديد الحاجة إلى رجل يعاونني على قلب نظم المجتمع الظالمة بحماسة لا أظنها تتسنى لـ«رع موس».

ـ وهل وقع اختيارك على من يخلفه؟

ـ صديقي الأمير «نخت» حاكم الإقليم الرابع عشر.

ـ ولكن هل تقدر خطر هذا العمل يا «أخناتون»؟ إن «رع موس» هو آخر حلقة تصلك بالعهد القديم، فمن الحكمة الإبقاء عليه وإلا حدث انفصال تام بينك وبين المحافظين من النبلاء ورجال الدين، فتنقسم الدولة معسكرين مختلفي المبادئ والأغراض. وهذا أكبر خطر يهدد الدولة.

لم يجب «أخناتون» على الأثر، بل انسرحت عيناه كأنما تتأملان المستقبل البعيد ثم راح يقول:

ـ لن يكون إلا معسكر واحد يا أماه، لا في مصر وحدها، بل في العالم أجمع. معسكر «آتون» الذي سيضم الأبيض والأحمر والأسود.

صمتت الملكة «تي» ولم تجب فقد علمتها محاوراتها لابنها ألا جدوى من هذه المناقشات، فهو عنيد صلب الإرادة، وهي حين تتحدث إليه في أمور السياسة العملية، يشرد منها إلى آفاق التصوف والأفكار المجردة، فلا يفهم كل منهما صاحبه. وبعد أن طال بينهما السكوت لحظات تحدثت الملكة قائلة:

ـ لقد جاش بخاطري أمر أحببت أن أفضي به إليك منذ مدة طويلة. ولكني أردت نفسي على التريث لعل الأقدار تعمل على رفع دواعيه، فتعفيني من مؤنة التدخل في شؤونك الخاصة.

قطب الملك برهة، ثم قال:

ـ أظنني أدرك ما ترمين إليه يا أماه.

ـ حسنًا؟

هز «أخناتون» رأسه، ثم قال:

ـ كلا يا أماه. لن أتزوج غير «نفرتيتي» فلست أحب سواها.

ـ ولكن هل نسيت أنك قد أعقبت منها إلى الآن أربع بنات، ولم تعقب ولدًا واحدًا يخلفك في الحكم؟

أطرق الملك مفكرًا، فلطالما عذبته هذه الحقيقة في زمن ما، إذ كان يخيل إليه أنه ليس من يستطيع إتمام رسالته، والإبقاء على شعلة «آتون» موقدة متوهجة، غير ابن ينحدر من صلبه. ولكنه بعد أن رزق ابنته الثانية «ميكتانون» هبط عليه شعور واضح بأن الابن الممتاز لا يمكن أن يتم رسالة أبيه، بل عليه أن يأتي برسالة أخرى مخالفة، وهذا ما لا يريده هو. وحينئذ أدرك حكمة أبيه «آتون» إذ عمد عن قصد إلى أن يجعل كل ولده إناثًا.

رفع الملك رأسه وخاطب والدته مبتسمًا:

ـ إنني لن يولد لي ذكر يا أماه ولو تزوجت نساء العالم أجمع، فهذه إرادة الله.

عقدت الملكة «تي» حاجبيها دهشة وقالت:

ـ من قال هذا يا بني.. إن الرجل الذي يعقب البنات يعقب البنين أيضًا. أما المرأة فقد لا تستطيع ذلك.

هز الملك رأسه وقال:

ـ إنني لست ككل الرجال يا أماه. لقد شاء أبي «آتون» أن يرفعني

إلى عليا درجات السمو، بحيث لا يمكن أن يأتي من صلبي من هو أشرف مني. إن إرادتي جبارة يا أماه، وزوجي «نفرتيتي» أذكى النساء. فلو أنني أعقبت ذكرًا يجمع بين إرادتي وذكاء أمه لما كان من البشر.

كذلك لم تفز الملكة بطائل من حوارها لابنها شأنها في كل حديث معه.

* * *

حين غادر «أخناتون» أرض «مدينة الأفق»، ترك بها أحسن مهندسيه ليقوموا بتخطيط طرقها، وتفصيل قصورها ومعابدها، وفقًا لإرشاداته التي بينها لهم. أما «بك» رئيس مهندسيه ومثاليه فقد اصطحبه إلى طيبة، ثم أرسله بعد ذلك إلى منطقة الشلال الأول ليقتطع من محاجرها الجرانيت الأحمر لتزيين صروح معابد المدينة الجديدة. وأتم «بك» مهمته ثم عاد إلى «آخت آتون» فأنفق مع معاونيه عامين طويلين في العمل المتواصل المحموم. فلما أتم عمله برزت المدينة على خد النيل تبهر الأنظار بآيات الجمال التي تتجلى في كل مبنى وعلى كل صورة وتمثال. أما ما كان يحير العقل حقًّا فهو أن يتم بناء مدينة تضارع طيبة أبهة وجمالًا في هذا الزمن الوجيز، الذي لم يكن يكفي لبناء صرح معبد واحد في عهد الفراعنة الغابرين. ولكن «أخناتون» رب معجزات. وليست «آخت آتون» إلا أروع معجزاته، حتى لقد وصفها أحد أتباعه بقوله: «إن من يقع بصره على روعة مدينة «أفق آتون» فكأنما أبصر السماء».

وأخيرًا أزف موعد الارتحال النهائي من طيبة، فودع «أخناتون»

والدته كما ودع وزيره السابق «رع موس» بعد أن أغدق له العطاء. ثم استقل السفينة الملكية ونزل في النهر العظيم وفي إثره سفائن الأمراء ورجال الحاشية وكبار الموظفين، هكذا خلت طيبة دفعة واحدة من أشرافها وعظمائها، فلم يبق فيها غير الملكة الوالدة وكاهن «آمون». حتى النبيل «آي» وزوجته «تاي» والدا الملكة «نفرتيتي» تركا قصرهما المنيف بطيبة وارتحلا مع الملك.

وكان الاحتفال بافتتاح مدينة «أفق آتون» يعز على الوصف، وتعجز عن أن تصوره الألفاظ. استقل الملك عربته الملكية المكسوة بالذهب والمحلاة بالأزهار وريش النعام وخرج في إثره... يا للعجب! الملكة «نفرتيتي» تقود عربتها بيدها، ومن ورائها الأميرات الصغيرات في عربة ثالثة يقودها كبير أمناء القصر، عقدت الدهشة ألسنة الشعب المصطف على جانبي الطريق، فقد كان يرى أول مرة في تاريخه ملكته تتولى قيادة عربتها في محفل عام. وتوالت على الأثر عربات النبلاء والأمراء فدوت الطرقات بوقع أقدام الخيل، والتمعت ببريق العربات الزاهية وألوان الملابس المطرزة، وضياء الشرائط المهفهفة، وريش النعام المتعدد الألوان.

وصل جنود الملك الذين يتقدمون الموكب إلى أبواب المعبد الأكبر فسجد كهنة المعبد وظلوا خاشعين حتى نزل «أخناتون» من عربته فتقدم أربعة من العبيد يحملون محفات من ريش النعام، فظللوا بها الملك والملكة إلى أن دخلا بهو المعبد الخارجي، الذي وقفت فيه عجول سمينة تحوط رقابها الضخمة أطواق من ورق الشجر، على حين عقدت حول قرونها باقات من زهر اللوتس المقدس.

وفي البهو الداخلي للمعبد جلست جماعتان من القيان يرتدين حرائر هفَّافة ويعزفن على الأوتار ويقرعن الطبول.

دخل الملك وحاشيته إلى قاعة المعبد الكبرى، فتقدم «أخناتون» وزوجته من المذبح المرتفع، الذي كان محملًا بشتى القرابين من طيور وخضر وفاكهة وأزهار، تعلوها أوعية من الذهب حاوية الزيت المقدس. وكان الملك هو رئيس الكهنة أيضًا، فأخذ بيمينه البخور العطر ونثره فوق النار المشتعلة في أسفل المذبح. ولما امتلأ المعبد بدخان الأبخرة العطرة، شرع ثمانية من الموسيقيين العميان في العزف على الأوتار، فبدأ الكهنة والقيان في ترتيل الأناشيد. واستمر الإنشاد إلى أن رفع الملك يمناه فسكت المرتلون وبدأ «أخناتون» يصلي قائلًا:

ـ يا سيد «آتون» يا خالق الكون، أيها الإله الواحد الذي لا شريك له، تقبل صلاة ابنك الذي يحرق نفسه في شعلة حبك.

إنك تخلق الجنين في بطن أمه، ثم تحنو عليه حين يكبر، فتتعهده بعطفك حتى لا تدمع عيناه، وتحبوه برعايتك لكيلا يتألم جسده.

إن حبك ليجعل اليد ترتجف من النشوة والفؤاد يغشى عليه.

فما أعظم سرور الذي يدين بدينك، فهو فرح كلما حظي بمشاهدتك إلى الأبد.

ما دمت راعيَّ يا الله فلن أحتاج. لأنك أنت ثروة الفقير، والرجل الذي يحلك في قلبه غني. مثل هذا الرجل لن يقول: «آه لو أملك هذا ولو أملك ذاك»...

إنك ينبوع الخصب يا الله، فمنك طعام مصر العزيزة.
أنت هو عماد الخليقة يا «آتون» فمن اتكل عليك فكأنما اعتمد على صرح من النحاس يزن ألف ألف مثقال.
أنت إله الحظوظ والأقدار، عالم الغيب، وينبوع المستقبل المجهول.
أنت ذكرى الأزل لكل من ضعف إيمانه وزاغ قلبه.
ما أعظمك يا سيد «آتون» فأنت الدافع الحيوي الكامن في كل ذرة على الأرض والسر العظيم الذي يخفق به صدر كل عصفور.
ما أجملك يا سيد «آتون». حين يفيض حسنك على قلوب الرجال تنبض فيها الحياة الحقة فترى أفئدتهم النور...

وحين أتم «أخناتون» صلاته ركع على ركبتيه ثابتًا فترة طويلة وأخيرًا رفع بصره صوب السماء وقال:

ـ يا سيدي «آتون» إنني أقف هذا المعبد، وكل ما بنيت من معابد على خدمتك وعلى عبادتك وحدك أيها الإله الذي لا شريك له. ولتسمح لي يا الله بأن أعين خادمك المؤمن «مري رع» رئيسًا لكهنتك.

لم يكن الملك قد فاتح صديقه في أمر تعيينه في هذا المنصب السامي. ولذا فوجئ «مري رع» حين سمع كلمات الملك حتى كاد يكذب أذنيه. فقد كان المفهوم أن «أخناتون» سيظل رئيسًا لكهنة «آتون» فهو المعلم الأول الذي نزل عليه وحي الدين الجديد، إلا أن الملك شعر حين انتقل إلى مدينته الجديدة بأن

أعباء الحكم المتكاثرة لن تترك له الوقت الكافي لخدمة إلهه على الوجه الكامل. ثم إن «أخناتون» وجد أنه إذ يُعود أتباعه على أن يباشروا أمور ديانة «آتون» بأنفسهم يضمن بذلك استمرار توهج شعلة الدين بعد وفاته.

غير أن موضع الدهشة في أمر هذا التعيين أنه انصب على القائد «مري رع» على حين كان المظنون أن «سمنكرع» أجدر منه بهذا المنصب. فقد كان «سمنكرع» أقدم أصدقاء الملك وأول مريديه. ثم إنه كان في ذلك الوقت مخطوبًا لابنة «أخناتون» الكبرى الأميرة «مريت آتون». وكان المفهوم من أمر هذه الخطبة أنها الخطوة الأولى لتمكين «سمنكرع» من أن يخلف «أخناتون» في الحكم بعد مماته فإن زواجه من ابنة الملك يجعل له حقًّا شرعيًّا في اعتلاء العرش. ولكن «أخناتون» كان أعرف الناس بنفوس أصدقائه. فـ«سمنكرع» أنبل رجال مصر دون شك. كما أن حرارة إيمانه لا يمكن أن تكون موضع جدال. إلا أن عقله كان أكبر من قلبه فهو لا يؤمن بشيء إلا بعد أن يقتله تفكيرًا وبحثًا، أما «مري رع» فقد كان يؤمن أولًا ويفكر بعد ذلك. ولهذا لم يكن يخالج قلبه غمامة من شك أو تردد. ولقد آمن بسيد «آتون» فاستغرقه هذا الإيمان ونفذ إلى أدق ذرة في جسده. ولم تكن معاني الديانة الجديدة لتحتمل نقاشًا في نظره بل هي الحقيقة الكاملة لا نزاع ولا دفاع.

تقدم «مري رع» بين الصفوف، ووقف وراء الملك، فشخصت الأبصار إلى رجل الساعة، الذي ارتقى فجأة إلى أسمى منصب في الدولة فأصبح الزعيم الثاني بعد فرعون وارتقى فرعون درجات

المذبح المقدس، ثم أشار إلى «مري رع» بالتقدم، فلما صار في مواجهة الملك سجد تحت قدميه وظل خاشعًا. ومد «أخناتون» يده فوضعها على رأس صديقه ثم خاطبه قائلًا:

ـ استمع إليَّ يا «مري رع». لقد عينتك بدلًا مني رئيسًا لكهنة «آتون» بمدينة «آخت آتون». لقد أنعمت عليك بهذا المنصب فمنذ اليوم تعيش من خيرات سيدك فرعون في هذا المعبد.

ولما أتم الملك خطبته نزل من المذبح وأشار إلى رئيس كهنته بأن يرتقي مكانه فصعد «مري رع» إلى المذبح وبدأ يؤم المصلين بدلًا من الملك.

حين انتهى رئيس الكهنة من تلاوة الدعوات والصلوات، ساد المعبد سكون قصير، ثم فوجئ القوم حينئذ برؤيتهم الملكة «نفرتيتي» تتقدم من المذبح وفي إثرها ابنتها الكبرى «مريت آتون». ولم يكن من الغريب أن تتولى امرأة فرائض الصلاة، فقد اعتادت المصريات من قديم الأزل القيام بمراسيم العبادة في معبد إلهتهم «هاتور» فيرتلن لها ويرقصن. ولكن موضع العجب هو أن تشترك الملكة في فروض الصلاة في معبد الدولة عينه وفي محفل رسمي جرت العادة بألا يظهر فيه غير فرعون وحده.

جلست الملكة على درج المذبح وتناولت المعزف من ابنتها، ثم بدأت توقع عليه بيديها الجميلتين لحن «آتون». وفي وسط الأنغام العذبة التي ملأت المعبد الصامت، ارتفع صوت الملكة الرخيم بالأغنية الخالدة التي وضعها «أخناتون» لترتل في الحفلات الرسمية بدلًا من الصلوات القديمة. فاستمع أهل «مدينة الأفق» أول مرة مدحة

سيد «آتون» ترددها زوج الملك. ولم يكن ما طرق آذانهم في ذلك اليوم مما سبق أن سمعوا بمثله طوال العمر. فلقد راعهم فرعون على لسان قرينته بلغة ساحرة تعبر عن معان جديدة فاتنة.

انطلقت الملكة تنشد قائلة:

آتون...
ما أجمل شروقك في أفق السماء
آتون...
يا مبدع الحياة
حين تنهض من المشرق تمتلئ الأرض بحسنك
وتخلع على المرئيات جمال نفسك
إن أشعتك تحتضن البقاع، وكل ما سويت من خلق
فيتحدث الجميع بمحبتك
إنك بعيد، ولكن أشعتك في الأرض
إنك سامٍ، ولكن النهار أثر قدميك

* * *

آتون...
حين تشرق تهرب الظلمات
فتضج أرض مصر بأعياد النهار
ويقف البشر على أقدامهم، بعد أن أيقظتهم من سباتهم
فيستحمون ويلبسون، ويمدون أكفهم يعبدون شروقك
وحينئذ يهبون إلى عملهم في سائر جنبات الأرض

* * *

آتون...

ها هي ذي الماشية ترعى العشب
وأفنان الشجر تأتلق بالزهر
ها هي ذي الطيور ترفرف في أرجاء السماء
وبأجنحة مبسوطة تتعبد لك
ها هي ذي الدواب ترقص على حوافرها
وكل من له جناحان يبادر بالطيران
ها هو ذا السمك يقفز أمام جلالك
والشراع يهبط ويصعد على أمواج النهر
آتون...

إنما تحيا المخلوقات جميعًا، حين تطلع عليهم بنورك الوهاج(*)

* * *

حين أتمت الملكة ترتيلها العلوي بقي المصلون في سكونهم وطال هذا السكون. كانوا كأنما نزلت بهم صاعقة يبست لها أعضاؤهم وثبتت نظراتهم، فأصبحوا في حاجة إلى هزة عنيفة ترفع عن نفوسهم طلاسم السحر، وتعيدهم إلى رشادهم المسلوب. ولكن أنى لهم ذلك. فلما أن طال توتر أعصابهم سمعت صيحات انبعثت من أفواه بعض المصلين. ورُئى الملك ورئيس كهنته يبكيان. كان القوم يشعرون بسعادة قدسية لم تحسها أفئدتهم من قبل. وفي هذا اليوم أصبح «آتون» لدى معظم أتباع الملك ورجال

(*) فقرات من أنشودة «آتون» التي وضعها «أخناتون» منقولة بتصرف قليل.

الدولة حقيقة ملموسة تدركها قلوبهم، لا مجرد دين جديد ينادي به فرعون.

كفكف «أخناتون» دمعه وسجد. وظل على سجوده برهة إلى أن هدأت نفوس المصلين وخفتت أصواتهم. وعندئذ مد يمناه صوب المذبح ورفع صوته قائلًا:

ـ هذا معبدك يا «آتون» وهذه مدينتك.. وسيأتي إلى هذا المكان عامة البشر من مختلف الأنحاء فتصبح «آخت آتون» عاصمة أقابل فيها كل الرسل والأقوام الوافدين من الشمال والجنوب والشرق والغرب.

ما إن أتم الملك كلامه حتى ارتفعت همهمة من جمهور المصلين، فإن ما قاله كان مفاجأة لهم جميعًا. فقد كان المعروف إلى ذلك اليوم أن «آخت آتون» ستكون مجرد مقر للديانة الجديدة، كما أن منف مقر عبادة «رع» وطيبة موطن لـ«آمون». وكانوا في ذلك يفكرون بعقليتهم القديمة التي لم تكن لتتصور وجود الله دون أن يكون له مقر من بعض مدن مصر. ولكن ها هم أولاء يسمعون أن «مدينة الأفق» لن تكون مقر «آتون» فحسب، بل ستصير عاصمة الدولة. وطيبة... طيبة القديمة الخالدة!

انتظر «أخناتون» حتى ذهبت همهمة القوم وتابع مناجاته قائلًا:

ـ لقد شيدت «آخت آتون» لتكون مسكنًا لك يا والدي الإله. وأظهرت حدودها من جميع الجهات، وهذا هو قسمي الأبدي أذكره أمامك: لن أتعدى طوال حياتي حدود «آخت آتون» الجنوبية متجهًا نحو الجنوب، كما أنني لن أتعدى حدودها

الشمالية سائرًا نحو الشمال... لقد صنع الإله دائرته هذه لنفسه وجعل في وسطها مذبحه الذي أقدم عليه القرابين لأجله... فلتكن إرادة الله(*)

انتهت الحفلة الرسمية بانتهاء هذا القسم، فعاد الملك وزوجه إلى القصر، وانصرف الناس حيارى، لا يعرفون كيف يبتون برأي فيما سمعوا وشاهدوا. ولقد كان الشطر الآخر من القسم أكثر إدهاشًا لهم من شطره الأول، فماذا يعني الملك بقوله إنه لن يفارق «آخت آتون» مدى حياته؟

لا شك في أنه قسم غامض علمه عند فرعون وحده. غير أن الأحداث لم تلبث أن أطلعت شعب مصر على حقيقة مقصد «أخناتون».

* * *

ترامت أنباء حفلة افتتاح المدينة الجديدة إلى طيبة. فبهتت الملكة «تي»، أما «بتاح موس» فقد ضحك وفرك يديه فرحًا. إن كان الملك قد أقسم أنه لن يغادر مدينته الجديدة فقد ضمن للكاهن بأن طيبة ستظل خاضعة لتأثيره وحده.

كان الكاهن في هذا الحين قد اكتنه شخصية الملك، وعرف أنه لا يؤخذ بالوعيد، بل إنه إذا هدد تمادى وطغى. فأراد الكاهن استغلال عناد الملك حتى يطمئن إلى عدم عودته إلى طيبة، فجمع بعض أعيان العاصمة القديمة وطلب إمضاءهم لقرار أرسله إلى «أخناتون».

(*) كلمات «أخناتون».

كان عمل الكاهن متناهيًا في الجرأة. فالقرارات التي أرسلها للملك عنوانها «رأي حزب الإله «آمون» في التطورات السياسية الأخيرة». وتلا ذلك كلام كثير عن وجهة نظر هذا الحزب في ظهور الملكة في حفل رسمي واشتراكها في مراسيمه، وكيف أن هذا ينافي التقاليد المصرية الثابتة منذ الأزل، فضلًا عن خروجه على قواعد الأخلاق. ثم أعقب ذلك اعتراض شديد على جعل «آخت آتون» عاصمة الإمبراطورية المصرية، واعتراض أشد على قسم الملك بأنه لن يبرح المدينة الجديدة، وانتهت الرسالة بقرار أخير فحواه أن حزب الإله «آمون»، إذ يعبر عن معارضته لكل هذه التصرفات، لا يزال يعتبر طيبة عاصمة الدولة الرسمية.

كانت هذه هي المرة الأولى التي رفع فيها الكاهن القناع، فأظهر مناوأته للملك في صورة علنية، ولم يتحرج من أن يذكر اسم حزبه صراحة على أنه حزب مستقل لا يخضع في سياسته لسلطة الملك. أما الدافع إلى هذه الخطوة الجريئة، فهو إحساس الكاهن بأن الوقت قد حان لكي يظهر علنًا في ميدان السياسة ليوطد سلطته في طيبة، وليجمع حوله كل الفئات المتبرمة من التطورات التي أجراها الملك. فإن المعارضة لا تتخذ شكلًا خطيرًا مؤثرًا إلا إذا ظهرت في صورة مجسمة، تجذب إليها كل غاضب ساخط. وكانت هذه هي خطوة الكاهن الأولى.

وقد أدرك من ساعته أنها خطوة موفقة.

حين قُرئت الرسالة أمام الملك ضحك في خفوت، والتفت إلى قائده «حور محب» قائلًا:

ـ ما هو «حزب آمون» هذا يا «حور محب»؟

فضحك القائد ساخرًا، وقال:

ـ لا تلق إليه بالًا يا صاحب الجلالة، فما هو إلا خرافة في رأس كاهن معتوه.

عض الملك على أسنانه، ثم قال:

ـ إنها خرافة حقًا. ولكني عقدت العزم على استئصال كل الخرافات. و«آمون» أكبرها وأكثرها خطرًا.

وعاد الملك يتأمل رسالة الكاهن ثم قال:

ـ أرى أنهم ينتقدون مسلك زوجتنا الملكية، هؤلاء الكذبة المنافقون...

لقد انقضى عهدهم المظلم إلى غير رجعة، ويجب أن يكون للمرأة كل حقوق الرجل.

أرخى «حور محب» بصره ثم قال في تردد:

ـ أنت تعلم يا صاحب الجلالة أن فرعون في القديم كان يركب عجلته منفردًا فيبدو عظيمًا فذًا ساطعًا. ولكنك يا مولاي تستقل العربة الملكية مع صاحبة الجلالة، ومن حولكما صاحبات السمو الأميرات. ألا يخشى مولاي أن يخيل للشعب...

فقاطع «أخناتون» قائده في ثورة قائلًا:

ـ الشعب... إننا نفعل ذلك لأجل الشعب. إن فرعون القديم لم يعد. أما فرعون الجديد فهو زوج يحب زوجته، وأب يعطف على أطفاله. هذا ما يجب أن يعرفه كل مصري حتى يترسموا خطانا فيه. فلقد آن الأوان لكي يفهم الناس أن الزوجة ليست

أمة وأن الأطفال هم هدية الله. إن الرجل المخلص لوطنه يجب أن يكون مخلصًا لأسرته أولًا

صمت فرعون لحظة وهو مقطب، ثم قال:

ـ لست أدري لماذا لا يريد الناس أن يحب بعضهم بعضا. ولماذا يتحرجون من إظهار هذا الحب، على حين أن الرجل إذا كره أخاه أعلن ذلك على الملأ، وجعل من مظاهر حقده وتدابير انتقامه رموزًا للنبل والشرف... إن الإنسان ليس بشرير، فهل تراه قد جن؟

وعاد «حور محب» يقول:

ـ إن أهل طيبة يا مولاي حين يرون جلوس الملكة إلى جوارك في الحفلات الرسمية، وإحاطتك خصرها بيديك، أو إمساكها بكفك وهي مستندة برأسها إلى كتفك، يعدون ذلك كله خروجًا على التقاليد الفرعونية، بل إنهم يقولون إن فيه ما يمس الأخلاق.

قهقهه الملك ضاحكًا وقال:

ـ حقًّا يا «حور محب»؟ غدًا حين أستقل العربة الملكية لأتلقى جزية المستعمرات سأقبل زوجتنا العزيزة على مسمع ومرأى من شعب مصر وسفراء آسيا، ليعلم العالم بأسره أن فرعون لا يخاف إظهار حبه لقرينته. ولعل في هذا ما يطيب خاطر صديقنا كاهن «آمون».

وسرعان ما هوى الملك بيده على المنضدة صائحًا:

ـ «آمون»... كيف سمحت لنفسي بأن ألفظ بهذا الاسم البغيض..

بل كيف أسمح لغيري أن ينطق به، وكيف أحتمل وجوده محفورًا على معابد أجدادي وفي مقبرة أبي؟

وفي الغد أصدر «أخناتون» أخطر مرسوم وقعه في حياته، فأتم بذلك الحلقة الأخيرة، في محاربته لديانة «آمون». قضى هذا المرسوم بإغلاق معابد هذا الإله في سائر أنحاء القطر ابتداء من طيبة وبمنع عبادته منعًا باتًّا، وقضى كذلك بمحو اسم «آمون» من جميع المعابد والمقابر وسائر الآثار الفرعونية على وجه عام. أما الأهالي فعليهم أن يقدموا كل ممتلكاتهم التي تحمل اسم «آمون» لتقوم السلطات بمحوه منها. كما كلف كل من يحمل اسمه لفظ «آمون» بأن يغيره خلال عشرة أيام على أن يختار لنفسه اسمًا مشتقًّا من لفظ «آتون» الإله الواحد الذي لا شريك له.

ولقد نفذ الملك هذا المرسوم بدقة عجيبة. فقد أنفذ رسله في سائر أنحاء المملكة يمحون اسم «آمون» وكل اسم ملكي يحتويه من كل حائط أو حجر أو مسلة. ولقد كان من مبالغته في إنجاز ذلك أن فتح قبر والده فأجرى فيه هذا التغيير، وصار يكتب كلمة «آتون» باللون الأحمر فوق لفظ «آمون» الممحو. أما اسم والده نفسه «أمون حتب» فقد محاه أيضًا واستعاض عنه باسمه الملكي الثاني «نيمارا». وحتى اسم «أخناتون» القديم «أمنحتب الرابع» فقد مُحي بدوره ووضع بدلًا منه اسمه الجديد...

يقينًا لو أن الملكة «تي» كانت بجوار ابنها في هذا الحين لما صدر هذا المرسوم الذي جلب الشؤم في ركابه.

الفصل الرابع عشر

كانت السنون الأولى التي قضاها «أخناتون» في «مدينة الأفق» أسعد سني حياته. غير أنه كان يضني نفسه في العمل المتواصل إلى درجة لا يتصورها عقل. فكل قانون يسن، وكل حجر يقام، وكل تمثال ينحت، لا بد أن يشرف عليه بنفسه. وكان الملك يعتمد في هذا النشاط على عزيمته وحدها. أما صحته المضعضعة فلم تكن لتحتمل شيئًا من هذا الجهد. ولكن للطاقة البشرية حدًّا تقف عنده، فما أن مضت أربع عشرة سنة على توليه الحكم حتى قهره المرض وانتابته الآلام، فساءت صحته وضعف جسمه، مع أنه كان لم يزل في أوائل العقد الرابع من العمر. وكثيرًا ما اضطر إلى تصريف شؤون الدولة وهو على فراش مرضه.

وبلغ الملكة «تي» نبأ مرض ابنها. فغادرت قصرها بطيبة وهرعت إليه، ونزلت بقصرها الجميل الذي أعده لها منذ بنى مدينته الجديدة. ولقد اشتركت «آخت آتون» بأسرها في استقبال الملكة الوالدة فأقيمت لها المآدب، ونظمت من أجلها المهارج، ولم يدخر الملك

وسعًا في إظهار مبلغ حبه واحترامه لوالدته. غير أن مرض الملك لم يكن السبب الوحيد لزيارة والدته له. فقد كان وجود الملكة «تي» في طيبة سبيلًا إلى أن تكون على مقربة من مختلف تيارات السياسة الخفية التي انقطع خبرها عن بلاط الملك.

كانت طيبة في هذا الحين موقدًا يتأجج بعناصر الثورة المستترة، التي تجمعت تدريجًا حول «بتاح موس». فلقد شغف شعب مصر في أول الأمر بديانة «أخناتون» الجديدة، ودفعهم إيمانهم الفتي وجمال تعاليم الملك إلى الترحيب بديانة «آتون». ولكنهم حين فترت سورة إعجابهم بملكهم الفتي، نظروا إلى ما منحهم إياه، فإذا بهم قد استعاضوا عن إلههم الصنم المجسم السهل الإدراك، بمعان مجردة لا يفهمون لها معنى، ولا يعرفون كيف يعبدونها.

إن الملك يقول إن تأمل الطبيعة هو أجمل صلاة. فهل هذه عبادة يمكن أن يستعينوا بها على زيادة محصول أرضهم أو الكيد لأعدائهم؟ وأين هذه الأساطير المقدسة عن صراع الآلهة التي كانت تملأ حياتهم الفكرية؟ إن الإله الواحد الذي ينادي به «أخناتون» معبود ممل غامض، لا ينتظر أن تتم على يديه مخاطر شائقة كتلك التي قام بها الآلهة القدماء... وكانت هذه الفئة من المتبرمين بالديانة الجديدة هي أخطر الفئات جميعًا، فهي تنذر بانضواء سواد الشعب تحت لوائها، ولا سيما أن «بتاح موس» قائم وراءها، يلهب صدور أفرادها، ويغرس في نفوسهم بذور الثورة.

وما إن حدثت الملكة «تي» ابنها في هذا الأمر، حتى نظر إليها مليًّا ثم قال بصوت حزين:

ـ أجل يا أماه. لقد شعرت منذ حين بما تحدثينني به.

ـ وماذا فعلت؟

ـ لا شيء.. إنني لا أضطر أحدًا إلى الدخول في ديانة «آتون» بالقوة، بل تنحصر مهمتي في أن أظهر لهم بالحجة والبينة ما تحويه هذه الديانة من جمال. ولكن يخيل إليَّ أن البشر يكره الجمال يا أماه، ويستهويه القبح والظلم. فأنت اليوم تحدثينني عن الشعب. وقد تكون للشعب أعذاره. ولكن ما بالك بخاصتي وأصدقائي...

وأطرق الملك وطال إطراقه، فاقتربت منه أمه ووضعت يدها على رأسه. ثم قالت:

ـ ما لك يا ولدي العزيز؟

ـ يداخلني شعور خفي يا أماه أن أيام سعدي قد تزايلت. ويخيل إليَّ على مضى الأيام أن أحدًا من الناس لم يستطع فهم حقيقة ديانتي، وأنني وحدي من يدرك معنى الله. الآن بدأت أدرك معنى كلمات أبي «آتون» حين أوحى إليَّ أن أقول: «أنت في قلبي يا الله. ولا يعرف سرك إلا ابنك «أخناتون» الذي جعلته عاقلًا بآرائك وقوتك». أما الآخرون، فمهما يبلغ من إخلاصهم لي، فهم لا يزالون في الواقع أميَل إلى آلهتهم القديمة العاتية.

وصمت «أخناتون» حينًا ثم استأنف يقول:

ـ ومع ذلك فقد أكون مخطئًا. إن الحقيقة لا يمكن أن يخفى أمرها على البشر.

أقامت الملكة «تي» إلى جوار ابنها تشدد من عزيمته وتحبوه

بنصحها. غير أنها كانت قد شارفت على الستين وأخذت صحتها تتدهور بسرعة مخيفة.

وذات صباح وجدت في فراشها وقد شل نصفها الأيسر، فأصبحت لا تقوى على النطق. ولم يمهلها المرض إلا أيامًا معدودات لم يفارق فيها «أخناتون» وسادها.

وأخيرًا فاضت روحها بين ذراعي ابنها المنتحب، فانتهت بموتها حياة أعظم امرأة في تاريخ الإمبراطورية الفرعونية بعد «حتشبسوت».

وكاد حزن الملك على وفاة والدته يودي بالبقية الباقية من صحته. غير أن عزيمته الماضية هبت من جديد تشد أزره، فاستطاع أن يغالب مرضه حقبة أخرى. ومع ذلك لم يكن في مقدوره تحمل عبء الحكم بمثل نشاطه القديم، وإلى جانب ذلك وجد نفسه عاجزًا عن القيام ببعض مهام الدولة التي تحتاج إلى مجهود جسمي. وفي هذه الأثناء كان صديقه «سمنكرع» قد أتم زواجه بابنته الكبرى «مريت آتون» وعرف شعب مصر أنه خليفة فرعون على العرش. فلم لا يشاركه «سمنكرع» في الحكم من الآن فيقوم بالمهام التي لا يقدر عليها بنفسه؟ وقد كان...

وكان «حور محب» يطمع في المنصب الذي تولاه «سمنكرع» غير أن الأقدار لم تسمح بتحقيق أمانيه في هذا الحين، بل عملت على معاكسته، وتحطيم خططه. فقد كان ما عرف عن تعلقه بالأميرة «نزمت» شقيقة الملكة مانعًا لـ«أخناتون» من أن يعرض عليه الزواج بإحدى بناته. ولكن الأميرة المتقلبة بعد أن ضيعت عليه هذه الفرصة الفذة، ما لبثت أن أظهرت له صدًّا مفاجئًا فانقطعت عن تحميل قزميها

الرسائل إليه. ثم كان أن غير القزمان وجهتهما فأصبحا يقصدان منزل «بك» كبير مثالي الملك. ولم تلبث هذه العلاقة الجديدة أن انتهت بزواج «نزمت» من المثال، وبقي القائد يحرق الأرم.

وثار كاهن «آمون» لما انتهت إليه هذه الأخبار. فقد كان زواج «حور محب» بشقيقة الملكة يجعل له بعض الحق في اعتلاء العرش بعد «أخناتون»، فانقلب الكاهن إلى شريكه الآخر الأمير «تيتو» الذي كان عند حسن ظنه به. فبعد زواج «سمنكرع» ببضعة أشهر أعلنت خطبته للأميرة «نفرو نفرو آتون» رابعة بنات فرعون. وانطلق «بتاح موس» يرقص طربًا. ولم ينل من طربه اضطرار شريكه إلى تغيير اسمه بهذه المناسبة إلى «توت عنخ آتون» أي النائب الحي لـ«آتون». فالغاية دائمًا تبرر الواسطة.

* * *

لم تكن هذه الأحزان التي انتابت حياة «أخناتون» إلا مقدمة للمحن. فقد كان للحيثيين ملك يدعى «سيبليل» تقع مملكته على الحدود الشمالية للمستعمرات المصرية في آسيا. وكان هذا الملك إذ يلقي ببصره جنوبًا صوب أراضي سوريا وفلسطين، يسيل لعابه طمعًا ويومض الجشع في عينيه. ولكنه سرعان ما يذكر أنه في الجنوب من هذه البلاد يقوم وادي النيل الخالد، وعلى رأسه «أمنحتب الثالث» المرهوب الجانب، فينكمش في دثاره وتنبعث من صدره أنة طويلة. ثم مات «أمنحتب» واعتلى «أخناتون» العرش، فأسرع «سيبليل» يهنئه ويطنب في إظهار مودته وولائه لعرش مصر سيد العروش. وحين انتقل «أخناتون» إلى «مدينة الأفق» بادر ملك الحيثيين الماكر بإرسال

القوافل الضخمة المحملة بأنفس الهدايا مع رجائه أن يقبل فرعون هذه المشاركة المتواضعة في تزيين عاصمته الجديدة.

أما «أخناتون» فلم يجد في وقته متسعًا يقضيه في التلهي بهذه الخزعبلات الآسيوية وكان كلما تأمل ضخامة رسالته الدينية التي عليه أن يؤديها نحى عن عقله كل شاغل آخر وانكب يعمل بجهد الجبابرة. ماذا يهمه الآن من أمر هذه المجاملات الآسيوية وهو يرى أن بلده قد صار إلى حال من البوار الخلقي والديني، يحتاج في إصلاحه إلى جهد يفوق طاقة البشر؟ كان عليه أن يرتب منزله أولًا ثم يلتفت من بعد ذلك إلى شؤون جاره. ولعل عمق عواطف الملك، واندفاعه الشديد إلى تحقيق ما يريد، كانا يمنعانه من الاشتغال بمشكلتين في وقت واحد. فالنفوس القوية تستغرقها مهمتها السامية فتملأ حياة صاحبها بحيث يعجز ـ أو لا يُعنى ـ بالالتفات إلى أمر خارج عن نطاق رسالته.

وكثيرًا ما بعث «سيبليل» إلى الملكة «تي» بالرسالة تلو الرسالة يسألها سبب إهمال فرعون في مراسلته، وقد كان أبوه الراحل لا يتأخر عن جواب ولا يقصر في طلب. وتملك الغضب ملك الحيثيين في أول الأمر، وخيل إليه أن فرعون الجديد يمتنع عن مراسلته ازدراء واحتقارًا لشأنه، فقد عرف عن المصريين أنهم يشمخون بأنوفهم على سكان آسيا، ويصفونهم بالبرابرة أو الرعاة.

غير أن «سيبليل» سرعان ما أدرك حقيقة الأمر. فإن ما ترامى إليه من أنباء الثورة الدينية في مصر، وانهماك «أخناتون» في شؤون الإصلاحات الداخلية، دله على أن فرعون أصبح لا يهتم بالمراسلات

الآسيوية لأنه لم يعد يهتم بآسيا نفسها. عندئذ بدأ لعاب ملك الحيثيين يسيل ثانية، وعاد الجشع يومض في عينيه وأدرك أن فرصته التي انصرف يعد جيشه لها قد سنحت. فلديه الآن جنود قد يفوقون جنود فرعون العاطلين تدريبًا وشجاعة. ولقد أدخل إصلاحات بعيدة الأثر في جيشه، فابتكر له نوعًا جديدًا من العجلات الحربية تتميز عن العجلات المصرية في متانتها، وفي أنها تضم سائقًا ومحاربًا بالقوس ومدافعًا بالدرع، على حين أن العجلات الفرعونية لا تضم إلا سائقًا ومحاربًا.

ومع ذلك فإن «سيبليل» لم يجازف بمجاهرة فرعون بالعداء، بل فضل أن يقوم بدوره من وراء ستار. فإن أحدًا لا يجهل قوة مصر الجبارة وسعة مواردها كما أن ذكرى حراب «تحتمس» ما برحت ماثلة في الأذهان. فمن الحكمة إذن أن يبدأ بغمز جانب فرعون، فيثير عليه بعض ولاته بعد أن يمدهم بالعون المادي من جيوش وعتاد. وقلب ملك الحيثيين بصره في ولاة سوريا فوقع اختياره على «أزيرو» حاكم مقاطعة «أمورية» المتاخمة لحدود الحيثيين. وكان «أزيرو» فتى بعيد الأطماع وضيع النفس، حتى لقد أشيع عن أنه قتل والده ليصل إلى منصة الحكم، فسرعان ما استهوته وعود ملك الحيثيين وبخاصة لأن مقاطعة «أمورية» على قربها من تخوم الحيثيين، قصية عن مصر. فهو لا يرجو عونًا سريعًا من مصر إن هو رأى مناهضة «سيبليل» كما أنه لا يخشى خطرًا مباشرًا من فرعون إن شق عليه عصا الطاعة.

قبِل «أزيرو» المهمة فبادر بإلقاء بذور الفتنة في نفوس حكام الولايات المصرية المجاورة لمقاطعته، والذين بدأ شعورهم

بخضوعهم لعرش مصر يضعف تدريجًا، إلى أن أصبحوا يعتبرون أنفسهم حكامًا مستقلين على ولاياتهم، لا يربطهم بمصر سوى جزية معينة يرسلونها إليها كل عام.

وبينما «أخناتون» غارق في نشوته ينشد التراتيل لربه الرحيم، كان «أزيرو» يلعب بذنبه في هذه الأنحاء القصية، التي لم يهتم فرعون بأمرها يومًا من الأيام. بدأت جيوش «أزيرو» المدعمة بجنود من الحيثيين تزحف نحو الجنوب، دون أن تجد مقاومة تذكر من الحكام الذين أخذوا على غرة. وكان «أزيرو» كلما استولى على مدينة قتل حاكمها إن كان مخلصًا لعرش مصر، ونصب بدله واليًا من قبله. حينئذ بدأ الحكام المصريون يستشعرون جسامة الخطر المحدق بهم، فأرسلوا يستنجدون بفرعون. وقرأ «أخناتون» هذه الرسائل فعجب من أمر مرسليها. كيف يصدق مزاعمهم وما يروون عن وقوع الفتن، وقد انتهى إليه من المستعمرات في هذا العام أكبر جزية عرفتها خزائن مصر! إن هؤلاء الولاة إنما يطلبون منه جندًا ليتفاخروا بهم، وليرضوا غرورهم الأثيم حين يتصفحونهم في الحفلات العامة. أفٍّ لهؤلاء الآسيويين! إنهم لا يبرعون إلا في كتابة الرسائل، ويخيل إليهم أن ليس لفرعون من عمل سوى التفرغ لهذا اللهو السمج. وكذلك لم تجد هذه الصرخات الأولى أذنًا صاغية لدى الملك.

على أن «أزيرو» كان يخاف «أخناتون» في قرارة نفسه، لمجرد أنه فرعون مصر. فكان كلما يزداد قربًا من حدود تلك الإمبراطورية العظمى تزداد هواجسه وتقوى خشيته. فهو لا يعدو في الواقع أن

يكون ذبابة ضئيلة تحاول النيل من فيل ضخم. وقد لا يشعر بها الفيل في أول الأمر، ولكنه إذا انتبه إليها فسيقضي عليها في طرفة عين. ولهذا رأى أن يتدبر أمرًا يحتاط به لنفسه. وليس ما يجلب لقلبه الطمأنينة أكثر من أن يكون لديه جاسوس أريب في بلاط فرعون، يطلعه على أثر انشقاقه في نفس الملك، ويكاشفه بما قد يتخذه «أخناتون» من قرار فيستعد له. وتذكر «أزيرو» فجأة أن له أخًا، كان والده قد أرسله ليلتحق ببلاط فرعون، ليتلقى العلم في معاهد مصر. وكان هذا الأخ قد طلب يد الأميرة «انخسنباتون» ابنة «أخناتون» الثالثة فلم يعارض الملك في ذلك طوعًا للسياسة التي أوصاه بها أبوه. فأنفذ «أزيرو» إلى أخيه رسولًا وطلب منه التعجيل بالزواج بمخطوبته حتى يطمئن إليه فرعون، وكذلك أطلعه على رغبته في أن يتخير له عينًا في بلاط الملك. وكان هذا الأمير يعرف الكثير عن شؤون مصر الداخلية لطول إقامته بها، ويعرف ما بين الملك وكاهن «آمون» من عداء مستحكم. فرأى أن يتوجه إليه عله يجد عنده العون.

ارتحل الأمير الآسيوي سرًّا إلى طيبة، ودخل على «بتاح موس» فأطلعه على مقصده. وما إن أتم حديثه حتى كاد الكاهن أن يطير فرحًا، فقد أدرك من فوره أنها فرصة العمر. فهو إن نجح بالتعاون مع «أزيرو» على إثارة المستعمرات المصرية، فإنه يقحم بذلك «أخناتون» في أضيق مأزق. فأهل مصر لن يسكتوا على ضياع مستعمراتهم. أما الملك فضعيف لا يقوى على القتال. وفي غمار الأزمة الحادة التي لا بد أن تنشب حينئذ يجد أنجع الوسائل لقهر خصمه.

وسرعان ما تلقى شريكا «بتاح موس» أوامره بمساعدة «أزيرو» فيما يريد. وأظهر «توت عنخ آتون» استعداده لتنفيذ أوامر زعيمه. أما «حور محب» فقد نكل عن تلبية مطلب الكاهن، ثم ما لبث أن أرسل يعتذر عن عدم الاشتراك في هذه المؤامرة. فقد كان «حور محب» جنديًّا قبل كل شيء، ويعز عليه وهو قائد لجيش مصر أن يعين على ضياع مستعمرات بلاده. وعبثًا حاول الكاهن إقناعه بأن هذا الضياع عارض، وأنهم حين يتولون زمام الحكم يكون في استطاعتهم أن يقضوا على فتن المستعمرات بأقل جهد.

واضطر «توت عنخ آتون» أن يعمل بمفرده، فأرسل إلى «أزيرو» يطمئنه ويشجعه على مواصلة زحفه. وسرعان ما انحدرت جيوش الخائن جنوبًا حتى وصلت إلى أبواب صميرة، فأصبحت تهدد معقلًا من أمنع معاقل المصريين في آسيا، إذ كان سقوط صميرة معناه أن تصبح «تونب»، بعلبك وصيدون وبيبلوس تحت رحمة «أزيرو» يستولى عليها من أيسر سبيل.

لهذا أسرع حكام المدن الثلاث المهددة يطلبون النجدة من فرعون. وبكر كاتب البلاط ذات صباح إلى «أخناتون» برسائل الولاة فسأله عما تحويه فأجاب الكاتب:

ـ لا شيء يا مولاي غير الفتن والثورات.

حدق «أخناتون» في كاتبه برهة وفكره ملتطم بخواطر متباينة ثم قال:

ـ أي ثورات؟ حدثني هل أرسل «بك» ما ينبئ بإتمام معبد الفيوم؟

وهكذا حفظت رسائل الولاة إلى جانب أخواتها السابقة، فضاقت بها المكتبات، حتى صار كتبة البلاط يتنادرون فيما بينهم فيقولون:

ـ يجب على الملك أن يستغني عن أحد معابده فيحوله دارًا لحفظ الرسائل الآسيوية.

وما انقطع سيل الرسائل بل ازداد. ودخل «نخت» الوزير يومًا على فرعون مهرولًا، وبيده ورقة يلوح بها، فبادره «أخناتون» قائلًا:

ـ رسالة أخرى يا «نخت». أليس كذلك؟

ـ مولاي إن الأمر جلل. ولم يبق مناص من إعلان الحرب.

ـ الحرب... لا تذكر هذا اللفظ أمامي. اقرأ على ما تحوي الرسالة.

ـ مولاي. إن «رب أدي» حاكم بيبلوس وأخلص ولاتنا في سوريا قد عاد يصرخ طالبًا النجدة.

ـ أجل لقد زارني «رب أدي» منذ عامين وأعرف أنه مخلص حقًّا.

ـ ولكن ليس هذا كل ما في الأمر يا صاحب الجلالة. فتلك رسالة أخرى تدمع العين. إن حاكم «تونب» قد يئس من إجابة جلالتك على توسلاته المتوالية، فبادر أهل هذه المدينة المخلصة أنفسهم فكتبوا هذا الكتاب، وبعثوه مع رسول خاص على جناح السرعة.

تنهد «أخناتون» وتناول عنقودًا من العنب وراح يلتقط حباته بشفتيه ثم قال:

ـ اقرأ يا «نخت».

أمسك الوزير بالرسالة وأخذ يتلوها على مسامع الملك الهادئ:

إلى سيدنا ملك مصر، من خدمك أهالي «تونب»
علك ترفل في صحة وعافية. نحن جميعًا نسجد
تحت قدميك. سيدي. إن مدينة «تونب» تتساءل

الآن قائلة: لم يجرؤ أحد على سلب «تونب» في عهد «تحتمس الثالث» إلا وسلبه ذلك الملك. ألا فليعلم سيدنا فرعون أن إله مصر لا يزال يعبد بـ«تونب» ويسع جلالتك أن تتأكد صدق ذلك من كبار قومك. لقد أوشكنا أن ننفصل من مملكة مصر. وإذا ما تأخر وصول الجنود والعجلات من مصر، فإن «أزيرو» سيعاملنا كما عامل المدن التي استولى عليها. وحينئذ يعمنا الكدر، كما يصيب الأسى جلالة ملك مصر، حيث تقترب منه قوات «أزيرو» الذي لن يتأخر حينئذ عن رفع يده لمقاتلة قوات سيدنا صاحب الجلالة.

إن «تونب» تبكي بكاء مرًّا ولا مغيث لها. ولقد ثابرنا على بعث الرسائل إلى سيدنا ملك مصر عشرين سنة فلم تصل إلينا منه كلمة واحدة(*)

ما إن أتم «نخت» قراءة الرسالة حتى دخل «توت عنخ آتون» وفي إثره «سمنكرع» فرفع إليهما الملك بصره وقال:

ـ أتراك تحمل استغاثة أخرى يا «توت عنخ آتون»؟ عليَّ بها فيبدو أنني سأخص هذا الصباح لسماع الاستغاثات، يا لضيعة الوقت...

ضحك الأمير الوسيم وقال:

ـ ممن الاستغاثة يا صاحب الجلالة؟

ـ من صديقنا الخائن «أزيرو». مَن غيره؟

فأجاب «توت عنخ آتون» علائم الدهشة وقال:

(*) منقولة بتصرف عن إحدى الرسائل المعروفة بـ«خطابات تل العمارنة».

ـ «أزيرو» خائن... من قال هذا؟
ـ يخيل إليَّ أن حصى الأرض يستغيث منه اليوم.
ـ أو يصدق مولاي هذه الأراجيف؟ إن «أزيرو» أخلص ولاتنا بلا شك. ولقد أثبت خضوعه للعرش حين بعث إلينا بتلك الجزية العميمة في العام المنصرم.
والتفت «توت عنخ آتون» إلى الوزير فسأله:
ـ ممن أتتك هذه الأنباء يا «نخت»؟
فأجاب الوزير قائلًا:
ـ «رب أدي» والي بيبلوس.
ـ من «رب أدي»... هذا يفسر المشكلة.
فسأل الملك قائلًا:
ـ ماذا تعني يا «توت عنخ آتون»؟
ـ إن لهؤلاء الآسيويين يا مولاي عقلية غريبة لا نفهمها، ومنهم من لا يستطيع العيش إذا أعوزه الدس والإيقاع، فتراهم يشون بغيرهم ليرتفع قدرهم عند فرعون. ولطالما توجست خيفة من «رب أدي» هذا يا مولاي. فلما زار «آخت آتون» منذ عامين قويت شكوكي فيه.
قطب الملك جبينه وقال:
ـ من أين لك هذه الأفكار يا «توت عنخ آتون»؟ إنني حين رأيت «رب أدي» أوحت إليَّ طلعته بالثقة والإخلاص.
هز الأمير رأسه وقال:
ـ لا يا مولاي. فلقد أخفيت عنك أمر هذا الوالي حتى لا أعكر

عليك صفو حياتك. فـ«رب أدي» لم يحضر إلى مصر إلا ليتصل بكاهن «آتون». إن «رب أدي» هو الخائن.

نهض الملك مغضبًا وصاح في الأمير:

ـ من حدثك بهذه الأراجيف يا «توت»؟

فأجاب «توت عنخ آتون» في هدوء قائلًا:

ـ لقد طلب مني ذلك بنفسه. ولو أنك ذهبت إلى بيبلوس يا صاحب الجلالة، لما وجدت فيها من المعابد المصرية غير معبد واحد. هذا المعبد هو للإله «آمون».

ـ أما يزال لـ«آمون» معابد؟

ـ إنك حين أغلقتها في مصر يا مولاي، عمد «بتاح موس» إلى نقلها إلى المستعمرات وألحق بها معظم كهنته.

وساد الصمت في حجرة العرش. وبعد فترة تنحنح الوزير وقال مخاطبًا «توت عنخ آتون»:

ـ إن «رب أدي» لا يمكن أن يكون الخائن أيها الأمير. فليس وحده المتهم لـ«أزيرو»، بل يشاركه في هذا كل حكام سوريا الشمالية.

التفت الأمير إلى الوزير ثم قال في سخرية:

ـ أتستبعد يا «نخت» أن يكونوا جميعًا عصبة من الخونة يعملون على ستر دسائسهم بالوشاية بغيرهم؟

لم تكد أصداء كلمات الأمير تتزايل حتى دخل «حور محب» مندفعًا وفي إثره جندي مصري معفر الثياب، فما إن توسط حجرة العرش حتى صاح قائلًا:

ـ يا صاحب الجلالة...

غير أن «أخناتون» رفع يده يأمره بالسكوت وقال:
ـ أعرف ما ستقول يا «حور محب». إنكم جميعًا فقدتم رشدكم.
ولكن القائد استأنف كلامه مندفعًا:
ـ كلا يا صاحب الجلالة. فلا يتأتى لخيال مولاي مهما ترامى أن يتكهن بما حدث. إن مصر يا مولاي قد أهينت أعظم إهانة لحقتها في التاريخ.
تأمل «أخناتون» قائده لحظة ثم قال:
ـ إن مصر لا يمكن أن تهان يا «حور محب»، لأنها لا تضع شرفها في أيدي الرجال.
ـ استمع إليَّ يا صاحب الجلالة واحكم بنفسك. لقد جاءني هذا الرسول منذ قليل، فأخبرني أن «أزيرو» قد اقتحم حصون صميرة فسواها بالأرض دكًّا وإحراقًا، ثم حاصر قصر الولاية فهدمه وقتل حاكمنا المصري.
ما إن أتم «حور محب» حديثه حتى اندفع الوزير يقول:
ـ إن «أزيرو» هو أكبر خائن للعرش يا صاحب الجلالة. لم يعد في ذلك ريب.
وصاح «حور محب» في إثره قائلًا:
ـ إنني أستطيع أن أجهز حملة قوية في ثلاثة أيام، إن أصدرت إليَّ الأمر يا صاحب الجلالة.
هوى «أخناتون» بقبضته على المنضدة وصرخ في رجاله قائلًا:
ـ صمتًا أيها السادة. هل مسكم خبل؟ لن أسمح لك بتجهيز حملة يا «حور محب». ولكني سأعد لجنة أرسلها عن قريب

إلى صميرة لتتبين ما حدث، وتجري تحقيقها فيه. فإن ظهر أن «أزيرو» هو الذي دك حصونها وهدم منازلها، فسآمره بأن يعيد بناء المدينة من ماله الخاص.

لم يسمع «حور محب» في حياته بمثل هذا. إنه يكاد يكذب أذنيه.

ـ يا صاحب الجلالة.. من قال إن خطر الحرب يدفع بلجان تحقيق...

أجاب الملك في تمالك وهدوء:

ـ أنا أقوله.

ـ ولكن يا صاحب الجلالة..

ضاق صدر الملك فنهض من مجلسه وقاطع قائده بصوت صارم قائلًا:

ـ كفى يا «حور محب». واستمعوا إليَّ أيها السادة. إن شفتي لن تنطقا ما حييت بإعلان حرب على شعب ما، ولن أسمح لنفسي ما دمت فرعون مصر بأن أهدر دمًا بشريًّا. لهذا أقسمت بألا أغادر مدينة «آخت آتون» وسوف أحافظ على قسمي.

إذن فقد كان هذا هو المعنى الخفي لقسم الملك... الملك لن يحارب ما عاش.

وساد صمت محرج لم يجسر أحد على إنهائه بكلمة. وأخيرًا التفت الملك إلى «سمنكرع» فقال له في هدوء عميق لا ينبئ عن تلك الأزمة الحادة التي لا تزال مستولية على أفئدة معاوني الملك:

ـ لقد فكرت صباح اليوم فيما كنا نتحدث فيه بالأمس يا «سمنكرع».

وفتح «سمنكرع» فاه، فتكلم أول مرة منذ دخل على الملك:

ـ أي موضوع تعني يا صاحب الجلالة؟

ـ عن الروح بعد الموت. ففي اعتقادي أنه لن يكون هناك حساب للميت كالذي تقول الأديان القديمة إنه يتم على أيدي «أوزوريس». فليس الله كالبشر يؤاخذ الناس على هفواتهم، بل إن «آتون» يغفر كل شيء.

ـ إذن لن يكون في الآخرة جحيم؟

ـ لا يا «سمنكرع» فالآخرة جنة فقط.

ـ كيف يا مولاي... وهل تحوي الجنة شرار الناس وخيارهم جميعًا؟

ـ لم أقصد هذا يا «سمنكرع»، فإن الرجل إذا كان شريرًا لا أمل في صلاحه، أصبح غير جدير بأن تكون له حياة أخرى، فينتهي وجوده بموته، شأنه في ذلك شأن الحيوان. أما إن كان فساد نفسه عارضًا، فإن شفقة «آتون» تسعه فيضمه الله إلى عداد الخالدين. وهناك وسط الجمال والنور لا بد أن يهتدي قلبه.

* * *

عادت اللجنة التي قصدت سوريا لتحقق في تخريب صميرة فأخبر رئيسها الملك بأن إدانة «أزيرو» لا شك فيها. واجتمع رأي البلاط على أن أقل جزاء يستحقه هذا الخائن هو إهدار دمه، على حين أصر «توت عنخ آتون» على أنه بريء. أما الملك فلم يستمع إلى نصيحة أحد من مستشاريه، بل أنفذ إلى «أزيرو» رسولًا يكلفه بإعادة بناء المدينة خلال عام، وأن يرد كل ما سلبه إلى أصحابه.

وانقضى العام دون أن ينفذ «أزيرو» أمر الملك، إذ كان مشغولًا

بسلب وتحطيم مدن أخرى. ورأى «توت عنخ آتون» أن شريكه الخائن يزداد موقفه حرجًا على ترادف الأيام. وخشي أن يؤثر أعوان الملك فيه، فيحملوه على أن يجرد عليه حملة قد تقضي عليه قبل أن يتم الاستيلاء على بقية الولايات المصرية. ولهذا أرسل إليه يطلب منه الحضور بشخصه للقاء فرعون.

وكانت هذه الخطة بالغة في الجرأة، تنتابها المخاطر من كل جانب. ومع ذلك صادفت هوى في قلب «أزيرو» المستهتر فأسرع بالحضور إلى مصر، وانعقد لسان أهل «آخت آتون» وهم يرون الخائن الذي أصبح اسمه على كل شفة، يسير أمامهم في شوارع العاصمة بلحيته الكثة وطلعته المعفرة.

ودخل «أزيرو» على الملك، فحدثه طويلًا عن سوء الحالة في سوريا، وتهديد الحيثيين لمدنها وموانئها، وكيف أنهم حشدوا أسطولًا قويًّا لمنع أي مدد يرد من مصر. واختتم حديثه قائلًا:

ـ فكيف كنت تريدني أن أصلح صميرة يا صاحب الجلالة، في حين أن محاربة الحيثيين لا تترك لي فرصة للنوم؟ إنني، يا مولاي، الحاكم الوحيد في سوريا الذي يكافح هؤلاء البرابرة. ومع ذلك فقد روى لك القوم عني أحاديث مكذوبة، ليشوا بي عند مولاي. أما الحقيقة فهي أني لم أخرب صميرة ولا غيرها من المدن، إلا لكي أمنع وقوعها في أيدي الحيثيين. والشاهد على صدق قولي يا مولاي هو أنني أوالي إرسال الجزية السنوية في موعدها المضروب.

وصمت «أزيرو» ساعة ثم عاد يقول:

ـ لقد جئت إلى مصر لكي أضع نفسي تحت تصرف مولاي. فإن شئت قطعت رأسي، وإن شئت أطلقتني لأكافح الحيثيين، ولأدافع عن مستعمرات سيدي فرعون، الذي أعفر رأسي تحت قدميه.

حدج الملك المخلوق الآسيوي القائم أمامه دون أن يتكلم، وبعد فترة طويلة نهض من مقعده وقال:

ـ إنني أيها الحاكم لا أكذب أحدًا فيما يقول، فقد يكون صادقًا حقًّا، وإن كان كاذبًا فلست أنا الذي يحكم عليه. انطلق...

* * *

وانطلق «أزيرو» فلم يمض شهران حتى وردت الأخبار بأنه يحاصر بيبلوس ورأى قصر «رب أدي» محنًا كثيرة، فطالما توسلت إليه زوجه وبناته بأن ينشق على فرعون، ويعلن ولاءه لـ«أزيرو» حتى ينجو بنفسه وبهن، فكان الحاكم المخلص يرفض بإصرار. وأخيرًا تمكن «أزيرو» من دخول المدينة، فأخرج «رب أدي» من قصره، ومثل به أشنع تمثيل، ثم قتله على مرأى من زوجه وأولاده، الذين لم يتأخر عن الفتك بهم حتى يمحو كل أثر لألد أعدائه بأسًا.

هكذا فقدت مصر أخلص حاكم لها في سوريا، دون أن يمد فرعون يده لإنقاذه...

الفصل الخامس عشر
العاصفة

اجتمع مجلس البلاط ساعات الصباح، وحمي النقاش بين أعضائه والملك منصت لا ينبس. وكان قد مضى على سقوط بيبلوس وقتل «رب أدي» عام، استولى «أزيرو» في خلاله على سوريا بأكملها. وخشي «سيبليل» ملك الحيثيين إن هو ترك «أزيرو» يواصل الهجوم على فلسطين أيضًا، أن تعظم شوكته فيصبح مصدر خطر بعد أن كان أداة في يده. لهذا فقد أحجم عن مساعدته، وأولى عنايته قبائل الخابيري المرابطة في صحراء الأردن. وبدأ هؤلاء البدو مهمتهم فاستولوا على أكثر من نصف فلسطين. وضج الولاة المصريون بالشكوى والاستغاثة كما فعل حكام سوريا من قبل، فما تزحزح «أخناتون» عن موقفه منهم، وظل يرفض في إصرار إرسال أية نجدة عسكرية لمساعدتهم. واشتد عجب المصريين حين سمعوا أن ملكهم قد نظم طرق هجرة الولاة المهددين، وعين لذلك ضابطًا ومعاونين للإشراف على سلامة من يريد الارتحال إلى مصر هربًا من خطر الغزو.

ماذا يقصد الملك؟ كان هذا السؤال يتردد على كل شفة، حتى أصبح الشعب في حيرة من أمره، لا يدري إلى أي المصائر هو مسوق. ولكن سرعان ما أجاب «بتاح موس» على تساؤل الشعب المتلهف، فانتشر أعوانه يوسوسون في الصدور بأن فرعون الخامل الجبان ينوي التخلي عن المستعمرات المصرية التي اكتسبت بأرواح الأبطال ورويت بدمائهم. وراحوا يصورون للناس المستقبل الحالك حين تجرد مصر من أعظم مصادر ثروتها، فينقطع ورود الجزية الآسيوية العميمة، وتصبح الدولة والناس في فقر مدقع. ولن تمر أعوام قليلة حتى يعود عهد الرعاة المتوحشين، فترزح مصر تحت نير استعباد المحتلين كما كانت من قبل. أما السبب في هذه المحن جميعًا فجلي لا يحتاج إلى تذكير. فقد تركت مصر آلهتها الأقدمين، الذين قادوها في طريق النصر والرخاء وجعلوا منها زعيمة الكون، والمرء إذا ترك آلهته فليس له إلا أن ينتظر الرزايا والمصائب، فإن انتقام الآلهة سريع جبار. أما طريق الخلاص من هذه البلايا فواضح أيضا. إنه «آمون» على رأس جيش باسل، يقوده ملك مؤمن مقدام.

ولم تجد هذه الكلمات المعسولة عسرًا في النفوذ إلى قلب شعب مصر. فقد بادروا إلى عهد قريب للغزو والفتح، فكيف يحتملون اليوم تلك الإهانات المتكررة يوجهها إليهم برابرة متوحشون، أو يسكتون على سلب مستعمراتهم واحدة بعد واحدة.. لم يكن الأمر في اعتبارهم رزقًا يحاولون الاحتفاظ به، ولكنه شرف مثلوم يهبون للذود عنه.

هذا الذي يعج به الشعب في الطرقات، هو ما كان يردده رجال

البلاط على مسمع فرعون. ولقد انتظم هذا النغم كل معاوني الملك ما عدا «توت عنخ آتون» و«حور محب» اللذين دأبا على مؤازرة الملك في سياسته السلمية، إطاعة لأمر زعيمهما. ولقد اضطر «حور محب» أخيرًا إلى النزول عند إرادة الكاهن. فقد كان يعتقد أولًا أنه يستطيع حمل الملك على بعثه على رأس جيش قوي يقوده إلى النصر، فإذا رجع إلى مصر وجد اسمه ذائعًا في ربوعها، وقد يستطيع حينئذ أن يحقق أطماعه دون معونة «بتاح موس». غير أن مسلك الملك أفسد كل خططه، فلم يجد بدًّا من الرجوع إلى حظيرة الكاهن وإلا أفلتت منه الفرصة إلى غير رجعة.

وباستثناء هذين اللذين كانا يتكلمان بوحي من سياسة «الخبز والسمك»، كان «أخناتون» وحيدًا في موقفه لا يعضده فيه غير زوجته «نفرتيتي». وحتى «سمنكرع» ـ مع شدة إخلاصه للملك ـ عارض سياسته في صمت، فكان يحضر الاجتماعات المتكررة دون أن يبدي رأيًا. فقد بدت مصر في هذه الحقبة الحرجة أعز لدى الجميع من كل شيء ـ حتى ديانتهم الجديدة. لم تكن تحوي صدورهم غير صيحة واحدة: «مصر أولًا

أما «أخناتون» فقد عرف يقينًا أن اليوم تجربته الأليمة. لقد بذل له سيد «آتون» طوال الأعوام الذاهبة كل عون وإرشاد. لقد كشف له عن سر الوجود وحباه بعطفه وشفقته، فمن حق الإله اليوم أن يجرب عبده. وكما كانت رحمة «آتون» عميمة، فلا بد أن تكون تجربته جبارة. إنها قد تقتضي من عبده التفدية بعرشه وحياته وعائلته. فهل هو مستعد لذلك؟

إلا أن الشعب ـ حتى أصدقاء الملك ومعاونيه ـ لم يكونوا يفهمون ذلك، ولم يكونوا قادرين على فهمه. قد تكون هذه المحنة تجربة للملك حقًّا. ولكن ما ذنب مصر بأسرها في أن تتحمل وزرها، فتدفع ثمنها من شرفها، ومن قوت بنيها، ومستقبل عهودها؟

لا عجب إن كانت جلسة البلاط في هذا اليوم حادة صاخبة. إنها الجلسة الثانية عشرة من سلسلة الجلسات التي عينت لدراسة المشكلة الآسيوية. وفي كل اجتماع تبح أصوات معاوني الملك في النصح والاستعطاف، وهو لا يتحول عن موقفه. أفلم يكن من مصلحة الجميع أن يوجه الملك هذه العزيمة الجبارة التي يناهضهم بها إلى القضاء على الخطر الآسيوي؟

وفي هذا اليوم كان الشعب قد عيل صبره لطول تردد الملك، فاحتشدت جموعه حول القصر تنتظر نتيجة الاجتماع. ولم تكن هذه الجموع سوى ثورة صامتة، تنقلب عاتية مدمرة طوع أول إشارة تصدر من «بتاح موس». وكان الوزير «نخت» حين يقع بصره على هذه الجموع في غدوه إلى القصر ورواحه منه، يشعر بالخوف يملأ قلبه، إذ يخيل إليه أنهم قد يهجمون عليه في أية لحظة، فيقطعونه إربًا إربًا. وشمل هذا الجزع كل أصدقاء الملك، فلازموا دورهم وامتنعوا عن الظهور في شوارع العاصمة. أما «أخناتون» فقد كان مريضًا يلزم الفراش أغلب يومه، ويحملونه إلى حجرة العرش في سرير تتكاثر عليه الوسائد. ولكنه إذا ما خفت عنه وطأة المرض، ينزل كعادته للتنزه في الحدائق المحيطة بالقصر، فيقابله الشعب بالوجوم والصمت، وحينئذ شعر بأن هذا الشعب الذي كان دائمًا

قريبًا من نفسه، أصبحت تفصله عنه اليوم هوة سحيقة أبعدته عنه. ولم يكن هذا الشعور جديدًا لدى الملك، فقد كان في الأيام الأخيرة كلما ازداد تفهمًا لتعاليم «آتون» وأمعن في تطبيقها أحس بأن البون بينه وبين شعبه يزداد اتساعًا، فأدرك في حزن ممض أن شعبه لم يكن قد نضج بعد لقبول الدين الجديد، وعرف أنه قد هبط إلى الأرض قبل زمنه الملائم بأعصر طوال.

حين افتتح الاجتماع في هذا اليوم، فاجأ الوزير «نخت» أعضاء المجلس بقوله إنه يقدم استقالته من منصب الوزارة.

فالتفت إليه «أخناتون» وسأله في سكون:

ـ لم يا «نخت»؟

ـ لأنني لا أستطيع تحمل تبعة الموقف الذي يتخذه مولاي.

ـ ولكنك لا تتحمل تبعة ما يا «نخت»، فأنا فرعون المسؤول الوحيد في الدولة.

وهنا وقف «نخت» وبدا عليه أنه يتأهب للإفاضة في الكلام، فقال:

ـ هناك تبعة شخصية يا مولاي بجانب التبعة الوزارية، تبعتي قِبَل نفسي وقِبَل ضميري... تبعتي قِبَل الأجيال المقبلة حين تشير إليَّ ساخرة وتقول: «هذا هو «نخت» التعس الذي أذعن لرأي مليكه على الرغم من أنه لا يعتقد صوابه».

ـ ومن أين أتاك أن العهود المقبلة ستدينك بدلًا من أن تمتدح مسلكك؟ إنني شخصيًّا مطمئن إلى حكم هذه العهود، وهي عزائي الوحيد في تجربتي الراهنة.

وهنا صاح الوزير كأنما يخطب حشدًا من الجيوش:

ـ أيمتدح التاريخ مسلكي يا مولاي إذ يعرف أنني كنت أرى أملاك بلادي تنسلخ واحدًا إثر واحد، فما رفعت أصبعًا لإنقاذها... أيمتدح التاريخ مسلكي حين يذكر حفدتي أنني كنت أعلم الناس باقتراب خطر الغزو من حدود مصر، ومع ذلك وقفت مكتوف اليدين... هل نسيت يا مولاي أن جموع الغزاة تقترب الآن من بيت المقدس، فإذا بلغوه أصبحوا على مسيرة يوم واحد من حدود مصر؟ يوم واحد هو الذي يفصلنا عن خطر القتل والتدمير يا صاحب الجلالة، ومع ذلك فنحن لم نُعِدَّ للكفاح جنديًّا واحدًا...

نظر الملك إلى وزيره مليًّا، ثم قال:

ـ هدئ من ثورتك يا «نخت»، ولا تفتن نفسك بهذه الألفاظ الضخمة. أتحسب أنني لم أكن أعرف كل ما ذكرت؟ ومع ذلك فإن بيت المقدس لم يسقط بعد.

أجاب الوزير قائلًا:

ـ ولكنه سيسقط يا صاحب الجلالة.

ـ من الذي سيسقطه؟

ـ حكام فلسطين الخونة الذين استنجدوا بقبائل الخابيري.

وحينئذ صاح الملك صيحة مرعدة:

ـ فليسقط إذن... إن كان أهل هذه الأقاليم لا يرتضون حكمي فلِمَ أجبرهم عليه؟ أليس من حقهم المشروع أن يستقلوا بأمر أنفسهم؟

استغرق الوزير تعجب شديد، فقال وهو مشدوه:

ـ أيكون هذا حقًّا مشروعًا يا صاحب الجلالة... إن الحق المشروع هو أن يحتفظ الغازي بما كسب.

أجاب «أخناتون» في هدوء قائلًا:

ـ كما يحتفظ اللص بما سرق.

سكت الوزير فلم يجب. وساد الصمت حينًا إلى أن قطعه صوت «سمنكرع» وهو يقول للملك:

ـ ولكننا يا صاحب الجلالة قد نصبح بعض ما يسرقه اللص إذا نحن تركنا الثوار يسعون إلى حدودنا.

ـ ولكنهم يا «سمنكرع» لم يستولوا إلى الآن إلا على أرضهم وديارهم. فكيف تريدني أن أمنعهم من ذلك وهم لم يمسوا وطني بسوء؟

ـ فإن فعلوا يا صاحب الجلالة؟

صمت الملك وأطرق، فثبت القوم عيونهم في وجهه. وأحس بهذه الأبصار المتطلعة إليه كما يحدج القضاة جانيًا، فاكتأبت نفسه، وجاشت التعاسة بصدره تعتصره بأيد من حراب. وكاد يبكي على مرأى من وزرائه وقواده. فقد شعر بأنه بات وحيدًا شريدًا لا يعضده في محنته صديق.

وحيد... أجل. بل منبوذ طريد. إنه كأسد مثخن بالجراح، تنهال عليه رماح قناصيه من بعيد ومن قريب، ثم يتركونه ملقى في جوف البراري الموحشة بغير رفيق، إلى أن ينزف دمه فيموت بين الصخور، وتصبح جثته نهبًا للذئاب والغربان. أعدل هذا... أتكون تلك النهاية التعسة جزاء لمن لم يقصر حبه على البشر بل شمل به كل بهيمة

ونبت... أبَعد أن أفنى حياته وصحته في أسو جراح قوم وإسعاد نفوسهم، يكون هؤلاء القوم أول من يهدر دمه...

أجل. إنه كذلك. كان عليه أن يعلم قبل فوات الأوان أن الناس يكرهون من يحبهم ويحبون من يظلمهم. فهو لو قام فيهم اليوم قومة عاتٍ جبار، لدانت له الرقاب، وتطلعت إليه الأعين بالإعجاب. ولو أنه أمر الساعة بدق عنق الوزير، لكان أول المبهورين بعمله. وإن هو ألزم سكان كل قرية بأن يقدموا عشرة من أهلهم قرابين للآلهة، لعبده الناس ولتفانوا في إظهار طاعتهم وإخلاصهم. هذا هو الذي اهتدى إليه بعد جهاده الطويل. إن البشر لا يقدس إلا القسوة، ولا يدين لغير الظلم. إن جلال النور يؤذي بصره، فهو يعيش في الظلمات. وكأنما البشر نوع من الخفاش أو البوم، دائمًا يألف الحلك.

الظلام والقسوة والظلم هي الأعمدة الثلاثة التي تبني عليها الإنسانية هيكلها. فإذا وجد من يقول هذا خطأ، أو اكتشف من يحاول هدم هذه الأسس الثلاثة أو بعضها، ارتاعت الإنسانية أشد ارتياع، وانقلبت عليه بأسرها لتطرده قبل أن يطرد قبحها، ولتشرده قبل أن يشرد زيفها، ولتحطمه قبل أن يحطم أصنامها. حينئذ تتنفس الإنسانية الصعداء، فقد أزيح عن عاتقها أكبر خطر يهدد حياتها المعتمة: المصلح أو النبي. فإذا اطمأنت إلى أنها سدت كل منفذ يمكن أن يمرق منه بصيص من الحب أو العدل، استأنفت عجلاتها الدوران، لتنشر الحقد والجهل في النفوس، فتحصنها من كل خطر مستقبل يأتي به نبي جديد.

طافت هذه الخواطر في رأس «أخناتون» وهو مطرق يفكر في

سؤال «سمنكرع» له: «وإن فعلوا؟». ولم يكن ما التزمه من صمت حينئذ مرده تردد أو فقد ثقة، فقد كان يدري يقينًا جواب هذا السؤال بل يؤمن بصحته. ولكن ما شعر به من انقباض قلبه جعله يهز كتفيه قائلًا لنفسه: «ما الفائدة؟». فالرجل لا يقتنع إلا إن أراد الاقتناع. فإذا لم تواته هذه الرغبة فلن ترضيه أسطع الحجج، ولن يستهويه أفصح البيان. أما الرجال الملتفون حوله فلا يريدون الاقتناع إلا بعكس رأيه. فالكلام معهم نفخ في طبل مثقوب، وهو مريض منسرق القوى.

وقطع الملك حبل الصمت فرفع رأسه وقال:

ـ أيها السادة، إنني أشعر بتعب، فسأنسحب الآن لأستريح على أن نستأنف اجتماعنا بعد الظهر

ونهض الملك فنهض الجميع. وتقدم «سمنكرع» ليأخذ بذراعه فأبعده بإشارة صامتة. ثم أخذ يشق طريقه في ضعف وتعثر بين وجوه أعوانه العابسة.

لم يكد يستقر بالملك المقام بجوار زوجته الحادبة عليه تطببه، حتى أتاه رسول يخبره بأن المجلس قد عاد إلى الاجتماع، إذ وردت أنباء خطيرة من فلسطين تتطلب تدبيرًا عاجلًا. وشاء الملك أن يرسل إلى معاونيه يخبرهم بأنه لن يتمكن من حضور الاجتماع. فقد كان المرض يمزق صدره، وسهر الليالي الماضية يوشك أن يدفع بفكره المحموم إلى الجنون. ها هو ذا يستلقي على فراشه يتلوى كألسنة النار، وقد انبهر تنفسه فصار يلهث في عنف، وإلى جواره جلست «نفرتيتي» أثمن درر الأرض، تبسم له وتعابثه على الرغم مما يصهر قلبها من الألم. إن أيامه على الأرض معدودة، وجدير به

أن يقضي ساعاته الأخيرة إلى جوار هذا النبع الجميل من الحب، بدلًا من أن يصرفها في الاستماع إلى جعجعة الأغبياء والجهلاء من وزرائه وقواده. فهم لا يريدون غير المتاجرة بما يصورونه لأنفسهم وطنية نبيلة، ولا يلذهم سوى أن يسمعوا أنفسهم يتكلمون الساعات الطوال عن الشرف والشجاعة والتاريخ. فليتركهم يتكلمون ما قويت ألسنتهم.. فما هم إلا ببغاوات ثرثارة، لا تحوي نفوسهم قطرة من عاطفة صادقة.

غير أن «نفرتيتي» الباسلة كانت في هذه اللحظة أصلب عودًا من الملك، فانحنت على زوجها وقبلته قائلة:

ـ لا يا «أخناتون».. إن واجب فرعون يقتضيه أن يرأس مجلس البلاط فهو مكانك..

ثم إنها دلكت فوديه وجبينه بالعطر، وأعدت له شرابًا ساخنًا وظلت تسامره إلى أن شربه، فاصطحبته بنفسها إلى باب حجرة العرش، فضغطت يده ثم قبلته وانصرفت.

كان القوم يتصايحون ويشتدون في المجادلة، فما إن أقبل عليهم الملك حتى عنت الجباه وخيم الصمت. حيا «أخناتون» رجاله وجلس على العرش وهم لا يزالون على صمتهم. لقد قر قرارهم قبل مجيئه على أن يبادروه بثورة مرعدة، يحطمون بها إرادته ويغلبونه على رأيه. وها هو ذا قد بدا بينهم.. فماذا دهاهم ومن ألجم ألسنتهم؟ حقًّا إن هذا الملك ليس ببشر! فهو مملوء بالقوى الخفية، والرهبة النافذة. وإن له إرادة صامتة جبارة تسحق إرادتهم المجتمعة دون أن ينبس بلفظ.

تنهد الملك في استطالة ثم أسند جبينه إلى كفه وقال:

ـ هات ما عندك يا «نخت».

اعتصر الوزير ذاكرته لتوافيه بخطبته المنمقة، فلم يجد في رأسه كلمة منها. وبحث عن سيل حججه التي أزمع سردها على مسمع الملك، فلم يصادف غير اللعثمة تعقد لسانه. وأخيرًا قال:

ـ يا صاحب الجلالة. لقد.. أتانا اللحظة جندي مهلهل الثياب..

ابتسم الملك في حزن وقال:

ـ إنهم جميعًا يأتوننا مهلهلي الثياب، فهذا من مستلزمات دورهم. وإن من نظر منهم إلى ثيابه فوجدها غير مهلهلة، أسرع في تمزيقها بيديه قبل أن يمثل أمامك. لا بأس يا «نخت» أكمل..

زاد اضطراب الوزير فعاد يتمتم قائلًا:

ـ أخبرني هذا الجندي أنه الوحيد الذي استطاع الفرار من بين جند جلالتك المرافقين لقافلة الجزية السنوية التي كنا ننتظر ورودها بعد أيام.

ـ شيء محزن حقًّا. وإن بدو الخابيري قد سطوا على القافلة فنهبوا كل دابة فيها وأجهزوا على كل جندي. أليس كذلك يا «نخت»؟

أومأ الوزير قائلًا:

ـ الأمر كذلك يا مولاي.

فأجاب الملك في هدوء قائلًا:

ـ حسنًا.. وبعد؟

رفع الوزير حاجبيه دهشة وقال:

ـ ماذا بعد هذا يا مولاي؟

ـ لقد تلوت عليَّ الخبر وحده «يا نخت»، ولكنك لم تسمعني بعد نواحك وعويلك اللذين عودتني انتظار نغماتهما المحزنة عقب كل خبر آسيوي. قل ما أعظمها إهانة تلحق بفرعون مصر! وإنها لأول وصمة من نوعها تلطخ جبين تاريخنا المجيد أن يُستخف بكرامة فرعون ذاته فتسلب أمواله بعد أن انتزعت أملاكه.. قل هذا وغير هذا من الهواء الفارغ الذي تملأ به رئتيك.

أساء الوزير أن يعرض به الملك على هذا الوجه أول مرة في حياته، فحرق أنيابه وقطب قائلًا:

ـ لعل الملك يسيئه نصحي؟

ـ لا يا «نخت» ولكنك كغيرك من الناس فدية مسكينة من صرعى الكلام. يرن في الجو لفظ «الشجاعة» فتعمى الأبصار، ويتلوه «الشرف» فتصم الآذان، ويعقبه «الوطن» فتلغى العقول. وإذا الشعب بأكمله قطيع من جرذان عمي صم لا يفقهون، لأن بعض الكلمات الفارغة قد قرعت الآذان. هكذا كان كل من سبقني من الفراعنة يوجهون سياستهم بالكلام للكلام، دون أن يُعنى أحدهم بالمعنى واللب، فلم يسأل فرعون منهم نفسه مرة: ما هي الشجاعة وما الشرف وما الوطن؟ بل كانت جميعها عندهم مترادفات لكلمة واحدة هي الحرب. فالشجاعة هي الحرب والشرف هو الحرب والوطن هو الحرب. ثم لم يسأل واحد منهم نفسه عن معنى الحرب، فهي عندهم الشجاعة والشرف والوطن بلا سؤال. وهكذا تتم حلقات تلك الدائرة المشؤومة التي طالما نكبت العالم في الماضي، وستظل تنكبه

في المستقبل، ولن تستطيع البشرية خلاصًا من ويلاتها ما فتئت بجهلها صريعة الألفاظ الرنانة الخاوية.

استراح الملك هنيهة ثم عاد يقول:

ـ لعلكم أيها السادة كنتم تتحسرون في غيبتي على ما سيجره عليكم ضعف ملك مريض متواكل. ولكنني سأطمئن قلوبكم. فأنا إن امتنعت عن شن الحرب فما هذا لأنني جبان بل لأنني أشجعكم جميعًا، ولا لأنني خامل بل لأنني أكثركم نشاطًا، وما هو بضعف مني فليس فيكم من يدانيني قوة بأس. ولتعلموا جميعًا أيها المتذمرون أني لو أردت الحرب لغزوت من البلدان ثلاثة أضعاف ما فتحه جدي «تحتمس»، فكيف بقمع بعض الولاة الثائرين. ولكني أفضل أن أفقد النطق حتى لا تنبس شفتاي بإعلان الحرب، وأن تقطع يدي قبل أن أسمح لها بإهدار دم بشري. فالحرب أيها السادة ليست الشجاعة، بل هي جبن الخائف المذعور يهم بالقتل والتحطيم خشية أن يقتل أو يحطم. إنها ليست تهاونًا بالموت. بل هي الخوف أشد الخوف من الموت. وليست الحرب هي الشرف، بل هي الغدر والاغتيال والخديعة. أما الوطن فإن من أحبه حقًّا كره الحرب. فمن يحب وطنه يسيئه أن يسلب وطن غيره، كما أن من يحب زوجته لا يرنو إلى زوجة جاره. أظنكم تستطيعون الآن أيها السادة أن تتلمسوا بأنفسكم معنى الحرب. ولعلي أعبر عن شعوركم إن قلت إنها أقبح شيء في الوجود. ولكنها ليست كذلك وحسب، بل هي أيضًا أكبر خطر يهدد مدنية البشر، لأنها تجعل من جرائم القتل

والسرقة والخداع والخيانة أعمالًا مجيدة تشرف مقترفيها.. فهل هناك أشنع من نظام لا يقتصر على إثارة أحط الغرائز الإنسانية وحدها، بل يشجع الخلق ويحثهم على ارتكاب هذه الموبقات، ثم يفخر بهم ويشرفهم إن هم بزوا غيرهم في التلطخ بأدرانها!

صمت الملك لحظة ثم التفت إلى «توت عنخ آتون» وسأله قائلًا:

ـ هل تريد الحرب يا «توت»؟

ـ كلا وحق «آتون» يا صاحب الجلالة.

ـ حسنًا.. وأنت يا «نخت»؟

ـ الحرب يا مولاي.

ـ عظيم. لو تعهدت لك بأن أعلن الحرب غدًا إن قمتَ الآن فقتلت «توت عنخ آتون»، هل تفعل؟

هز الوزير رأسه وقال:

ـ كلا يا مولاي.

ـ ولِمَ يا «نخت».. أليست الحرب قتلًا؟

ـ إن الأمر مختلف يا صاحب الجلالة.

ـ أجل. إنه يختلف حقًّا. يختلف في أنك في الحرب ستقتل بدل الواحد ألفًا. وفي أنك إذ تقتل «توت» مثلًا لأنه يخالفك في الرأي، فإنك في الحرب ستذبح عشرات من الناس بلا جريرة على الإطلاق، لأنك لا تعرفهم ولا هم يعرفونك. فمن منا أشنع جرمًا من صاحبه... أنا إذ أعلن الحرب، أم أنت إذ تقتل «توت»؟

قبل أن يجيب «نخت» سُمع طرق على الباب، ثم دخل على الأثر كبير أمناء الملك، فانحنى بين يديه ثم استوى قائلًا:

ـ لقد حضر القصر الساعة يا مولاي رسول من آسيا يزعم أنه يحمل أنباء ذات بال.

تنهد الملك وألقى برأسه إلى ظهر مقعده وقال:

ـ ها قد عدنا لمهلهلي الثياب... لا بأس. هات رسالته.

ـ إنها معي يا صاحب الجلالة.

وأخرج كبير الأمناء لفافة بردية من دثاره، فألقاها إلى الوزير وانصرف. وكان «نخت» يعلم مبلغ ضيق صدر الملك بهذه الرسائل، فأبقى الكتاب مطويًا في يده، دون أن يجسر على فضه وتلاوته. وسرعان ما بدا على وجه «أخناتون» ما كان يخشى الوزير حدوثه، فقد قطب حاجبيه وصر بأضراسه حتى سمع صريفها في الحجرة كصليل الأسلحة، ثم هوى بيده على المنضدة، وصاح ثائرًا:

ـ هيا اقرأ.. اقرأ.. ماذا تنتظر؟

بدأ الوزير يقرأ الرسالة بصوت مرتجف:

من والي بيت المقدس خادمك وعبدك.

سيدي،

لقد سقطت بيت المقدس أخيرًا وسوف تضيع جميع أرض جلالتك التي ثارت عليَّ. لقد كانت سفن جلالتك الساعد القوي في بسط سلطتك على بلاد النهرين و«قادش». أما الآن فقد احتل بدو الخابيري بلاد فرعون، ولم يبق لسيدي والٍ مطيع فالكل عصاه. فليخش الملك على قطائعه وبلاده وليرسل المدد سريعًا. لأنه إذا لم تصل الجنود في أقرب وقت ذهبت ممتلكات جلالة فرعون سدى، وأصبحت مصر نفسها

تحت رحمة العدو. فإذا ما تعسر إرسال الجنود توًّا
فليبعث جلالة فرعون ضابطًا يلازمني للحضور أنا
وإخوتي كي نموت مع سيدنا الملك.
حاشية(*)

ولكن الملك لم يترك وزيره يسترسل في القراءة، بل نهض بعنف وصرخ قائلًا وهو يضغط فوديه بكلتا يديه:

ـ كفى. كفى...

ظل الملك على وقفته ساعة، ثم أرخى يديه في بطء واتكأ بهما على المنضدة. ولكن قدميه ما لبثتا أن خانتاه، فتهالك على مقعده واحتوى وجهه في يديه. وأخيرًا رفع رأسه فتجلت في عينيه أفجع مأساة عركت صدر بشر. وكان فكه الأسفل يرتعد، ورأسه يتمايل لشدة ما يلهث. وأخيرًا فتح فمه وقال بصوت خافت:

ـ أيها السادة.. سأطلعكم على رأيي الأخير صباح الغد من شرفة القصر.

* * *

علا اللغط في حجرة العرش بعد انصراف الملك. فقد وضح لدى معاونيه أنه يزمع الاتصال بالشعب مباشرة، يخطبه من الشرفة كعادته في كثير من المناسبات. وكان المفهوم لديهم أن الملك لن يتحول عن رأيه، وأنه إن كلم شعبه فليحاول إقناعه بمزية سياسة السلام. ولذلك توجس «سمنكرع» خيفة من نتائج هذه الخطوة الجريئة. فهو يعلم يقينًا أن الشعب الثائر لن يقبل إلا إعلان الحرب، وأن الملك مهما يفتن في

(*) عن إحدى الرسائل المعروفة بـ«خطابات تل العمارنة».

الإغراء والاستمالة، فمن المقطوع به أن حججه الفلسفية لن تجد أذنًا صاغية لدى الجمهور الأعمى المتعصب. أما «توت عنخ آتون» فقد راح يؤكد أن عزم الملك يعتبر أبرع حركة سياسية قام بها في حياته، وأنه ينتظر لها نجاحًا يفوق كل المتوقع لما يكنه له الشعب من حب يسمو إلى حد العبادة.

وفيما هم يتحاورون أتاهم رسول من قبل الملك فأبلغ «حور محب» أن يسرع إلى لقاء جلالته. فلما غادر «حور محب» الحجرة ساد الجميع شعور بالاستبشار فقال «نخت»:

ـ إن استدعاء الملك لقائد الجيش دليل على أنه صار أميل إلى إعلان الحرب.

أما «سمنكرع» فقد ازدادت خشيته، إذ أصبح يساوره في الأيام الأخيرة شك غامض من جانب «حور محب». ولقد قوي هذا الشك حين وجد القائد يتحول دفعة واحدة ـ لغير سبب ملحوظ ـ إلى النصح بوجوب اتباع سياسة السلم، بعد أن كان أول المنادين بالنهوض إلى الحرب. فلما عرف «سمنكرع» بعد ذلك بالمهمة التي أوكلها الملك إلى «حور محب» ازداد تشاؤمه، وحدثه قلبه بأن الليلة ستتمخض عن أمر جلل.

حين دخل «حور محب» على الملك وجده مستلقيًا على فراشه، وزوجه قائمة إلى جواره. فلما اقترب منه محاولًا التحدث إليه، أشارت إليه «نفرتيتي» بالصمت، فقد كان «أخناتون» في حال من الإعياء الشديد أسلمه إلى غيبوبة متقطعة. وكان الدم يسيل من فمه دون انقطاع، فتمسحه الملكة بمنشفة وتجفف دموعها بأخرى.

تأمل «حور محب» مليكه المُضنى فأحس بالألم يعصر قلبه، وأوشك أن يسجد إلى جانب فراشه، ليعترف له بخيانته وليسأله الصفح، لشد ما تجسمت له شناعة جريمته في هذه اللحظة...

غير أن الملك ما لبث أن استفاق ثم فتح عينيه فبدتا كأنهما من زجاج، وقد خبا بصيصهما حتى أشبهتا أعين الموتى. وأخيرًا خاطب زوجه بصوت ضعيف قائلًا:

ـ هل أتى «حور محب»؟

مسحت «نفرتيتي» جبين الملك بماء بارد وقالت:

ـ إنه بجوارك يا عزيزي.

ثم رفعت كتفيه من فوق الوسادة وأسندتهما إلى صدرها، وقربت من شفتيه كوبًا من الماء رشف منه جرعتين ثم أزاحه عن فمه، وبدأ يخاطب قائده بكلمات خافتة، إلى أن أعلمه بالمهمة التي يطلب منه أداءها. وأخيرًا قال له:

ـ إن الشعب يعلم أنك من أشجع رجال مصر يا «حور محب». فلو أنك خطبت فيه اليوم لوثق أن حديثك لم يكن صادرًا عن جبن، بل عن حكمة وبعد نظر.

ـ حسنًا يا صاحب الجلالة.

ـ فلتنطلق الآن في رعاية «آتون» عالمًا أن نجاحك اليوم في هذه المهمة، أحسن تمهيد يعد الشعب لتقبل ما سأصارحه به في الغد.

* * *

كانت في الجانب الشرقي لمدينة الأفق حديقة متطرفة، مغروسة في أسفل القبر الذي حفره «أخناتون» لنفسه في صخور الجبل. وقبل

مغرب الشمس بساعة رئيت جموع الأهلين تتجه وحدانًا وزرافات نحو هذه الحديقة، حيث كان المنادون قد جاسوا خلال المدينة يعلنون القوم بأن القائد «حور محب» سيخطب هناك.

سمع «سمنكرع» هذا النداء فتعجب له. إن «مدينة الأفق» مدينة حدائق، تكتنفها الساحات المنبسطة في كل مكان. فلِمَ اختار القائد هذه الحديقة النائية ميدانًا لخطبته؟ وعاد لذاكرته أنه لمح منذ يومين شخصًا يمرق في الظلام بصورة تثير الريبة، فلما اقترب منه وتعرفه، كاد يجزم بأنه أحد أعوان «بتاح موس» كان يعرفه في طيبة. فما الذي أتى به إلى «آخت آتون»؟ إن من أيسر الأمور اليوم إثارة شعب العاصمة المهتاج. فهل تكون هذه العلائم جميعًا مظاهر لتدبير خفي يدبجه كاهن «آمون»؟ وكان أن اندس «سمنكرع» في جموع الشعب ليرقب ما سيكون من شأن هذا الاجتماع.

كان الحشد طاميًا، فوجد «سمنكرع» مشقة شديدة في الاقتراب من المنصة التي أعدت لكي يلقي منها القائد خطبته. ولحظ وهو يشق لنفسه طريقًا وسط كتل الشعب المتراصة، أن من بينهم كثيرين ممن لم يقع عليهم بصره في «مدينة الأفق» من قبل. من أين جاء هؤلاء الأجانب عن العاصمة ومن أتى بهم؟ إن من يتفرس في وجوههم السمر وشعرهم المجعد وأعينهم الحادة، لا يتردد في القسم بأنهم من أهل طيبة. يا لرحمة «آتون»! إن الأمر يفوق في خطره كل حسبان، فليس هذا الاجتماع مجرد مصادفة بل هو مؤامرة واسعة النطاق.

ظل الناس يتصايحون ويصخبون إلى أن سُمع صوت عجلة مسرعة، ما لبثت أن وقفت بجوار المنصة فصمتت الأفواه وتطلعت

الأعين. قفز من العجلة «حور محب» بقوامه الممشوق ومن بعده... من يكون هذا؟ «توت عنخ آتون».. ولكن شخصًا ثالثًا هم هو الآخر بالنزول فلما واجه الجموع رآه «سمنكرع» فإذا به... يا للدهشة «مري رع» رئيس كهنة «آتون» وأكثر أصدقاء الملك قربًا إلى قلبه... ووقف ثلاثتهم قليلًا يتهامسون، ثم صعد «حور محب» إلى المنصة ودلف زميلاه وراءها.

استقبل الشعب القائد بوجوم أول الأمر. ثم سمعت صيحات متفرقة كأنها مدبرة، تتعالى من هنا وهناك فانتشرت العدوى ودوى المكان بالهتاف. وانتظر «حور محب» إلى أن خفتت الأصوات، ثم انتظر إلى أن سكنت، ثم انتظر أيضا ساعة طويلة كان الصمت فيها مخيمًا على رؤوس القوم، وبدأ التشوق يلعب بهم كل ملعب. ومع ذلك لم يتكلم القائد بل وقف ثابتًا يجول بعينيه في الجموع. وأخيرًا ضاق صدر الناس، فسمعت بينهم همهمة خفيفة ما إن وصلت إلى أذني «حور محب» حتى فتح فاه وبدأ يتكلم. فهذه هي اللحظة التي يحسن به أن يبدأ عندها خطابه حتى تجد كلماته الطريق مُعبدًا إلى قلوب السامعين. وليس عجيبًا أن يُعرف عنه أنه أفصح خطباء عصره فقد كان ذا معرفة تامة بشتى أنواع الحيل الخطابية التي تخلب أفئدة الجموع. بدأ «حور محب» خطبته فقال:

أيها السادة. يا شعب «آخت آتون». تعلمون جميعًا أنني صديق للملك من قبل أن يتولى العرش. وتعلمون أيضًا أن الملك صديق للشعب. (أصوات تقول: «لا لا لم يعد صديقًا»). بل هو كذلك. ولهذا فأنا أيضًا صديق

لكم. يا شعب «آخت آتون». يعرف جميعكم أنني لم أخن في حياتي صديقًا لي. فما خنت الملك ولن أخونه. فهل بلغ أحدكم أنني خنت الشعب أو أنوي خيانته؟ (أصوات: «لا لا أنت صديق الشعب»).

إذن فلتضعوا ثقتكم فيَّ أيها المواطنون، ولتلقوا إليَّ بأسماعكم. إن رحمة الملك وحكمته قد شاءتا أن تطرح آلهتنا القديمة، وأن نعتنق ديانة «آتون» السامية. (أصوات: «ليته ما فعل. لقد جاء النحس في ركاب آتون»). كلا أيها السادة. فـ«آتون» هو إله الحب والسلام. ثم إن الملك رأى بحكمته أن ينبذ طيبة عاصمة الدولة القديمة، وأن ينتقل ببلاطه إلى هذه المدينة الجميلة، «آخت آتون». فأطعنا الملك وتركنا طيبة بمغانيها وبحيراتها، وتركنا الكرنك بمعابده ومقابره حيث يرقد «تحتمس» بطلنا الأول إلى جوار جدوده الفراعنة العظام. (أصوات أشد قوة: «نريد الرجوع إلى طيبة»، «العودة إلى العاصمة المجيدة»).

أيها السادة. ما كان يحسن بكم التلفظ بهذا الهتاف. فالملك أبعدنا نظرًا وهو أعلم بما فيه خير شعبه ووطنه. فإذا كنا قد أطعنا الملك ستة عشر عامًا متوالية، فلِمَ تريدون أن نعصيه اليوم إذ يأمرنا بألا ندفع عن أنفسنا أذى الغزاة الآسيويين؟

(أصوات: «هذا لن يكون»).

إنكم تسيئون إليَّ بهذه الصيحات أيها المواطنون، فإنه مما يحرجني ـ وأنا صديق للملك ـ أن أسمعكم تنتقدون سياسته. فهل تودون لي هذا الحرج؟ (أصوات: «إنما أنت صديق الشعب يا «حور محب»»).

هدئوا من ثورتكم أيها السادة، واستمعوا معي إلى حجج الملك. لقد بلغنا اليوم أن بيت المقدس قد سقطت في أيدي الغزاة، فانهار بسقوطها آخر معقل لنا في آسيا. (أصوات مختلطة). صمتًا أيها المواطنون وأصغوا. وهكذا ضاعت كل مستعمراتنا في فلسطين، وكل مستعمراتنا في بلاد النهرين. ولكن الملك يقول ـ وهو محق فيما يقول ـ إن المستعمرات جميعها تعتبر قانونًا ملكًا لشخصه. فمن حقه أن يتصرف فيها بما يحلو له. له أن يحتفظ بها إن رأى، وله أن يتخلى عنها إن شاء، وله أن يهبها من يريد. فإن ابتغى اليوم أن يخلعها على أعدائنا الآسيويين فليس لأحد منكم أن يشكو، لأن الملك إنما يتصرف في ملكه. والملك لا يخضع لإرادة غير إرادته. (أصوات: «المستعمرات شريناها بدمائنا. المستعمرات ملك لنا»).

هذا غير صحيح أيها السادة، واليوم ترامى إلينا خبر شديد الخطر، ذلك أن قافلة الجزية المؤلفة من عشرة آلاف دابة ـ وهي التي كنا في أشد حاجة إلى ورودها سالمة ـ قد سطا عليها البدو فاستلبوها جميعًا، وقتلوا الجنود المصريين المرافقين لها. (أصوات). صمتًا أيها المواطنون وأصغوا. فلست بمخف عنكم شيئًا ما دمتم قد وثقتم بي. لقد كنا ننتظر هذه الجزية بلهفة بالغة وتشوق عظيم، إذ إن خزانة الدولة ـ لاختلال ورود الجزية في السنين السالفة ـ أصبحت اليوم خاوية ليس فيها قطعة ذهب واحدة تنفق في مصالح الشعب. ولقد رفض الملك أن يأمرنا بمتابعة اللصوص لأنه يقول ـ وهو محق فيما يقول ـ إن الجزية قانونًا ملك له وحده،

إن رأى أن يصرفها في شؤون الشعب فهذا شأنه، وإن فضل أن يحبسها على خدمة «آتون» فله ما فضل، فإن حلا له أن يدعها نهبًا للصوص فليس لأحد أن يعترض، لأن الملك يتصرف في ملكه، والملك لا يخضع لإرادة غير إرادته. (أصوات: «لقد آن له أن يخضع». «جزية مصر جزية الشعب». «شعب مصر لا يهان»).

أيها السادة. لو عرفتم كم أنتم تعملون على أن تكون مهمتي عسيرة، لما صرختم بهذه الهتافات التي تحرك كامن أشجاني. إنني صديق للملك. ولكنني أيضًا صديقكم، يثيرني ما يثيركم ويحزنني ما يحزنكم، فقد حارب جدي في صفوف «تحتمس» بطلنا العظيم كما حارب ألوف من جدودكم. ولقد قتل جدي في موقعة «مجدو» عشرين من الآسيويين الأنذال. وبينما يدفع بصدره سهام العدو عن مليكه في موقعة «قادش» أصابته طعنة صرعته عند قدمي فرعون. ولقد روى الألوف من جدودكم بدمائهم أيضًا تلك التربة الغالية الثمن. يا للآلهة!.. أما لو بعث جدي وجدودكم اليوم، فشاهدوا ما فعل حفدتهم بالتراب المجيد الذي شروه بأرواحهم، لتبرأوا منا ولعنونا إلى الأبد. (أصوات مدوية: «يا للعار... يا للشنار...»). ترى ماذا تقول روح «تحتمس» المقدسة المشرفة علينا الآن من خدر الآلهة؟! لكأنني أسمع صوته المدوي يصرخ عاليًا: «أين «قادش» و«مجدو»؟ لقد جعلت منهما أبهى درتين في تاج مصر فصيرتموها... (أصوات: «وصمة في جبين الوطن»).

لا.. لا أيها السادة، فهذا القول يغضب الملك،

وأنا صديق له. فعلينا أن نكتم أفواهنا، وأن نخشع بأبصارنا، فإننا لم نعد جديرين بالتلفظ بهذين الاسمين المقدسين... كيف نذكر «قادش» و«مجدو» والعدو على حدودنا، وعن قريب يغزونا في عقر دارنا، فينهب ثروتنا، ويهدم معابدنا، ويسبي نساءنا، ويذبح أطفالنا، ويأسر رجالنا... حينئذ يصبح سادة العالم عبيدًا للبرابرة المتوحشين، وتصبح أرض الفراعنة المقدسة موطئًا لنعال الكفرة.. كيف نذكر هاتين الموقعتين المجيدتين، وكيف نذكر «تحتمس» الخالد، وعن قريب يجعل العدو من طيبة و«آخت آتون» «قادش» و«مجدو» أخريين.. فينقلب النصر عارًا، والعزة ذلة، والشرف ضعة ومهانة.. (أصوات: «هذا لن يكون». «شعب مصر لن يهان»).

خففوا أصواتكم أيها المواطنون، فما نحن إلا شعب فرعون وعبيده. هو يحكم ونحن نطيع، والملك أبعدنا نظرًا. حقيقة قد سمعنا في طيبة لحنًا جديدًا يقول بأن الملك هو صوت الشعب وصدى أمانيه، فالإرادة للشعب والملك هو المنفذ. وقد يكون هذا صحيحًا أيها المواطنون، فالدولة أنشئت للشعب وأنتم الحكام الحقيقيون. أنتم ذخر الأمة ومصدر قوتها.. أنتم العنصر الفعال في سياسة الدولة. ولكن.. ولكننا أيها السادة لسنا في طيبة، بل في «آخت آتون»، والملك هنا لا يقر هذا النوع من التفكير وهو أحكمنا جميعًا. (أصوات مرعدة: «ليسقط الملك!»).

معاذ الله أيها المواطنون! فالملك يحبكم ولو أنه... لا يريد الحرب (هتافات صاخبة: «لن نرضى بغير الحرب». «إرادة الشعب فوق الجميع». «الحرب،

الـحـرب...»). رفقًا بي أيها المواطنون الأعـزاء.
لا تحرجوني فأنا صديق للملك، وهو سيخطبكم
غدًا فكيف تلقونه بهذه الروح؟! عليكم أيها السادة أن
تكبحوا جماحكم وتذعنوا لإرادة الملك. (أصوات:
«ليذهب الملك إلى الجحيم!»).
أيها المواطنون...

ولكن صوت القائد غرق في لجج الهتافات المدوية. وحين نزل عن المنصة، كان الفضاء يرتج بصيحات الشعب الثائر:

ـ ليحيا «حور محب» زعيم الشعب، ملك الشعب... ليسقط فرعون ولتحيى الحرب...

واستقل الخونة الثلاثة عربتهم، وانقلبوا عائدين إلى منزل «حور محب» حيث اجتمعوا بـ«بتاح موس» الذي كان قد حضر مستخفيًا إلى «آخت آتون» ونزل في بيت القائد. وهناك أعدوا العدة للغد.

الغد... فصل الخطاب ونقطة التحول.

يا للغد التاريخي المرهوب...

الفصل السادس عشر

ـ حتى أنت «يا مري رع»...

كان الملك يحدق في وجوم وهو يستمع إلى رواية «سمنكرع»، وحين حدثه عن اشتراك «مري رع» الكاهن الأعظم لـ«آتون» مع المتآمرين، انهمرت الدموع من عينيه، ومضى يبكي كالطفل.

«مري رع» الزهرة النقية التي حسبها تحتفظ بطهرها وإن نبتت في الدمن ومرامي القمامة.. «مري رع» حبيبه وأليف قلبه.. يا لقسوة الأقدار! إنه ليهون عليه أن يفقد ملكه وحياته وكل عزيز لديه، إذا خلص له رفيق صباه الذي وضع ثقته فيه. إنه يشعر الآن كأنه هو الخائن. فإن «مري رع» قطعة من نفسه وقبس من روحه، فإذا أخطأ فقد أخطأ هو معه.

شعر «أخناتون» بأن الحياة فقدت كل قيمة لديه، وبأن الظلمات تكتنفه من كل جانب. ما جدوى الكفاح الآن؟ وما جدوى التمسك بأهداب الحياة؟

كل شيء قد انهار حتى كيانه نفسه. كل معنى نبيل في الكون قد

شحب وفقد لونه. كل مثل عالٍ على الأرض لم يعد يستحق الجهاد، ما دام تحققه لا يتضمن غير الغدر والخيانة. فالأفكار الجميلة التي تشوق المرء من بعد وتستهويه إلى النضال، فيقضي حياته في الصراع المر المضني من أجلها، ويكدح ويشقى ليقترب منها، ثم إذا به مشرف عليها يمني النفس بالثمر الشهي، فيجمع عزمه ويتقدم إليها، فيبلغها سائل الدم مقطع النياط، ثم يمد يده ليجني الثمر. فماذا يجد... لا شيء غير الجيف والنتن. هذه هي خاتمة المطاف. فيا لسخرية الأقدار، ويا حسرة على الإنسان الغبي الأبله!

كانت «نفرتيتي» حاضرة اجتماع الملك بـ«سمنكرع»، فلم يخف عليها ما طرأ على زوجها من بوادي الهم، فقامت إليه وجلست بجواره ممسكة بيده كعادتها. ونظر إليها يتأمل ذخره الوحيد في الأرض ثم ابتسم ساخرًا وقال:

ـ ما فائدة الجهاد الآن يا «نفرتيتي».. إن الله بدلًا من أن يرسل إليَّ بصيصًا من النور أستعين به على كشف ما يتكاثف حولي من الظلمات، أراه يعمل على فت عضدي وتمزيق أوصالي، وكأنما قد انضم إلى زمرة أعدائي...

وتنهد الملك في استطالة ثم قال:

ـ إيه يا «نفرتيتي».. لقد آن لي أن أضع السلاح، فلم يعد لي جهد للمقاومة.

فضغطت الملكة يده وقالت:

ـ أتتخلى عن مصرنا العزيزة في هذا المأزق الضيق؟

ـ لتنحدر إلى حيث تشاء لها المقادير فلم أعد أهتم بشيء. ولو أني

رأيت اليوم كل ما بنيته في حياتي يتحطم أمام ناظري صرحًا بعد صرح، لما حركت أصبعًا أو نبست بلفظ. لم أعد أهتم بشيء. إن الأمر الوحيد الذي يؤسفني الآن هو أنني لم أدرك هذه الحقيقة في مطلع حياتي. إذن لطرحت عن عاتقي كل مشغلة ولعشت وادعًا خاملًا لا أنشط لشيء.

ـ لا يا عزيزي.. إنك لا تكون «أخناتون» حينئذ.

ـ بل أكون «أخناتون» أضعاف ما أنا الآن يا «نفرتيتي». فقد عشت طول حياتي منصرفًا إلى شؤون غيري، آخذ من نفسي وأعطي سواي، حتى صرت إناء فارغًا استنزفت كل قطرة فيه، وأصبح «أخناتون» إذا نظر لنفسه لم يجدها.. فلو أنني عشت لشخصي ولم أهتم بغيري، لأخذت من الناس وأعطيت نفسي، ولصرت أضعاف ما أنا الآن.

هزت الملكة رأسها وقالت مبتسمة:

ـ لا يا «أخناتون». هذا غير صحيح. فأنت اليوم أضخم رجل على الأرض.

ـ أنا! أشكر لك هذه المحاسنة يا عزيزتي. ولكنها تعزية لا غير، انظري إليَّ الآن.. إنني إذ بذلت إلى الشعب جحدني، وإذ أخلصت إلى الأصدقاء أسرعوا إلى خيانتي، وإذ وهبت حياتي لـ«آتون» خذلني وتخلى عني. فلم أصبح ملكًا ولا صديقًا ولا نبيًّا. ولولا أن شفقتك بي تفوق الوصف لما قبلتني زوجًا. فإذا لم تفد حياتي أحدًا، فلِمَ لم أكن حكيمًا أفيد نفسي من حياتي؟ فأطعم وأكتسي وألهو، ثم أجهز الجيوش وأفتح البلدان،

لأتوج اسمي بالفخار، لأسلمه إلى التاريخ محوطًا بمجد براق يتناقله الخلف عن السلف؟ أما الآن.. فلست أدري ما سيقوله الناس عني حين أموت...

كان «سمنكرع» ينصت إلى حديث الملك وهو صامت، فلما لحظ عليه هذا التردد الذي يناقض إصراره وعناده فيما مضى هب لانتهاز الفرصة فقال:

ـ ولكن الفرصة يا مولاي لا تزال سانحة. ففي وسعك اليوم أو غدًا أن تعلن الحرب.

هز «أخناتون» كتفيه وقال:

ـ ما الفائدة الآن... قلت لك إنني لم أعد أعبأ بأي مصير تتمخض عنه الحوادث.

ـ بحق «آتون» فكر فيما نحن فيه يا صاحب الجلالة. إن إعلان الحرب فيه خلاصنا من مشكلاتنا جميعًا. وفيه القضاء المبرم على سائر الدسائس التي تنبض بها العاصمة الآن. فأعداؤنا لا يستندون في مؤامراتهم وفي إثارتهم للشعب، إلا على يقينهم بأنك لن تعلن الحرب. فهم يقولون إن فرعون مقصر لأنه لا يريد الحرب. على رسلهم. فلتعلن جلالتك الحرب غدًا في خطبتك، فتنهار صروح كيدهم بضربة واحدة، ويرضى عنك كل المتذمرين. ولا يغرنك موقف «حور محب» الخائن، فالواقع أن جميع رجال الجيش ثائرون صاخبون يريدون الحرب، والقائد نفسه يشجعهم على ذلك خفية. وإن مولاي يعلم حقًّا أن رجال الجيش هم أقوى عنصر في توجيه سياسة الدولة. إنها

كلمة واحدة يا مولاي. ليس عليك سوى النطق بها فتنتصر على أعدائنا في طرفة عين، الحرب...

أطرق «أخناتون» برهة ثم رفع رأسه وقال:

ـ ما أظنني سأنطق بها يا «سمنكرع».

ـ إنني أضرع إليك يا مولاي. هأنذا أجثو أمامك على ركبتي باكيًا ملتمسًا أن تحيد عن رأيك، إن لم يكن من أجلك فمن أجل مصر.

ـ ليس في الحرب ما يصلح أمر مصر يا «سمنكرع».

ـ مولاي، إننا مهددون بالغزو بين حين وحين.

ـ هذا لا يسوغ الحرب. لا شيء على الأرض يمكن أن يسوغ القتل والاغتصاب والتدمير.

ـ ليكن هذا صحيحًا يا مولاي. ولكن مصلحة مصر تقتضي أن تظل أنت الجالس على عرشها.

ـ أنت ستخلفني على العرش يا «سمنكرع».

ـ إنني لن أفيد بغيرك شيئًا. فمن أجلي أنا يا مولاي ـ أنا صديقك الذي يفديك بعينه وبقلبه ـ ومن أجل زوجتك المقدسة، ومن أجل بناتك الأميرات السبع، ومن أجل عرش مصر، ومن أجل نفسك، بل من أجل رفعة الإله «آتون»... يا الله! أما تتدبر كل هذه المصائر المعلقة بلفظ منك... فلتعلن الحرب يا مولاي ولا تحارب بعد ذلك. أعلنها لفظًا إلى أن نتدبر أمرًا نستطيع به أن نقبض على زمام الحال، ولك حينئذ أن تحارب أو لا تحارب فالأمر بيدك. مولاي. هذا أول مطلب أتوجه به إليك طوال حياتي، وأعدك أن يكون الأخير فهل تردني خائبًا؟

صمت الملك فترة طويلة وعاد يعض على أضراسه، وقد أسرع تنفسه، واتسعت خياشيمه. وأخيرًا قال:

ـ حسنًا يا «سمنكرع». أنظرني إلى غد.

* * *

امتلأت الساحة الفسيحة المواجهة لشرفة القصر بالأحمر والأسود من الناس، فبدت رؤوسهم المتمايلة كأمواج بحر زاخر. طالما رأت هذه الساحة أعيادًا مرحة ومواكب صاخبة... طالما وقف فيها كبار الموظفين يتقبلون العطايا يلقيها عليهم فرعون وزوجه... طالما دقت فيها الطبول وعزفت الأوتار ورقصت القيان... طالما لعب فيها الأطفال الأبرياء وخطرت عليها النسوة الفاتنات... طالما أمها الرسل والسفراء من مشرق الأرض ومغربها للتنزه في المدينة الساحرة، أو للمثول بين يدي فرعون الذي تحدثت بشهرته الركبان...

أما اليوم، فبالرغم من ضيقها بألوف الناس، لم يكن يسمع فيها صوت سوى همهمة خافتة كهمس الريح خلال الأغصان. فقد كان جلال الموقف ورهبة الساعة يلجمان الألسن ويعصفان بالقلوب. أما شرفة القصر فلما تزل خالية مسدولة الستر. وعلا في الفضاء صياح طفل يبكي فانتهرته الأصوات من كل جانب، وغشي الصمت المكان من جديد. وبعد حين شوهد خدم القصر يزيحون الستر عن جنبات الشرفة، فتطلعت الأعين وتعلقت الأنفاس. غير أن الملك لم يظهر فعاد الهمس والهمهمة. ومل الناس الانتظار فسمع من يقول:

ـ لا تنتظروا الملك فهو ينظم أنشودة جديدة لـ«آتون».

غير أن القوم لم يكونوا مهيئين لهذا النوع من المزاح فزجروا

المتكلم، وتعالت بعض صيحات من هنا ومن هناك. وبينما هم في همسهم ونقاشهم، إذ دوى من الشرفة صوت كبير الأمناء صائحًا:

ـ صاحب الجلالة فرعون.

ساد الصمت فجأة واشرأبت الأعناق. وراحت الأنظار تحدق في الشرفة انتظارًا لظهور الملك الذي طال احتجابه في الأيام الأخيرة، وما هي إلا أن لاح «أخناتون» ومن ورائه «سمنكرع» شريكه في الحكم. كان الملك يسير في بطء شديد، وفي يده عصا يتكئ عليها. وحين وصل إلى حافة الشرفة غمره ضوء الصباح، فإذا بوجهه عنوان للهزال والشحوب. غير أن نظرته كانت لا تزال صارمة حديدية، يشع منها ذلك العزم النافذ الذي شق به الملك طريقه طوال حياته.

جال «أخناتون» بعينيه في الجموع التي جاءت اليوم لتتهمه، فسنحت على شفتيه بسمة حزينة. وجال في رأسه في تلك اللحظة خواطر غريبة لا تمت إلى ملابسات الحال بسبب. فقد تذكر حادثًا وقع له في عهد طفولته، إذ كان يقفز من فوق شجرة فجرحت ساقه وسال دمه، فجاءوه بطبيب كهل أسلمه لحيته فكان يشدها أثناء تطبيبه إياه، ولا يفتأ يفعل ذلك بالطبيب كلما عاده، وذكر أن الطبيب قال لوالدته مرة:

ـ إذا جرح ولي العهد مرة أخرى فسأصير حليقًا بدون ذقن.

إنه ليشتهي الآن أن يعود طفلًا غير مسؤول، يهتم به الناس بدلًا من أن يهتم بهم. لن يكون حينئذ في حاجة إلى مواجهة هذه الأوجه المقطبة وتلك الأعين المتجهمة. وسلمته تلك الأفكار إلى شعور عجيب بالخفة والنزق، فزين إليه أن يرفع عقيرته بالغناء، أو يلوح

بيديه راقصًا ضاحكًا. إن القوم حينئذ سيعطفون عليه، ولا يبدون له هذا التحدي الغليظ الذي لا يقدر على مواجهته، وهو الذي يحيا بالحب والحنان. ألا ما أقبح الكراهية...

وبدأ الملك يخطب قائلًا:

أيها الرفقاء. يا شعب مصر. حياكم الله وأبقاكم وشملكم برعايته وحبه.

إنها فرصة سعيدة تلك التي مكنتني من رؤية جموعكم العزيزة، بعد أن حجبني المرض عنكم حقبة طويلة. ولكنني أتبين بينكم وجوهًا لم أشاهد أصحابها في عاصمتنا الجميلة من قبل. فأهلًا بهم وسهلًا.

أيها الرفقاء. إنني ألمحكم اليوم على غير ما عهدتكم عليه من طمأنينة ورضا. فما الذي أحال وجوهكم وقطب جباهكم وأثار أفئدتكم؟ ما الذي جمعني بكم اليوم في غير عيد ولا حفل؟ إنه لا بد أمر خطير... ولكنني لن أسألكم عنه فأنا الذي طلب لقياكم اليوم. ولست بجاهل ما يشغل نفوسكم الأبية، ويحرك قلوبكم المحبة للسلام.

ولكنني يا شعبي المحبوب أختلف معكم في تقدير خطر هذا الأمر، وإن كنت أعتقد أننا لن نختلف في وجهة النظر إليه والحكم عليه، بعد ما أبسطه إليكم من بيان.. فمسألة اليوم قضية كآلاف القضايا التي تطرح على محاكمنا المختلفة. وهي لذلك يسيرة في جوهرها واضحة في مدلولها. ولقد نظرت إليها على هذا الوجه، فحكمت فيها. وهأنذا أعرض عليكم ما استقر عليه قضائي. بيد أنني أرجو منكم قبل ذلك أن تنتزعوا من

رؤوسكم تلك الصورة المموهة التي أوحت بها إليكم بعض الجهات، وأن تتناسوا ما أثاروه فيكم من جسامة الأمر وسوء العاقبة. فمشكلة اليوم هينة عادية. وعليكم أن تبحثوها على هذا الوجه، فلا تخافوا من الحكم عليها بمثل الحكم الذي تقضون به فيما يماثلها من مشكلات.

يا شعب مصر. لو أن أحدكم جاءني يتظلم من باغ سلبه ملكًا له، أفكنت أرد عليه ملكه. أم آمر به فيجلد وأقر الغاصب على ما غصب؟ (أصوات: «بل يرد عليه ملكه»).

حسنًا. ولو أن أهل قرية من القرى استشعروا في أنفسهم السطوة، فأغاروا على أرض قرية مجاورة، فطردوا سكانها وراحوا يزرعون أرضها ويستغلونها لأنفسهم، فأتاني أهل القرية المسلوبة يطلبون إليَّ أن أعيد إليهم أرضهم التي منها يقتاتون، وفي دورها نساؤهم وأطفالهم يسكنون. أفكنت آمر بتشريدهم في الصحاري والقفار، أم أعيدهم إلى بيوتهم وزرعهم؟ (أصوات: «بل يعادون إلى بيوتهم»).

حقًّا حكمتم أيها الشعب العادل. فلتنظروا معي في أمر أمة قوية غلبت أمة ضعيفة على أمرها، فاستعمرت بلادها وأسرت سكانها. أفتقتضينا العدالة أن نقر الأمة الغاصبة على غصبها، لمجرد دعواها أنها قد ذرفت دم أبنائها وهي تغتصب، أم ننصر الأمة المسكينة التي تطلب رد أرضها إليها؟ (همهمة..).

أراكم صمتُّم أيها السادة. فهل كنتم غير محقين إذن حين طردتم الرعاة من أرضكم ووطنكم؟ (أصوات: «بل كنا محقين»).

إذن أنتم تسلمون معي بأن من حق المستعمرات التي غزاها جدودنا أن تطالب اليوم بحريتها. فلِمَ تريدون اليوم إعلان الحرب عليها؟ (أصوات: «الوطن نفسه في خطر»).

ولكن الوطن حتى الآن لم يهدد. وأغلب الظن أنه لن يهدد. ومع ذلك فقد سألني بالأمس أعز صديق لي قائلًا: «فإن هدد.. . إذن دعوني أجبكم عن هذا السؤال، فلعلكم لم تجتمعوا اليوم إلا لسماع هذه الإجابة.

يا شعب مصر. إذا أسرى أحدكم في الصحراء ليلة فلقيه ذئب، فكيف يضمن لنفسه النجاة منه؟ أبالهجوم عليه أم بالهرب؟ لا بهذا ولا بذاك. بل باتباع نصيحة جدودنا الحكماء، إذ يشيرون عليه بأن يمضي في طريقه هادئًا غير عابئ. والحق إن هذا المسلك يقتضي منه كل شجاعته. أما الهرب فجبن. وكذلك الهجوم جبن، لأنه هرب معكوس ينبئ عن الخوف.

أيها السادة. إنني إذ أطلب منكم اليوم أن تلتزموا الهدوء وألا تمضوا إلى الهرب، فليس هذا جبنًا مني ولا منكم، بل هو إظهار لمنتهى الشجاعة البشرية التي تضمن وحدها السلام لوطننا. فالرجل الذي يبادر بالهجوم على الذئب، يهجم عليه الذئب وقد يفتك به. وأنتم إذا مضيتم في التسلح أو خرجتم إلى الحرب، فكأنما تدعون إخواننا الآسيويين لغزو بلادكم. فمن جبن قلبه وخشي الغزو، ثم أبان تلك الخشية، بادر من يخشاه بغزوه. أما إذا سرنا في طريقنا بهدوء ينم عن شجاعة وعزم، فلن يقربنا أحد. فإن المعتدي والسارق لا يقربان الناسك المتعبد. (أصوات متفرقة: «أهذا كلام..»).

ما أظن هذه الهتافات صادرة من شعب «مدينة الأفق».
أجل إنه كلام، أيها الضيوف الأعزاء. وهو أصدق كلام.
(أصوات: «فإن غزونا بالرغم من ذلك؟»).
إن غزونا بالرغم من ذلك... لا بد أن يكونوا حينئذ جياعًا مساكين، في حاجة إلى عوننا وشفقتنا، كالسائل المحتاج يقرع بيوتكم أيها المصريون الكرماء (أصوات: «أو كاللص الفاجر ينهب البيوت»).
أو كاللص. ولكن اللص ليس بفاجر أيها الرفقاء، بل هو محتاج أيضًا. فإذا ما أشبعتم حاجته أصبح صالحًا مثلكم وعاش معكم في وئام. فالنفس البشرية ليست شريرة في جوهرها، إنما تقسو عليها الملابسات فتحيد عن الطريق. وقد يحيد إخواننا الآسيويون عن الطريق فينزلون بأرضنا، فهل نقابلهم بالفؤوس والحراب؟ بل بالأعياد والأفراح. وسنرحب بهم أينما حلوا فهم ضيوفنا، علينا إكرامهم ما طاب لهم المقام. حينئذ تناديهم أوطانهم فينزحون عن أرضنا ولن يغزو مصر بعد ذلك غاز. (أصوات: «يا لقصص الأطفال...»).
أشكر لكم مزاحكم اللطيف أيها الضيوف الأعزاء. ولكن يؤسفني أن أقول لكم إنها ليست قصص أطفال، بل هي تبدو لكم على هذا الوجه، لخطأ صغير تقعون فيه. فنحن جميعًا نعرف ما يجب أن تكون عليه أخلاقنا الشخصية، ونعرف كذلك موضع العدل في قضايا أهلينا. ولكن إذا أصبحت محل التطبيق أخلاق الدولة لا أخلاق الشخص، وإذا صار موضع البحث قضية الدولة لا قضية الفرد، وجدتكم تقلبون الأوضاع

وتغيرون المقاييس، مع أن الخلق الفاضل للفرد يكون خلقًا فاضلًا للدولة. وعدالة الفرد يجب أن تكون عدالة الدولة، إذ الدولة لها ضمير مستمد من ضمائركم، لأنها مجموع عاداتكم وأسس عدالتكم. وأنتم أيها الرفقاء مسؤولون عن ضمائركم وحدها. أما أنا فمسؤول عن ضمير الدولة، ومسؤول عن حسن خلقها وعن عدالتها.

لقد سمعت بالأمس أنه قام فيكم خطيب يقول: «إن الملك صدى لأماني الشعب». وهذا حق. وأنا أزيد عليه: إن قلب الملك بيد الله، فالملك أصدق معبر عن الرغبات العادلة. فما هي رغبتكم أيها الشعب؟ أهي الحرب؟ إذا قلتم ذلك فأنتم لا تعرفون ما بأنفسكم، بل ترددون ما ألقاه المغرضون في آذانكم. أما أنا... أنا مَن قلبه بيد الله ـ فإنني أعرَف بإرادتكم منكم.

أيها القوم، إنني في حيرة من أمركم. لقد كنت أتصور أن أطلب منكم الحرب، وأن أدفع بكم إلى التهلكة، فتخرجون عليَّ وتمتنعون عن طاعتي محافظة على نفوسكم وبيوتكم. وإنني أتخيل أنه في العصور المقبلة ـ حين تصبح الشعوب أكثر معرفة بنفسها وبما فيه خلاصها ـ سينقلب الحال الذي ترونه الآن، فيقول الشعب ما أنا قائل ويصيح مطالبًا بالسلام، ويقول الحكام ما تقولون فيدفعون بشعوبهم إلى الحرب والهلاك.

أيها الرفقاء، حقًّا إنني صدى لأمانيكم ومعبر عن رغباتكم. وليست أمانيكم الحقة ورغباتكم العادلة إلا السلام. السلام لا الحرب هو الذي يجب أن يُكفل لجميع الشعوب لأنه حقهم الشرعي. فكيف تتخلون

عن حقكم وأنا أبذله لكم؟ أنسيتم ما هي الحرب؟ ألم يحدثكم جدودكم بحقيقة غزوات «تحتمس»؟ أما تعرفون ما هي «قادش» وما «مجدو»؟ إنها أيها الشعب السريع النسيان، أشلاء تملأ الساحات ودماء غزيرة ارتوت بها الأرض وصيحات معذبة صادرة من أحب الناس إلينا. إنها العمى والعرج والبتر والكساح. إنها الأرملة فقدت زوجها والأم ثكلت ولدها والأخت تبكي أخاها والفتاة تندب حبيبها. إنها المناحة العظمى تعم أرجاء الوطن، والشقاء والحزن يخيمان على كل منزل. إنها المجاعة والذلة والمرض، حين تخلو الحقول من حارثيها، والبيوت من عائليها، وتنتشر المقاذر والخبائث في كل مكان. حينئذ تضربون الأرض برؤوسكم وتقولون: «ما كان أغنانا عن الجري وراء مفاتن المغرضين! وما كان أحمقنا إذ سحرتنا الألفاظ الفارغة!».

وقد تكسبون الحرب. فحدثوني عن الفائدة التي تعود عليكم بعد كل ما بذلتم وجاهدتم. ما كان أسهل عليَّ أن أندفع مع غرة الملك. فأعد لكم العدة وأستكثر من السلاح، ثم ألقي بكم إلى حيث يتخرم الدهر حياتكم بموت زعاف، فتحرمون كل ما تشره إليه النفس من لذة الدنيا، على حين أقبع في وسادي المبطن بالحرير. وقد تعودون وقد لا تعودون. فإن عدتم فماذا تفيدون أنتم ونساؤكم وأبناؤكم من كل ما تحملتم؟ لا شيء وحق «آتون» غير الوكس. أنا وحدي الذي أستفيد دون أن أخسر شيئًا. أنا وحدي من ستتوج هامته بأكاليل المجد الزائف. أنا وحدي من سيملأ خزائنه بأموال الجزية

أنفقها في أهوائي وما أريد. أنا وحدي أغنى بالحرب وأنتم جميعًا تفتقرون. فوالله لن تغنموا من الحرب حبة بر واحدة أكثر مما كانت تغله أرضكم.

ولكنكم مع ذلك لا تدركون أن الحرب ليست إلا استغلال الحكام لكم. وهم في سبيل فتنتكم إلى هذه الغاية يملأون مسامعكم برنين أجوف لألفاظ زائفة، فيحدثونكم عن الشجاعة والشرف والوطن، وهي جميعًا براء مما إليه يقصدون. فالشجاعة والشرف والوطن تقتضي تحقيق السلام للشعوب. لا إغراءها على هلاك أسود.

أيها الشعب. أنا الملك لا أريد الحرب، ولن أعلنها ما حييت. أفما زلتم فيها راغبين؟

حين وصل «أخناتون» في خطبته إلى هذا الحد، كان قد امتلك أفئدة سامعيه، وأصبح في مكنته أن يوجههم إلى حيث يريد. وكان يخيل إلى جموع الشعب وهم ينصتون إلى هذا البيان الفذ، أنه صادر من ثائر يحضهم على معصية الملك لا من فرعون نفسه. ولقد ظل سحر ألفاظ الملك مخيمًا على رؤوسهم مستبدًّا بقلوبهم، فما إن سكت عن الكلام حتى انطلقت حناجرهم تدوي بصياح مرعد:

ـ الأمر لك أيها الملك، ليحيا فرعون العادل، ليحيا ملكنا الرحيم...

كان النجاح منقطع النظير، ولكن إلى حين.

كان مندسًّا بين الجموع «بتاح موس» الرئيس السابق لكهنة «آمون»، ومن حوله أعوان له. فقد رأى الكاهن أن يشرف بنفسه على تنفيذ تدبيره في هذه الساعة الحاسمة، التي تمثلها حبلًا

مشدودًا تترجح عليه صروح أمانيه وأقدار ما افتن في حبكه طوال الليالي والسنين. وكان الكاهن يعرف أن الملك محبوب من شعبه، وعلى الأخص من أهل «آخت آتون». ولم يغب عنه أنه سريع النفوذ إلى قلوب سامعيه إذا تكلم أو خطب. ولذا استقدم الكاهن معه جمعًا غفيرًا من أهل طيبة، دسهم في صفوف الشعب، وكلفهم بتسفيه كلمات الملك بتلك الهتافات العدائية التي سمعت في أول الخطبة. غير أنه لم يكن يحسب أن الملك قادر على صهر عقول شعبه إلى هذا الحد، ليتخذ منها سبيكة طيعة يصوغها كيفما يشاء. فلما طرق أذنيه صياح الشعب يهتف بحياة مليكه تمتم في سخط وثورة قائلًا:

ـ يا لهؤلاء الآختيين الضعفاء المنحلين... ما أهونهم شعبًا تطوح به الألفاظ!

كانت هذه اللحظة أخطر ما مر به الكاهن في حياته من أزمات. وخيل إليه في لحظة أنه فقد كل شيء. غير أن شيئًا واحدًا لم يفقده الكاهن، ذلك هو رشاده. وسرعان ما أعمل فكره في تدبير مخرج قريب.

كان الكاهن الخبير بنفوس البشر، يعلم أن الرجل إذا اندفع وراء عاطفته مدة ما، فسمح لنفسه بأن يلين لتأثير غيره، سرعان ما يشعر بالخجل، فيلوم نفسه على ضعفها الذي سول لها أن تلغي عقلها وتجري وراء قلبها. ويتضاعف هذا الشعور إن تم هذا بين جماعة من الرجال. فهم يحسون حينئذ بأنهم خدعوا، وضحك منهم. ويعقب هذا الإحساس رد فعل خفي، فتراهم واجمين كأنما يبحثون عن

وسيلة يتمكنون بها من الثأر من ساحرهم الذي سلب لبهم. ولقد عمد الكاهن إلى أن يبيح لهم هذه الوسيلة. فطلب من أعوانه أن يتبعوا مع الملك خطة الغوغاء، فيقاطعوا خطبته بالهتاف، ويهزأوا بكل معنى يذكره. وهي خطة تثير أعصاب المتكلم، وخاصة إن كان أبي النفس يستنكر هذه الأساليب الوضيعة. فسرعان ما يفلت زمامه من يده ويرتج عليه.

ما إن هدأ هتاف الشعب حتى استأنف الملك خطبته قائلًا:

شكرًا لك أيها الشعب الكريم، فقد رفعت رأس ملكك أمام ضيوفنا الأعزاء، الذين قدموا لزيارتنا من طيبة، مجشمين أنفسهم مشقة الارتحال. (أصوات متفرقة: «أين هم أهل طيبة..»).

إنهم بيننا على الرحب والسعة. وشكرًا لكم ثانيًا لأنكم أعنتموني في تجربتي القاسية التي أكرمني بها «آتون». (أصوات: «ما هو آتون؟».. «أين هو آتون؟».. «ما شكل آتون؟»).

يلوح لي أن ضيوفنا الأعـزاء لم يصل إليهم خبر إلهنا «آتون». إن «آتون» هو إلهكم أيضًا. (أصوات: «حاشا. حاشا»). بل هو إله جميع البشر لأنه رب... (أصوات مقاطعة: «الهزيمة والخذلان والجبن»).

أيها السادة. قد تكونون ضيوفنا ولكنكم وقحاء. ولن أسمح لأحد في هذا المكان المقدس... (أصوات مقاطعة: «من قدسه؟ إنه مكان نجس..»).

صمتًا أيها الخاطئون.. وحق «آتـون».. (أصوات مقاطعة: ««آتون» إله الموبقات..»). الموبقات أيها

الـ... (أصوات متفرقة: «ماذا فعل «آتون»؟ لقد جعله يقبل زوجه في الطريق.. «آتون» العربيد... إنه يغني له في معبده كأنه في حان.. الشؤم في ركاب «آتون» الفاجر..»).

لطيف والله هذا منكم يا شعب مصر. لو أن ما تقولونه الآن قد سمعه إخواننا الآسيويون... (أصوات تزداد ارتفاعًا: «إخوانك وحدك.. ها قد اعترف ابن الأجنبية.. الملك الخائن يتكلم عن التضحية وقد باع بلاده لجدوده الآسيويين»).

سامحكم «آتون» أيها الإخوة. (أصوات مزمجرة: «اصمت يا خائن «آتون».. فليسقط مجرم «آتون»..»).

ـ مجرم «آتون».. مجرم «آتون»...

كانت هذه الصيحة التي شيعت الملك من الشرفة إلى داخل القصر. فما إن توارى عن الأنظار، حتى قام الخطباء في جنبات الساحة يتبارون في إثارة الشعب بألفاظ ضخمة واتهامات عريضة. وأدرك الكاهن أن أعظم ما يهيج الجموع ويلهب نفوسهم، هو ما يلفقه لهم من قصص حول الملك. فراح خطباؤه يعدون للشعب أسطورة الملكة الأجنبية، ويتحدثون عن دم فرعون الآسيوي، وعن كرهه لمصر واحتقاره لأهلها، حتى إنه لم يجعل إلهه قاصرًا على مصر وحدها، بل جعله إلهًا أجنبيًّا على خلاف ما نهج عليه الفراعنة الأمجاد.

علا صياح القوم ودوت هتافاتهم:

ـ خائن «آتون». مجرم «آتون»...

وفي وسط هذه الثورة المربدة، ارتقى «بتاح موس» مكانًا مرتفعًا، فظهر أمام الشعب أول مرة منذ ألغيت عبادة «آمون». كان هذا دوره وتلك ساعته... تلك الساعة التي انتظرها عشر سنوات طوال. وصاح أعوانه الملتفون حوله:

ـ «بتاح موس» هنا! الكاهن الأعظم.. صمتًا أيها السادة.

اتجهت أنظار القوم إلى كاهن «آمون»، فلما تبينوه دهشوا بادئ بدء، ثم علا هتافهم:

ـ ليحيا الكاهن الأعظم.. ليحيا مخلص مصر...

غير أن الكاهن رفع يده يطلب منهم الصمت والإنصات ثم أنشأ يتكلم:

أشكر لكم يا أبنائي البررة، يا من أبعدتم عني ظلمًا وحسدًا. غير أن المجال اليوم لا يسمح بالمناجاة والشكوى، فإن مصر تمر بأدق أزمة صادفتها في تاريخها المجيد. ولقد أردت أن أكلمكم الآن لأفضي إليكم بسر خطير وصل إلى علمي الساعة.

يا أبنائي الكرام. أظنكم تذكرون زيارة الخائن «أزيرو» لمصر منذ عامين، وإخالكم تتساءلون متعجبين: كيف يقع تحت أيدينا أكبر أعداء مصر، فيطلقه الملك سليمًا بدل أن يقطع رأسه! والإجابة عن هذا السؤال تفسر لكم مسلك فرعون قبل الغزاة، وتظهر لكم أنه حين خلع على نفسه مسوح النسك أمامكم منذ قليل، كان يكذب عليكم ويخدعكم. أما الحقيقة فهي أن فرعون لا يريد أن يحارب لأنه سبق أن باع وطنه للأعداء.. (أصوات وهمهمة).

أجل أيها السادة. لقد باع وطنه واتفق على الصفقة مع الخائن «أزيرو» حين زار مصر. وكان الثمن هو أن ينصب فرعون ملكًا على سوريا وفلسطين. بعد أن تكون مصر قد صارت مستعمرة لهذه البلاد. ولم أكن لأتهم فرعون بهذه التهمة الخطيرة لو لم أكن متثبتًا من صحتها. والدليل على صدق ما أقول هو أن «حور محب» قائد الجيش الأعلى وابن مصر البار، قد انشق على فرعون حين ظهرت خيانته. ولم يكن «حور محب» وحده هو الذي فعل ذلك، فهناك أيضًا «مري رع» الذي كان بالأمس رئيسًا لكهنة فرعون، قد جاء لي اليوم تائبًا معتذرًا عما صدر منه من مروق، فصفحت عنه وباركته. ولن يقتصر الأمر على هذين وحدهما، فثمة شخصية جليلة أخرى ستعرفونها عما قريب، وثمة جمع كبير من رجالات مصر وعظمائها وكبار قوادها، قد انشقوا جميعًا على فرعون التعس. أما دليلي على صدق ما أقول من خيانة فرعون، فهو هذه الوثائق التي انتهت إليَّ الساعة، وهي رسائل تبودلت بين فرعون وبين الخائن «أزيرو»، تحوي تفاصيل صفقة بيع مصر للآسيويين البرابرة، وإني أضع هذه الرسائل تحت تصرفكم ولكل واحد منكم أن يطلع عليها ليقرأ الخيانة مسطورة أمام عينيه...

وأبرز الكاهن من صدره لفائف من ورق البردي وبسط بها يده إلى الشعب. أما هذه اللفائف فقد كانت ورقًا أبيض ليس به كلمة واحدة. مع ذلك فقد علا صوت الجموع الهائجة:

ـ ليسقط الملك الخائن.. ليسقط مجرم «آتون»...

يا للشعب الأعمى! لعل فرعون كان على حق حين قال بأن الناس تفضل الكراهية على الحب...

فقد غلى مرجل الثورة وفار بعد أن انتهى الكاهن من خطبته، وازداد الهتاف بسقوط الملك المجرم. وأدرك «بتاح موس» أن الشعب بدأ يستمرئ هذه الصيحات التي تشعره بقوته وخطره، فعرف أن غرسه قد أثمر، وأن الجموع باتت تنتظر إشارة منه فتتجه إلى حيث أشار. فمد الكاهن العاتي يده صوب القصر...

ـ مجرم «آتون»...

يا لهذه الصيحة المشؤومة التي ظلت أحقابًا طوالًا عنوانًا لأنبل ملك في الوجود!

ارتمى «أخناتون» على فراش مرضه، وهذه الصيحة الهائلة تصرع آذانه وتخز قلبه. كان يراها مسطورة أمام عينيه على الحوائط وفوق صفحة السماء وفي كل مكان، فما يحول بصره إلى وجهة إلا طالعته بأحرف من نار كأنها دينونة الآخرة: مجرم «آتون»... مجرم «آتون»... مجرم «آتون»...

أدرك منذ تلك اللحظة أن هذه الصيحة اللعينة ستظل ملتصقة باسمه كلما ورد ذكره على ألسنة سكان الأرض، فمن يدريه أنه لن يوصم بها حين يمثُل في حضرة سيد السماء؟ لقد أجمع الناس على خطئه. فهل كان من حقه أن يصدق نفسه ويكذب شعبًا بأسره؟

كان شكه يمعن في تعذيبه، أما إيمانه فقد كاد يقتله. فبالرغم من كل ما حدث أحس «أخناتون» في قرارة نفسه أنه على حق. وبدلًا من أن يورثه هذا الشعور شيئًا من راحة النفس التي كان في أمس الحاجة

إليها، إذا به يضيف إلى أحزانه عبئًا من الآلام، أدرك لتوه أنها قاضية عليه. فقد أحس بأنه ليس من حقه أن يموت دون أن ينصر تلك الحقيقة الرائعة التي أوحي بها إليه، فهو يدرك عن يقين أنه لو كتب له النصر في معركته ضد كاهن «آمون»، لتغير وجه التاريخ، ولتقدم تطور الحضارة البشرية مئات السنين.

ولكنه قد أخفق. وسوف يموت موصومًا بالخزي والفشل، فيجلب اسمه العار لأعظم حقيقة في الوجود، بينما كان من واجبه أن يرفعها إلى أسمى مراتب الشرف.

لقد صدق الشعب إذن حين لقبه بـ«مجرم آتون». فهو قد أجرم في حق إلهه الواحد الأحد الذي لا شريك له، وكان جرمه من الشناعة بحيث تتضاءل إلى جواره سائر جرائم البشر. إن الله قد شرفه بأن اختاره مبشرًا بأسمى رسالة نزلت على الناس. أما هو فقد خيب ظن إلهه فيه، وأثبت أنه لم يكن أهلًا لحمل أعباء تلك الرسالة الضخمة. لقد أخفق وإن جرمه لعظيم...

كان صياح الشعب يزداد ارتفاعًا وقربًا. وهمت «نفرتيتي» بإغلاق نافذة الحجرة، وإذا بها تشعر بأصابع زوجها الباردة تمسك بذراعها، وسمعته يتمتم قائلًا:

ـ ابقي مكانك.

نظرت إليه فإذا بالدموع تسح من عينيه.

ـ ما لك يا «أخناتون»؟

ـ دعيني أستمع إلى حكم شعبي عليَّ. أجل. أنتم لعمري محقون. أنا هو مجرم «آتون»... صيحوا أيها الناس، وارفعوا

أصواتكم حتى تملأ جنبات الأرض وعروش السماء. فهذا جزائي الحق.

تململ الملك في فراشه برهة ثم تمتم قائلًا:

ـ رباه... لقد حقت عليَّ اللعنة وقد كنت أرجو أن أشرف اسمك.

ولكنك لم تهبني قوة من عندك أستعين بها على ضعفي..

وطفق «أخناتون» يبكي في صمت.

أصبحت زمجرة الشعب تدوي كالرعد، وبعد برهة وجيزة اقتحم الأمير «توت عنخ آتون» حجرة الملك بغير استئذان وصاح متكلفًا الهلع والذعر:

ـ يا صاحب الجلالة!

رمق «أخناتون» مخطوب ابنته من خلال دموعه ثم لوى شفتيه وقال في هدوء:

ـ ماذا تريد يا «توت عنخ آمون»؟

ـ «آمون» يا صاحب الجلالة!

ـ أجل يا «توت عنخ آمون» فإن «آتون» بريء منك. ولقد كنت أحسبك من اللباقة وحسن التصرف بحيث تسدل الستار على خزيك، فتكمن بعيدًا عنا إلى أن يحين وقت اقتسام الأسلاب. ولكني أراك تواصل تمثيل دورك. أفلم تنته مأساة زعيمك بعد يا أمير «الخبز والسمك»؟

تصنع الأمير الكبرياء فشمخ بأنفه وقال:

ـ أيها الملك. كل منا يعمل بوحي من ضميره. فليس لك...

ولكن الملك لم يتركه يتم حديثه، بل صرخ فيه بصوته كالرعد:

ـ اغرب عن وجهي!

وما إن انسحب الأمير جارًّا أذيال عاره، حتى دخل «سمنكرع» على الملك لاهثًا وقال بصوت ينبض بالهلع:

ـ مولاي. إن الرعاع على وشك أن يحطموا أبواب القصر.

ابتسم «أخناتون» في حزن وقال:

ـ إنهم ليسوا رعاعًا يا «سمنكرع» بل أشراف الأمة هم الرعاع، اذهب فبشرهم بأن فرعون لم يعد.

وبعد برهة وجيزة علا صوت كبير الأمناء من شرفة القصر قائلًا:

ـ صمتًا أيها الشعب... صاحب الجلالة «سمنكرع» فرعون مصر...

وبرز «سمنكرع» في الشرفة فهدأت ثورة الشعب. وساد الصمت الذي لم يلبث أن شقه صوت «سمنكرع» يقول:

ـ يا شعب مصر.. لقد نزل صاحب الجلالة «أخناتون» عن العرش. وشاءت إرادته أن نخلفه نحن في الحكم.

* * *

لزم «أخناتون» الفراش ثلاثة أيام. وفي عصر اليوم الثالث أحس ببعض الانتعاش، فطلب إلى زوجه أن تجلسه في الشرفة، ففعلت وقبعت عند قدميه تحدثه وترفه عنه قائلة:

ـ ها قد عاد اللون إلى وجنتيك يا طفلي العزيز.

ابتسم «أخناتون» لزوجه ووضع يده على رأسها وقال:

ـ أنت و«سمنكرع» كل ما بقي لي على الأرض. ايه يا «نفرتيتي»... أليس عجيبًا أنني صرت أحبك الآن أكثر من حين اعتدت أن أقضي الليالي تحت نافذتك!

ـ وأنا أيضًا يا «أخناتون». لقد اشتد إكباري لك عندما رأيتك تواجه الشعب الثائر الذي كنت تستطيع الفوز برضاه بمجرد لفظ تنطق به. ولكنك مع ذلك أعلنت له في شجاعة إلهية بأنك لن تحارب. حينئذ امتلأ قلبي بالفرح، وأيقنت أن زوجي أعظم بطل أنجبه التاريخ.

ضحك «أخناتون» ساخرًا وقال:

ـ لا تحدثيني عن التاريخ. فلقد يصف هذا العمل الذي تمتدحينه بأنه أكبر حماقة ارتكبتها في حياتي.

ـ محال يا «أخناتون» أن يوصف الحق بالحمق.

ـ بل المحال يا عزيزتي أن يعيش البشر بغير الحمق. فهو عندهم العدالة والحق. لقد كنت في العام الماضي أتساءل عما يرويه عني التاريخ بعد موتي، فلم تتأخر الأقدار عن أن تسمعني الجواب. إنني مجرم «آتون» على مر الدهور...

ـ عجبًا يا عزيزي! أتجعل من أوهام الشعب المفتون الجاهل عنوانًا لك؟

ـ أو لم أكن ملكًا على هذا الشعب؟

ـ لقد شاء الله أن ينتهي ملكك عليه، فهو لم يكن يستحق زعامتك.

ـ أجل يا «نفرتيتي». لقد انتهى ملكي وانتهى كل شيء يتصل بي. لن يبقى على الأرض شيء يذكر الناس بي. لا ولد. ولا تلميذ. ولا ديانة. مدينتي ومعابدي سوف يهدمونها جميعًا ويدكونها دكًّا، فأحرم حتى ذكرى الحجارة التي يتمتع بها كل جدودي الفراعنة. ايه يا «نفرتيتي»..

ـ ما قيمة الناس والحجارة ما دمت أرضيت «آتون»؟

قطب «أخناتون» وعض على أنيابه قائلًا:

ـ فلِمَ لم يرضني «آتون»؟ لو أنني حكمت بعقلي البشري على ما قدره لي لقلت إنه قد ظلمني أشد الظلم.

ـ لا يا «أخناتون». إن أعدت هذا فلن أحبك. إنك تجعل للملابسات والأحوال أثرًا على تفكيرك، مع أن ما وقع من أحداث ليس هو الحكم على قدرك لأن ما وقع كان من فعل الناس، والناس لا يحكمون. يكفيك أيْ زوجي العزيز أن تكون نبي البشرية الأول ومعلمها المختار. فليس من مبدأ سامٍ ولا قاعدة خلقية ولا معنى جميل، سيصل إليه العالم في مستقبله القريب أو البعيد، إلا سبقته إليه أنت اليوم. أفلا يكفيك هذا جزاء من ربك يا «أخناتون»؟

صمت «أخناتون» وأطرق. وبعد برهة قال بصوت مخفوض:

ـ «نفرتيتي».. أسمع إلهي يناديني إلى جواره.

ـ وهل تموت غير مؤمن يا «أخناتون»؟

لم يجب. بل أطلق بصره متأملًا الشمس الغاربة ثم قال بعد لحظات:

ـ ها قد أقبل الظلام..

ثم أغمض عينيه وأرسل أنة طويلة وتمتم قائلًا:

ـ رباه.. لماذا تركتني...

نهضت «نفرتيتي» إلى زوجها فأمسكت بوجهه بين كفيها وقالت في لهفة:

ـ «أخناتون» حبيبي.. بربك قل إنك مؤمن..

ابتسم «أخناتون» في حزن وقال:

ـ غنني أنشودة الغروب يا «نفرتيتي»..

قبعت «نفرتيتي» في مكانها الأول، وبدأت توقع بصوت تخنقه العبرات:

آتون...

حين تغرب ذاتك في أفق السماء الغربي

تتشح الأرض بظلام كالقبور

وينام الرجال في مخادعهم

وقد لفوا رؤوسهم بالأكفان

فتقف رئاتهم عن التنفس، وتعمى عيونهم عن الإبصار

ولقد تسرق أمتعتهم من تحت رؤوسهم

ولكنهم لا يدرون

حينئذ تخرج الأسود من جحرها وتتحرك الأفاعي لتنفث سمها

إذ قد عم الكون الظلام

وصمت نبض الأرض

لأن خالقها قد ذهب إلى أفقه ليستريح(*)

* * *

كفكفت «نفرتيتي» دموعها ورفعت عينيها إلى زوجها وهي تتصنع الابتسام قائلة:

(*) فقرة من أنشودة «آتون».

ـ هل نمت أيها الحبيب؟

ولكن «أخناتون» لم يجب. فقامت إليه زوجته لتنقله إلى مخدعه، فإذا به قد أسلم الروح.

وكانت على شفتي الملك بسمة هادئة عذبة.

ترى بِمَ كان يحدث ربه قبل أن يرتفع إليه...

مراجع

سليم حسن، «مصر القديمة»، الجزءان الأول والثاني.

J. H. Breasted, *A History of Egypt*

A. E. Weigall, *The Life and Times of Akhnaton, Pharaoh of Egypt*

W. M. Petrie, *The Religion of Ancient Egypt*

E. A. Budge, *A History of Egypt from the End of the Neolithic Period to the Death of Cleopatra VII B.C. 30*

مختارات الكرمة

١ مليم الأكبر ـ عادل كامل

٢ الناس في كفر عسكر: أولاد عوف ـ أحمد الشيخ

٣. النزول إلى البحر ـ جميل عطية إبراهيم

٤. دنقلا ـ إدريس علي

٥. مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس ـ أحمد حجي

٦ الشبكة ـ شريف حتاتة

٧ ملك من شعاع ـ عادل كامل

٨. إجازة تفرغ ـ بدر الديب

٩ رابعة ثالث ـ علي الشوباشي

١٠ أيام الطفولة ـ إبراهيم عبد الحليم

١١ شخصيات حية من الأغاني ـ محمد المنسي قنديل

١٢ حديث شخصي: أربع تنويعات ـ بدر الديب

١٣. الرحلة ـ فكري الخولي

«من طليعة كُتاب جيلنا بغير جدال»

نجيب محفوظ

«أديب موهوب نابغ... رواية بديعة... تتجلى فيها موهبة عادل كامل المتفجرة»

رجاء النقاش

«كاتب عبقري»

خيري شلبي

«رواية رائعة»

محمد المنسي قنديل

«أجمل ما كُتب عن أخناتون»

أحمد عباس صالح

الأمير أمنحتب الرابع ولي عهد مملكة شاسعة، يحكمها الفرعون وزوجته بحنكة سياسية تمكنهما من صون السلطة في الأقاليم وفي الداخل على الرغم من المؤامرات التي يحوكها باستمرار كهنة معبد آمون لتوسيع نفوذهم وثرواتهم. ولكن اهتمامات الأمير بعيدة عن السياسة، فيُلقب بأمير الأحلام العذبة لصفاء روحه الهائمة بين التأمل المتنبه للطبيعة والشغف بالأميرة نفرتيتي.

وبعد أزمة وجودية شديدة تُغرقه في التعاسة، تنكشف له الحقيقة وهو سارح على ضفاف النهر، فيفطن إلى سر الحياة: الإله واحد، وكل ما في الكون ليس إلا تجليات لعظمته ومحبته. ومنذ تلك اللحظة يقرر أن يأخذ زمام الحكم في المملكة لينشر الحقيقة التي آمن بها.

فكيف سيواجه قوى الظلام والمصالح المادية والسياسية؟ صراع أبدي لا يقتصر على عهد أخناتون، تحكيه الرواية بأسلوب بديع ومشوق ونابض بالحياة.

عادل كامل أديب مصري من مواليد ١٩١٦، تخرج في كلية الحقوق عام ١٩٣٦. نشر أعمالا قصصية ومسرحية ابتداء من عام ١٩٣٨. نالت روايته الأولى، «ملك من شعاع»، الجائزة الأولى من مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٢، ونال نجيب محفوظ الجائزة الثانية عن رواية «كفاح طيبة». ولكن بعد أن رفض المجمع روايته الثانية، «مليم الأكبر»، قرر العزوف عن الكتابة وتفرغ لمهنة المحاماة. رفض المجمع كذلك رواية «السراب» لنجيب محفوظ في نفس العام.

يُعد عادل كامل من المجددين البارزين، وتبقى مقدمة «مليم الأكبر» من النصوص التأسيسية للحداثة في الأدب العربي. تُوفي عادل كامل عام ٢٠٠٥.

9 789776 467118

الكرمة